العالم بين دفتي كتاب

دراسات في فن القراءة

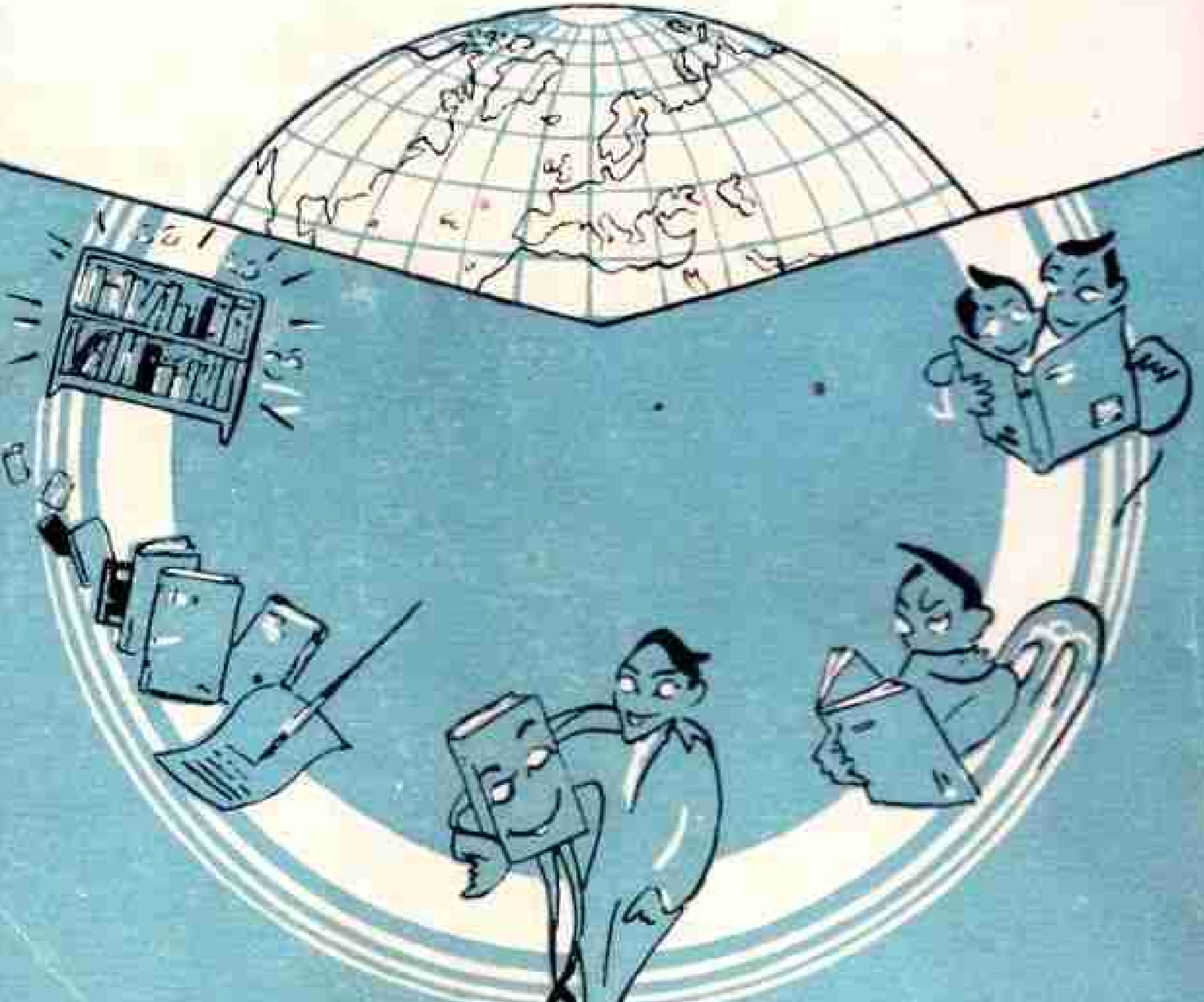

بقلم الدكتورة سهير القلماوي

من كتاب الفريد متفرد

العالم بين دفتي كتاب

لعدة مؤلفين

جمع وتحرير

الفريد ستيفرود

ترجمته بتصرف وأضافت اليه

الدكتورة سهير القلماوى

الأستاذة بكلية الآداب بجامعة القاهرة

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن ويوسف محمد واخوتهما

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

١٩٥٨

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

This is an authorized translation from, and adaptation of, « The Wonderful World Of Books » by Alfred Stefferud.

Published by New American Library. Copyright, 1952, by the Author.

الطبعة الاولى : مايو سـنة ١٩٥٦
الطبعة الثانية : أغسطس سنة ١٩٥٨

الإهـداء

الى الآباء والمعلمين والمربين .

الى هؤلاء الذين يؤمنون برسـالة الكتاب فى خلق الوعى القومى الرشيد وبناء الوطن الحر الكريم .

أهدى هذا الكتاب

لعل فكرة من فكره تدفع الى عمل ايجابى فى سبيل تقريب الكتاب الى القارئين .

سهير القلماوى

« إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خلَقَ »

« قرآن كريم »

أحبّ مكان فى الدّنى سرج سابح

وخير جليس فى الزمان كتاب

« المتنبى »

محتويات الكتاب

	صفحة
مقـــدمة	٩
١ ـ هذا الكتاب	١٧
٢ ـ الكتب أصدقاؤنا	٢٤
٣ ـ اقرأ معى	٣٤
لم لا نلعب بالألفاظ	٤٢
هل تقرأ شعرا ؟	٥٥
ولنقرأ معا قصصا	٦٤
هاك رواية	٦٤
وتلك قصة قصيرة	٧٨
وهذه مسرحية	٨٧
أما تلك فهى ترجمة حياة	٩٧
وهل أقص عليك قصة	١٠٣
٤ ـ كيف تقرأ ؟	١٠٨
متى أقرأ ؟	١١٩
القراءة المثمرة	١٣٤
معالجة العيوب	١٤٠
٥ ـ ماذا تقرأ ؟ ـ	١٤٩
آفاق التأليف من حولنا	١٤٩
أنا وخالقى فى الكتب الدينية	١٥١
أنا ووطنى فى الكتب عن بلادى	١٦١
أنا ومواطنى فى هذا العالم ؟	١٧٩
(كتب عن الناس فى أقطار الأرض) ...	١٧٩
أنا والكون والزمان	١٩٢
(كتب فى العلم والتاريخ)	١٩٢
معجم ودليل	٢٠٨

صفحة

٦ ـ كيف أختار كتابى ؟ ٢١٥
جمع الكتب واختيارها ٢١٥
خذ من الكتاب ما تشاء ٢٢٦
قدم الكتاب الى غيرك ٢٣٥
٧ ـ الكتاب بين الناشر والمؤلف ٢٤٠
التأليف الأدبى ٢٤٠
التأليف العلمى ٢٤٦
التأليف المدرسى ٢٤٩
كتب للجميع ٢٥١
شكل الكتاب وأجزاؤه ٢٥٧
الناشر وحرية النشر ٢٦٥
٨ ـ الكتاب يأتى اليك ٢٧٢
جهود فى سبيل نشر القراءة ٢٧٢
مؤسسة أمهات الكتب العالمية ٢٧٣
مكتبات الايمان ٢٧٤
تاجر الكتب صديق ٢٧٧
تسهيلات البريد ٢٧٩
جماعة الآباء والمعلمين ٢٨٢
القراءة للمكفوفين ٢٨٣
٩ ـ المكتبات ٢٩٠
فن المكتبات ٢٩٤
اتحاد المكتبات العامة الأمريكية ... ٢٩٨
أشهر المكتبات الامريكية ٣٠٣
مكتبة الكونجرس ٣٠٥
مكتبة وزارة الزراعة ٣١١
أشهر المكتبات المصرية ٣١٣
مكتبات على عجلات ٣٢٢

مقدّمة

عرف الشرق مدنيات عريقة فى القدم وكانت هذه المدنيات كلها تقوم على اجلال العلوم والفنون . ولما فنيت هذه الأمم القديمة ، وانمحى سلطانها ، لم تبق منها الا بضعة آثار ونقوش على أحجار أو أبنية هندسية عظيمة جليلة أو بضع أوراق عليها خلاصة هذا التفكير الذى كان يدير هذه الممالك والامبراطوريات .

والمدنية الفرعونية من أقدم هذه المدنيات وأعرقها ومن أكثرها امتيازا باجلال العلم بل بتقديس الحكماء . وكان الحكماء ، لا عند الفراعين وحدهم وانما فى سائر المدنيات أيضا ، سدنة الدين والعلم على حد سواء . فكان طبيعيا أن تجل المدنية الفرعونية الدينية منذ قديم مقام العلم والتعليم -- مقام الكتاب والمعلم والمدرسة .

وهذه بردية قديمة تعرف باسم « ورق ساليبه » ، قد حفظت لنا نصا ممعنا فى القدم يدل على منزلة الكتاب عند أجدادنا الفراعين . جاء فى البردية : « يقول — داووف بن خيتى ، أحد حكماء قدماء المصريين ، لابنه يوم صحبه

الى دار المدرسة لأول مرة — يا بنىّ ضع قلبك وراء كتبك وأحببها كما تحب أمك ، فليس هناك شيء تعلو منزلته على الكتب . واعلم يا بنى أنه ما من طبقة من الناس الا فوقها طبقة أخرى تحكمها الا الحكيم فهو الوحيد الذى يحكم نفسه بنفسه » .

ولعل هذا أقدم نص حفظه لنا التاريخ فى تمجيد الكتاب والاعتراف بمقامه فى المجتمع . وان دل هذا النص على علو كعب المصريين فى التقدم والرقى ، فانه يدل فى الوقت نفسه على أن الانسانية عرفت للكتاب قدره وبوأته مركزه اللائق به منذ أقدم العصور .

ولم يكن الكتاب فى عهد قدماء المصريين بالشكل الذى نتصوره اليوم من كلمة الكتاب ولكنه شكل من أشكاله على كل حال ، وصورة مهما تكن فهى تدل على المعنى الأصيل فى الكلمة — على الكلام المكتوب الذى يدل على تفكير ممتاز . ولم تكن المدنية اليونانية ولا الرومانية أقل عناية بالكتاب أو تبجيلا لشأنه . قيل لسقراط أبى التفكير اليونانى : « أما تخاف على عينيك من ادامة النظر فى الكتب ؟ » قال : « اذا سلمت البصيرة لم أحفل بسقام البصر » .

ولما نزل الوحى المحمدى على نبينا الكريم فى غار حراء كانت أول كلمة بين السماء والأرض بعد طول انقطاع « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . ولم يكن فى كلام السماء أى شك فى أن القراءة ذكرت بمعناها الذى نفهمه من كلمة القراءة اليوم ، فالآيات تستمر كما نعرف « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علّم بالقلم ، علّم الانسان ما لم يعلم » .

وكأنما هذه الكلمات كانت تعبيرا سماويا عن بلوغ الانسانية من الرشد ما يجعلها أخيرا تعرف الطريق الى حياة أفضل — الطريق الى القراءة والى المعرفة والى العلم ، أى الى الكتاب . ولقد بلغ من اجلال الاسلام للكتاب والعلم أن الله عز وجل يقسم بالقلم فى قوله « ن والقلم وما يسطرون » .

وظلت المدنية الاسلامية تجل الكتاب والعلم والحكمة حتى فى أحلك عصورها وظلت شريعتها حريصة على اكرام مقام العلماء والمتعلمين . حتى فى حياتنا اليومية العادية نجد شواهد من اجلال الاسلام للمتعلمين فى تشريعه . أليس فى جواز طلاق المرأة ممن ليس بكفء لها استثناء للمتعلمين . فالمتعلم كفؤ لأية امرأة ولو كانت أغنى الأغنياء وكان هو أفقر الفقراء . لذلك لا تنظر المحاكم الشرعية فى طلاق عدم التكافؤ فى أمر الزواج اذا كان متعلما . والحديث الشريف

أروع ما يمثل اجلال المسلمين للعلم وطالبه . ألم يقـل (صلعم) « ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب علم » .

وكانت حيـاة المسلمين ظلا لشريعتهم فأجـلّ الأدباء والشعراء العلم والعلماء كما أجلهم الخلفاء والحكام . هذا الجاحظ يقول : « دخلت على محمد بن اسحق أمير بغداد ، فى أيام ولايته ، وهو جالس فى الديوان والناس مثول بين يديه ، وكأن على رءوسهم الطير . ثم دخلت اليه بعد مدة وهو معزول جالس فى خزانة كتبه ، وحواليه الكتب والدفاتر والمحابر والمساطر . فما رأيته أهيب منه فى تلك الحال » .

أليس تصوير مهابة العلم فى هـذه الكلمات القليلة أبدع تصوير . رجل جالس وهو أمير العاصمة ابّان مجدها وحوله الناس وأرباب الحاجات ؛ ثم يعزل ويستبدل بالناس الكتب فاذا هو وسطها أهيب منه فى أمجد أوقات سلطانه وابّان نفـوذه .

وكان الخلفاء أنفسهم يجلون الكتب ويبوّئون الكتاب مكانه اللائق به . يروى أن بعض الخلفاء أرسل خلف بعض العلماء فلما جاء الخادم وجده جالسا وحواليه كتب وهو يطالع فيها . فقال له : « أمير المؤمنين يستدعيك » . قال : « قل له عندى قوم من الحكماء أحادثهم فاذا فرغت منهم حضرت » . فلما عاد الخادم الى الخليفة وأخبره بذلك ، قال :

« ويحك من هؤلاء العلماء الذين كانوا عنده ؟ » . قال : « والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد » . قال : « فأحضره الساعة كيف كان » . فلما حضر قال له الخليفة : « من هؤلاء العلماء الذين كانوا عندك ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين :

لنـــا جلساء ما نمـــلّ حديثهم
أمينون مأمونون غيبا وشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى
ورأيا وتأديبا ومجدا وسؤددا
فان قلت أموات ، فلم تعدُ أمرهم
وان قلت أحياء ، فلست مفندا »

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك الى الكتب فلم ينكر عليه تأخره . ولكن أيستغرب مثل هذا التصرف من خليفة يؤمن بكتاب أولى كلماته المنزلة « اقرأ » .

وأما الشعراء فلقد كانوا بعـــد انتشار الثقافة يتغنون بالكتب ويحبون أن يقرأوا فيها . وهذا المتنبى مثلا يقول :

أحب مكان فى الدنى سرج سابح
وخير جليس فى الزمان كتاب

ولقد تفنن الناثرون فى هذا المعنى — معنى أن الكتاب جليس حبيب الى النفس طيّع لا يملّك حتى تملّه أنت . يقول

على بن أحمد بن اسماعيل : « الكتاب هو المسامر الذى لا يبدؤك فى حال شغلك ولا يدعوك فى وقت نشاطك ولا يحوجك الى التجمل له . هو الجليس الذى لا يطريك والصديق الذى لا يغريك والرفيق الذى لا يملّك والناصح الذى لا يستذلك » .

* * *

لقد عرف الشرق الاسلامى منذ قديم المكتبات ، عرفها برواية ثابتة منذ أوائل القرن الثامن الميلادى . هذه رواية فى كتاب الأغانى[1] تصف مكتبه فى المدينة أيام الأحوص الشاعر الأموى المعروف . ولعل فى وصفها طرافة . فهى بالنسبة للمكتبات الأمريكية التى تحاول أن ترغب القارىء بشتى الطرق لأن يمكث فيها فيقرأ ، قد أدخلت ألوانا من الاغراء لا أظن أن أرقى المكتبات الأمريكية تقره . ولكنه يمثل عصره على كل حال . ويمثل هذا الروح الذى يسرى على مرّ الزمن فى كل الأمم العريقة التى ترغب صادقة فى أن ترفع من شأن الكتاب فى مدنيتها .

تقول الرواية : « كان عبد الحكم بن عمر بن عبد الله ابن صفوان الجمحى قد اتخذ بيتا فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم . وجعل فى الجدار أوتادا . فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها ثم جر دفترا فقرأه .

(١) جـ ٤ ص ٢٥٣ م . دار الكتب المصرية

أو بعض ما يلعب به فلعب مع بعضهم » . ثم تستمر الرواية فى وصف دخول الأحوص هذا المجلس فلم يكن يهم الراوى الدفتر أو المكتبة وانما همه كان الأحوص الشاعر وأخباره .

ومكتبات المسلمين فى عصورهم المختلفة مشهورة معروفة كانت مفتحة الأبواب للعلماء والراغبين فى الدرس بغير رسوم وبغير قيود . وكانت أقدمها فيما شهر مكتبة أبى عمرو بن العلاء وقد أحرقت أواخر حكم الأمويين . وهذا يدلنا على أنه منذ بدأ التدوين أوائل القرن الثامن الميلادى وتدوين العلوم خاصة ، عـُرفت هذه المكتبات الخاصة التى كان يقتنيها العلماء والكبراء وعرف العلماء طريقهم اليها . وليس المجال مجال ذكر هذه المكتبات الشهيرة فأخبارها فى كتب التاريخ معروفة . هذا هو تاريخنا القديم . وتاريخنا الحديث يهيب بنا أن نحيى سنة هذا الماضى . وأن نقوّى من روحنا الأصيل لحب الكتاب وتبجيل العلم ما أضعفت منه الأزمان والخطوب. وهذه المدنيات الأوروبية والأمريكية قد عرفت بدورها أن تبجيل الكتاب هو الأساس الذى تبنى عليه المدنيات فأخذت تدعو الى الكتاب وتيسر قراءته وتحث عليها بشتى الوسائل ومختلف السبل . ونحن مثلهم جديرون أن نحث على القراءة وأن نشجع عليها ونقرب مناهلها الى الناس كافة على اختلاف أعمارهم وأحوالهم ودرجات تعليمهم .

وهذا الكتاب ، الذى نقدمه ، جهد من جهود التشجيع على القراءة وتقريبها الينا والحث عليها . بل لقد قُصد به أن يكون نبراسا يعين على التغلب على مشاقها ، وييسر المرانة عليها والفائدة منها ويضاعف متعتها ويزيد من بهجتها . ولقد أقدمت على نقل صورة منه الى قراء العربية يحدونى الاعتقاد بأننا فى حب القراءة أصيلون وفى تبجيل العلم والعلماء سابقون فأخلق بنا ألا نتخلف عن الركب على حين أن الناس كلهم من حولنا يسيرون .

ولما لم يكن من المستطاع اخراج الكتاب فى صورته الأصلية مترجما كما هو لاختلاف المصادر والنصوص والكتب والأذواق والأحوال طلبت الى مؤسسة فرانكلين ، صاحبة الفضل فى تعريفى بهذا الكتاب وتكليفى بنقله ، أن أتصرف فيه ولو بالكثير كلما لزم الأمر ، فأذنت مشكورة مؤكدة أن الهدف — هدف الحث على القراءة والترغيب فيها وتيسير سبلها والتغلب على صعوباتها — أهم من التقيد بصورة الكتاب الأصلية . فالغاية أسمى من أن يقف فى سبيلها اعتراض مهما يكن .

١٥ من يونيه سنة ١٩٥٥ .

سهير القلماوى

هذا الكتاب

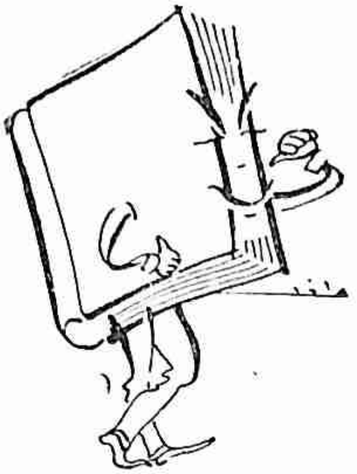

فى آخر صيف عـام ١٩٥١ اجتمع نفر من الكتّاب والناشرين وأمناء المكتبات ورؤساء أقسام الدعاية والارشاد فى مدينة وشنجطن لتدارس الموضوعات الخاصة بالكتب . لقد كانوا جميعا يعيشون على مهن تتصل بالكتب ولكن فكرة الكسب لم تذكر ولا مرة واحدة أثناء هذا المؤتمر . لقد كان كل الذى يعنيهم جميعا ويسيطر على تفكـيرهم ويوجهه هو هذا السؤال : « ماذا يمكن أن نعمل لنشجع الناس على القراءة ونرغبهم فيها وفى الاستزادة منها ؟ » .

لقد أصبحت القراءة فى العصر الحديث ، كما لا يخفى على أحـد ، أمرا حيويا جدا ليس من المستطاع أن نحيا فى مجتمعنا الذى نعيش فيه من دونها . انها اليوم حاجة ولم تعد ترفا . فالقراءة تمدنا بالمعلومات التى لابد لنا منها لنعيش وهى تساعدنا على حل كثير من المشاكل والمسائل التى تواجهنا

فتشغل بالنا أو تعرقل سير حياتنا أو تنغص علينا أسباب الحياة السليمة الصحيحة . وهى بعد الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها أن نفيد من تجارب الغير فهى الوسيلة التى نعرف بها ما مرّ من التجارب أو الحياة فى صقع آخر من الأرض غير الذى نعيش فيه . كما أنها الوسيلة التى بها نعرف ما مرّ من التجارب والحياة على أسلافنا طوال هذه القرون الطويلة من حياة أجيال الناس فى مختلف بقاع الأرض . وهى آخر الأمر بل قبل كل شىء سبيل لا يضارع للمتعة اللذيذة والتسلية الطريفة والتفكير الجميل والراحة من حياة مضنية تكاد تفنى فيها أعصابنا بين الضجيج والضوضاء والتوتر والسرعة .

وفى هذا المؤتمر أثيرت مسائل وعرضت مشاكل منها ما يمكن أن نفيد نحن المصريين منه ومنها ما هو بعيد عن جونا وظروفنا . فمما يهمنا هذا السؤال الذى توخى المؤتمر أن يرد عليه ردا عمليا : هل يستطيع المرء فى المجتمع الحديث أن يعيش دون قراءة . فكانت الاحصاءات عندهم على النحو التالى : ان تسعا وتسعين فى المائة من أهل أمريكا ينصتون الى الراديو حوالى ربع ساعة فى اليوم ؛ ومن ثمانين الى تسعين فى المائة يقرأون الصحف بانتظام ما . وحوالى

ثلثى البالغين يقرأون مجلة كل أسبوع بانتظام ؛ وحوالى الربع منهم يقرأ كتابا فى الشهر وحوالى نصفهم يقرأ كتابا فى العام .

ترى لو عمل هذا الاحصاء عندنا ماذا يمكن أن تكون النتيجة ؟ ان حال الأمية عندنا لتبرز للعيان لأول وهلة كأول فارق جوهرى أو عامل أساسى فى اختلاف مثل هذا الاحصاء . وحتى الذين يستطيعون أن يقرأوا كم ذا يقرأون ؟ وخاصة فى الكتب . يكفى أن نعرف الحقيقة الكبرى وهى أن كاتبا فى مصر لم يستطع بعد أن يعيش حياة متوسطة منتظمة من دخل بيع كتبه وأن أكثر الكتّاب عندنا لابد لهم من عمل حكومى منتظم أو عمل فى صحيفة منتظمة ليعيشوا لنلمح صورة باهتة ، وان تكن مؤسفة ، لحال حركة القراءة حتى بين المتعلمين منا .

ولقد كشف هذا الاحصاء عن أشياء خطيرة لأعضاء المؤتمر . كشف أولا أن الرد على هذا السؤال ليس هينا بحال من الأحوال ، وكشف ثانيا عن أن السمع قد أخذ ينافس العين فى تقديم ما تقدمه القراءة للناس من متع وثقافة . ثم كشف آخر الأمر عن أن القراءة الخفيفة العابرة أو الطائرة تزاحم القراءة الجدية المثمرة فتكاد تستخلص أوقات الفراغ لدى الغالبية العظمى من الناس .

وهذه سيدة من أعضاء المؤتمر تثير مشكلة أخرى .

انها تعجب من قلق المجتمعين واضطرابهم لأن أكثر الناس لا يقرأون . انها ترى ، بعد هذا الاحصاء ، أن أكثر الناس هناك لا يقرأون فكيف لو طالعناها باحصاءاتنا نحن . تقول السيدة : « أليس طبيعيا أن يؤثر الناس السهل على الصعب والراحة على التعب ؟ أو ليس التجار مثلا يعملون فى اعلاناتهم وترويج بضائعهم فى هذا الصدد على هـذا المبدأ ؟ فاذا اشتريت سلعة مثلا وأردت أن أتبين بالدقة طريقة استعمالها فانى أكون عنـدئذ مستعدة لأن أقرأ « كيفية الاستعمال » على الورقة المرافقة للسلعة . فماذا أجـد ؟ ان الرسـوم الكاريكاتورية مثلا أو البيانية تطالعنى فتغنينى عن القراءة دون تعب أو ارهاق . أرى الصور ومن تتابعها دون أن أقرأ حرفا أعرف ما أريد . ان البائع أو منتج السلعة على الأصح يريدنى أن أكون مستريحة لأقبل على الشراء وأسر من أنى اشتريت هذه السلعة بالذات دون غيرها » .

اذن هناك عوامل تعمل على عدم تشجيع القراءة ، وهى أكثر وأقوى من العوامل التى تعمل على تشجيعها . فمن سينما الى راديو الى رسوم كاريكاتورية . ثم ان فى الانسان ميلا الى سلوك السهل من السبل والى الراحة . فاذا أضفنا عامل قلة أوقات الفراغ وانتشار أمراض قصر النظر أصبحت المشكلة — مشكلة تشجيع القراءة — أعوص مما نظن .

فليس يقف أمام كل هذه العوامل المتكاتفة القوية الا عامل واحد : وهو أننا نرغب فى الفائدة والمتعة الفنية التى تمدنا بها القراءة . اننا نرغب بحكم الغريزة فى أن نعلم وأن نفتح أمامنا الآفاق وفى أن نحس الحياة أعنف وأقوى وأعمق مما نحسها فى الحياة الرتيبة اليومية . وهذا ما لا يمكن أن تتيحه لنا الا القراءة المثمرة ، القراءة الجادة الهادئة المشوّقة. أفلا يستحق مثل هذا الهدف تقوية هذا العامل بحيث يطغى على العوامل الأخرى ؟ ولكن أكثر الناس لا يمرنون على القراءة فى السن التى يجب أن يمرنوا فيها عليها . وان أكثر الناس ليحتاجون الى من يرشدهم الى الطرق التى بها يقرأون لا ليتعلموا كيف يقرأون ولكن ليتعلموا كيف يحبون القراءة بحيث تصبح ضرورة من ضرورات الحياة عندهم . انهم محتاجون الى من يرشدهم ويعرّفهم الطريق فى هذه الصحارى الواسعة المترامية الأطراف المملوءة بالتأليف — تأليف القرون الماضية وما ورثناه عنها وتأليف العصر الحديث بعد ما ازدهر وكثر كثرة عجيبة بفضل انتشار الطباعة وسهولتها .

ان الشعب الذى لا يقرأ لا يستطيع أن يعرف نفسه ولا يستطيع أن يعرف غيره من الشعوب فهو لذلك لا يستطيع أن يتآلف ويتحاب ويتلاقى . لأن الانسان بطبعه عدو

لما يجهل وكذلك الشعوب . ان الشعب الذى ترجوه كل أمة شعب يعرف نفسه ويعرف غيره فيحب هـذا الذى يعرفه ويقوده الحب الى العمل المخلص الذى يعود عليه وعلى جيرانه بالفوائد العميمة . ان الشعب يتألف من الوحدات الأولية ، وهى الفرد ثم الأسرة ثم أهل الحىّ أو الجماعة ثم أهل البلد أو المواطنون ثم أهل البلاد جميعا أهل العالم كله ، الانسانية التى تضم الانسان أينما وجد . وكل هذه الوحدات لا يمكن أن تتآخى وتعمل معا الا اذا عرف بعضها بعضا . حتى فى الأسرة الواحدة نرى أن عراها تتفكك وسعادتها تتهدد اذا جهل أفرادها بعضهم البعض فراح كل منهم يعمل لحساب نفسه . وهكذا فى أبناء الوطن الواحد . فلا يكفى أن نكون أبناء وطن واحـد لنتحاب ونتآخى وانما يجب أن يعرف كل منا مواطنه الآخر . والا خبّرنى كيف يمكن أن نحب أهل أسـوان ونحن لا نعرف عنهم شيئا . لو عرف كل جزء من القطر المصرى سكان جزئه الآخر — عرف عنه ما يكفى ، عن حياته وعن بلدته — لترابط المواطنـون المصريون ترابطا أقوى فى وطنيتهم ، ولتحـابوا وتآخـوا وتآزروا فى جهودهم ، ولعمل كل منهم للخير العام ، للوطن كله ، وهو يعرف ماذا يعمل وأين تقع جهوده من جهـود الآخرين .

وكذلك العـالم كله لن يتآخى الا اذا تبـادلت أوطانه

الأفكار والآراء والا اذا عرف أهل كل وطن منه كل ما يمكن أن يعرفوه عن أهل الوطن الآخر . ان المشاكل التى يصادفها الانسان فى وطنه تشبه الى حد بعيد ما يصادف الناس الآخرين فى أوطانهم . وعن طريق القراءة يمكننا ، ونحن نستعرض هذه المشاكل ، أن نفيد من تجارب الغير فى حلها . وقد نعرف عن نظام ما يكفينا شر أن نجربه فى أوطاننا اذا ما ثبت فشله فى بلاد أخرى وكنا نتفق واياها فى الظروف والأحوال . ان الاستفادة من تجارب غيرنا لا يمكن أن تصل الينا عبر المحيطات والقارات الا عن طريق القراءة .

وهذا الكتاب ، « عالم الكتب العجيب » أو « العالم بين دفتى كتاب » كما ترجمنا اسمه ، جهد من هذه الجهود التى اقترح المؤتمر بذلها فى سبيل نشر حب القراءة بين الناس ، ومحاولة تقريب هذا الذى يقرأون ، ودليل الى كيف يقرأونه . ان لذة القراءة تستحق كل مجهود يبذل فى سبيلها . واشراك أكبر عدد ممكن من الناس فى هذه المتع التى تتيحها القراءة ، والفوائد التى يمكن أن يجنوها منها هدف هو بدوره حقيق بكل ما يبذل فى سبيله من مال وجهد .

لذلك تعاون نحو من سبعين معنى بشئون الكتب من هؤلاء المؤتمرين (وقد كان عددهم نحوا من مائة) على كتابة مقالات هذا الكتاب ثم نشروه فى سلسلة « منتور » الرخيصة الثمن ليكون فى متناول أكبر عدد ممكن من القراء .

الكتب أصدقاؤنا

ان ما يميز الانسان من الحيوان هو التفكير . وان بعض الحيوان ليفكر بدرجة من الدرجات ولكن تفكير الانسان أرقى . وهو يصعد فى سلم الرقى بقفزات تعلو وتعلو أبدا . وسبيل هذا الصعود هو أن يبنى الخلف على آثار السلف مما لا يمكن أن يتم فى عالم الحيوان وانما هو يتم فى عالم الانسان ليس غير . ولا يمكن لهذا البناء أن يتم الا بوساطة الكتب ، فالكتب هى التى يمكن أن تدلنا على الدرج الذى ارتقى اليه الأقدمون لنرقى نحن فيما بعد . انها هى الكتب التى تقول لنا هنا وقف السلف ، ومن هنا يجب أن نزيد نحن . انها هى التى توفر علينا الجهد فى أن نبدأ من جديد فى كل ميدان من ميادين العلم أو المعرفة .

ولقد كانت الكتب الى عهد قريب أى الى العهد الذى كان فيه رجال الجيل الماضى أطفالا ، قليلة قلة ظاهرة بالنسبة

الى هذا الفيض المتدفق الذى تخرجه المطابع فى أيامنا . ومن يدرى الى أى مدى يمكن أن تزيد فى المستقبل اذا سارت بنفس هذه النسبة فى الازدياد . وأكبر الظن أنها ستسير بأسرع منها . انه فى نصف قرن ليس غير قفز طبع الكتب وانتشارها الى مئات الأضعاف ان لم يكن آلافها . فنظرة الى مكتبة آبائنا منذ نصف قرن تصور لنا شيئا من هذا التضخم . ماذا كانت تضم مكتبة أبى أو جدى مثلا . هذا هو القرآن الكريم وبعض كتب ، أو كتاب واحد على الأرجح ، من كتب التفسير القديمة المعروفة . وكتاب فى الحديث ، كثيرا ما يكون حديث البخارى ، لتفاؤل كثير من الناس بوجوده فى البيت . وكتب قليلة جدا من كتب الأدب القديم ؛ ديوان المتنبى مثلا . وبعض مؤلفات كتاب معاصرين لا تتجاوز العشرة . وقد نجد كتابا فى نوادر جحا ، أو نسخة من ألف ليلة وليلة ، أو نوادر لأبى نواس ، أو سيرة من سير الأبطال الشعبيين أمثال عنترة وسيف بن ذى يزن ، أو أى شىء من نوع هذه الكتب التى تخفف قليلا من جفوة الجو الصارم الحاد الذى تضفيه الكتب الأخرى . ولقد كان أبى طبيبا فاذا بعض كتب فى مهنته لا يمكن أن تجاوز بضع عشرات . وهذا هو كل ما فى المكتبة .

كم منا نظر الى هذه المكتبة الصغيرة فلم يدر بخياله

الغر هذا الخاطر الساذج « سأعيش لأقرأ كل الكتب فى العالم بأسره » . ولكن سرعان ما يكبر المرء منا ؛ فاذا هو على مر السنين يزداد احساسا بطفولة هذا الخاطر . واذا هو ينظر من بعيد بمنظار مكبر ليرى آخر الصفوف وهو يستعرض الكتب الشرقية القديمة وحدها . ان كتب الشرق خاصة لتضرب فى أعماق القرون وبطون التاريخ فتتعدى العشرات من القرون زمنا . فاذا ما عرف المرء منا لغة أجنبية تفتحت الآفاق أمامه تفتحا أوسع وأعجب واذا صفوف من الكتب تعلوها صفوف متشعبة منتشرة فى المحيط كله من حوله واذا هو فى حاجة ماسة الى بعض حبوب الفيتامين ، أو كتب ملخصة فى بعض الموضوعات على الأقل ليداوى بها فقر الدم الذى يعانيه فى عشرات من الموضوعات وعشرات مثلها من ميادين المعرفة .

ان رسالة الكتب ترمى الى أهداف ثلاثة . أما الهدف الأول فهو أن تعلمنا مالا نعلم والهدف الثانى أن توحى الينا بما نحتاج اليه من وحى فى الحياة وأما الأخير فهو أن تسمو بمشاعرنا ومداركنا الى ما يجب أن نسمو اليه من رفعة وطهر .

ان الكتب تعلمنا الحرفة التى نريد أن نحترفها فى الحياة مثلا . وهى تعلمنا ماذا يمكن أن نفيد من تجارب الغير فى

هذه الحرفة بالذات . وهى تعلمنا ماذا يمكن أن ننتفع به من تجارب من سبقونا وكيف يمكن أن نبعث الحياة فيما نعلم بحيث يحيا من جديد وننفع به أنفسنا ومن حولنا .

حتى قراءة شعر المتشائمين من الشعراء تفيد لأنها ترينا على الأقل ، أن الحياة التى نحياها ، اذا ما قسناها بحياتهم ، أفضل منها وأليق بأن تبعث النشاط والأمل . انها ترينا أن دنيانا اذا ما قورنت بدنياهم أفضل حالا وأبعث على الأمل والتفاؤل . أما شعر المتفائلين فهو بدوره ينعشنا ويجعل نور الحياة فى أعيننا يتوهج وينتشر ضياؤه . ان الشاعر الكريم يقوى فينا الاحساس بالكرامة والشاعر القوى ولو فى شعره ليس غير يبعث فى نفوسنا القوة ؛ انظر الى قول المتنبى :

ردى حياض الردى يا نفس واتركى
حياض خوف الردى للشاء والنعم

أو أنظر الى قوله :

فلا تحسبن المجد زقا وقينة
فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الرجال وأن ترى
لك الهبوات السود والعسكر المجر

أفلا تحس الحياة تتدفق فى عروقك اثر قراءتها ويخيل

اليك أن تقوم من جلستك لتعمل عملا قويا يغير من الحال أو حالك بالذات ، غير هيّاب ولا خائف وانما مقدم فى قوة وفــورة .

وقد يشكو الشاعر حظه العاثر أو فقره فاذا نحن نتعزى بذلك عن حظنا أو زماننا ونرضى بقضاء الله رضا يثلج الصدر ويدعو الى الأمل . فما دامت الحال هكذا مع غيرى اذن فهذه طبيعتها ، وما دامت طبيعية ففيم الجزع منها .

ان حظى كدقيق بين شوك نثروه
ثم قالوا لحفاة يوم ريح اجمعوه
صعب الأمر عليهم قال قوم اتركوه
ان من أشقاه ربى كيف أنتم تسعدوه . كذا

ثم انظر الى نوع آخر من القراءة قراءة التاريخ والجغرافيا والقصص . اقرأ مثلا تاريخ الأهرام ثم انظر اليها بعد ما تكون قد عرفت عن الفراعنة الذين بنوها ما عرفت . ألا تحس عظمة الأجداد تتدفق فى مشاعرك تدفقا جديدا . ألا ترى لسمو التفكير فى معنى الحياة والموت والعلاقة بينهما آفاقا أرحب وأوسع مما كنت ترى وأنت تنظر الى الأهرام جاهلا كل شىء عنها . ان الأهرام التى كانت تبدو لك مجرد بناء ضخم شامخ قد أخذت تنبض بالحياة بعد ما عرفت

أنها مقابر ملوك عظام ، آمنوا بالحياة بعد الموت وصعدوا يضربون فى كبد السماء بما شيدوا لأنفسهم من مقابر . واذا عظمة الهندسة والبناء التى كانت وما زالت معجزة ، توحى بكل ما يجب أن يوحى به هذا الاعجاز الفنى . واذا الآثار فى داخلها تدعوك وتلح فى الدعاء واذا أنت تقضى ساعات بل يوما كاملا هائما فى هذا الماضى السحيق محسا ما كان يحسه أجدادك البعيدون فى أغوار الزمن من معانى الموت والحياة .

وكذلك الشأن فى البلدان وما ينبسط على رقعتها من معالم جغرافية ، انها كلها تبدو للعين شيئا آخر يختلف أشد الاختلاف عن مجرد هذه الخريطة الباهتة التى تنطبع على العين لأول مرة وكأنما هى تافهة لا قيمة لها . هذه المدن مثلا التى تقرأ عنها فى القصص فاذا دروبها وشوارعها كلها تنطق بأحداث معينة تعرفها وترى أطياف أبطال قصصها يرتعون فى ربوعها فاذا هى حية حياة عجيبة . ان جنوب الولايات المتحدة مثلا ظهر بألوانه الزاهية لأول مرة فى عين الأمريكيين بعد ما ألف عنه القصّاص قصصهم ؛ بعد ما ألف عنه فوكنر وغيره . وحىّ البؤساء الفقراء فى لندن اتخذ صورة جديدة موحية ، فقصده الناس من أقاصى العالم ، بعد ما كتب عنه دكنز قصصه المعروفة . وهذه قاهرتنا العزيزة وقد شعت

بألوانها الزاهية على العالمين ، فجر هذا العصر الحديث ، بما قد صورتها به ألف ليلة وليلة . فمن أحداث باهرة عجيبة تدور على مسرحها الى حياة صاخبة لذيذة يتجاذبها كل من كانوا فيها من تجار وملوك وجوار وسحرة وصعاليك بل جن وشياطين . لقد كانت القاهرة فى نظر من زارها من كتّاب فرنسا مثلا ابان القرن الماضى وقبيله « قاهرة الليالى » . هكذا كانوا يسمونها .

والريف المصرى الهادىء الجميل الموحى بالتأمل والسمو فوق واقع الحياة يبدو لعين الطفل الناظر اليه من شباك القطار مثلا مجرد أرض عليها شجر مبعثر هنا أو هناك وبعض بيوت من الطوب أو الطين واطئة سوداء فقيرة معتمة . ولكن ذلك كله يصبح ، بفضل ما نقرأ عن الفلاح المصرى ، أرضا شبه مقدسة ، لأنه مسرح حياة أمة سبقت الأمم عراقة أصل ومدنية . بل ان منظر الشادوف الذى يبدو لعين الجاهل العادى مجرد رمز على التأخر ، يصبح فى عين القارىء الحق الذى يفهم أكثر من مجرد الصور ، (التى تقول ان هذا الشادوف ما زال الفلاح المصرى يستعمله هو هو منذ آلاف السنين رغم تقدم الآلة فى الغرب) ، وكأنه الشارة العزيزة التى تنم عن جلد هذا الفلاح وصبره وقوته واذعانه للقضاء ورضاه بالقليل الذى لا يقنع به سواه . ان هذا الشادوف

بفضل موال بلدى يصبح رمزا على هذه اليد السمراء — يد أجدادى وأجدادك — التى لم تتمرد أبدا على الأرض الطيبة . وانما عملت فى أحلك العصور وأصعب الظروف وبأضعف الامكانيات فى قوة مثابرة راضية ، تنظر الى المستقبل البعيد وتأمل أملا هينا رفيقا ولكنه جميل لأن الأرض الطيبة لم تخنها فى يوم من الأيام حتى تثور . لقد ضمنت لها رزقها الضرورى دائما أبدا . ان الفلاح المصرى لم يجع ولن يجوع ، ولم تزلزل أرضه ولم يفض نهره الا فى رفق رفيق لم يهز حياة أهله ويزلزل اقامتهم على هذه الأرض الحنون . لقد عملت يد أجدادى وأجدادك بهذا الشادوف ، وهى ستعمل بأرقى الآلات غدا ولكنها دائما أبدا اليد المتأملة الصابرة التى ترغب فى السلم وتحن الى حياة الهدوء والسكينة ولا تغير من طبعها الهادىء ونفسها الرضية المطمئنة الا اذا استثيرت أعنف اثارة وأقواها .

لولا الكتب لمرّت بنا مناظر القرى والدساكر رتيبة فارغة بائسة يائسة لا توحى بشىء . انها مجرد ألوان وخطوط وظلال تتلاقى وتفترق ولا تترك فى الخيال الا ما يتركه المنظر العابر يراه الطفل من خلف زجاج نافذة القطار ، وهو يعبر به الريف المصرى الخالد من مكان الى مكان .

وشجرة القطن بفضل القراءة تصبح لا مجرد عود بنى عليه ورق أخضر ولوزة مفتوحة تطل منها ندفة بيضاء . ان القطن ثروة مصر وعصب اقتصادها وأكثر ما تتوقف عليه حياة هؤلاء الفلاحين الذين يعيشون من حوله . انه صيت مصر فى أسواق العالم ، وهو رمز الأمل الراضى الجميل فى نفوس سكان الريف . انه أمل المحبين فى الزواج ، فبثمنه سيؤثثون بيتهم ويعلنون أفراحهم ، وهو رمز آمال كثيرة ، أمل المفلس فى الفرج ، وأمل الصبى فى العلم وأمل الشيخ فى الحج الى بيت الله الحرام . وقد يكون منذرا بشرّ فمن يدرى ماذا سيكون ثمنه ؟ وكم ذا سيكون أمينا على تحقيق ما قد أثقل به عوده من آمال ؟ انه مؤثر فعال ومارد جبار ، نذير خراب أو بشير أفراح حسبما يريد له الله أن يكون .

وليس ما نقرأ فى كتب الاقتصاد وحدها هو الذى يضفى على عود القطن ألوانه ومعانيه وانما القصص الذى حيك حول مواسمه والمواويل التى تغنى فى جمعه وكل ما يمكن أن نقرأ عنه هو أيضا يعمل بنصيب فى أن يحيل عود القطن الى كائن حى أىّ حياة .

وهكذا تبدو لنا مصر بروحها الشامخ من خلل مناظرها الطبيعية وآثارها القديمة تنبض بالحياة وتوحى بالخيال فاذا

هى ليست مجرد صـــور صامتة أو مجرد ألوان وخطوط تنعكس على حدقة عين وانما هى انسجام وجمال بل هى أكثر من الانسجام والجمال الذى يبدو فى المناظر الطبيعية . انها انسجام فن وجمال آيات لأنها رموز واشارات الى آلاف المعانى وآلاف المعلومات التى تملأ النفس غبطة وتشعّ فيها احساسا فريدا بالبهجة . انها طاقات من الايمان تتفجر فينا فتشعرنا أننا ، أفرادا وأسرا وجماعات ، تتلاقى جميعا عند هذه المعانى وتتعارف كلنا من خلل هذه الاحساسات .

لا شك أن ريفنا المصرى لم يستغل بعد فى الكتب كما يجب أن يستغل فى الأدب والتاريخ والفن ولكن ما استغل منه الى الآن يوحى بكل هذا وهو بعد مصدر وحى جديد لجيل من الفنانين والكاتبين والمؤرخين سوف يكون(*).

(*) بنى هذا الفصل على فكرة مقالى سميث (T. V. Smith) وهاورد (R. M. Howard) فى فصل « الكتب أصدقاء »

اقرأ معى

قد يكون سبب الفرار من قراءة الكتب عقدة نفسية نمت معنا من عهد الطفولة ولكنها أهون العقد النفسية شأنا لأنها لا تعتمد على جذور طبيعية فى النفس . بل العكس هو الصحيح ذلك أن الغرائز الطبيعية تدعو الى القراءة لا الى الهروب منها . لذلك يكفى الارشاد الحانى من مدرس أو مرب أو صديق لعلاج هذه العقدة . فالقراءة متعة عظيمة بسعر رخيص ، وهى فى الوقت نفسه لا تقيد الانسان بزمان أو مكان فهو يستطيع أن يقرأ وقتما يريد وأينما يحلو له .

ولقد كان السماع فى قديم الزمان يقوم مقام القراءة وكانت أخبار أبطال القدماء ومغامراتهم تقص على الناس شفاها . فالالياذة والأوديسا وألف ليلة وليلة وسيرة عنترة وسيف بن ذى يزن كلها قصص تاريخى أو خيالى وكلها كانت تنشد للجمهور على آلة موسيقية ليسمع ويطرب لما يسمع .

ولكن العصر الحديث يقدم لنا هـذا القصص والتاريخ والخيال الشعرى كله بين دفتىّ كتاب . وقد استعاض عن الآلة الموسيقية باستعدادك للسماع الذى نما بنمو الثقافة وانتشار التعليم . ذلك أنك لا تفزع الى القراءة الا وأنت مريد لها ملتفت اليها مستعد الى الانصات الى كل ما فيها . والكتاب الحديث منشد عصرى يحدثك أو يغنّيك بالطريقة التى تلائم عصرك ولكنه دائما أبدا رغم الصمت فى حروف الطبع انسان يحادثك من خلل ما تقـرأ فيسلّى وحدتك ويمتعك ويعلمك ويلذك .

ومن بين دفتىّ الكتاب تتعرف الى هؤلاء الأبطال . ان الأبطال الذين تلقاهم فى الكتب أقرب الى القلب من أبطال الحياة : انهم أكمل وأكثر انسانية وأقرب الى النفس . لذلك تستطيع أن تكوّن بينك وبينهم صداقات لا يمكن أن يتاح لك أن تكوّنها مع أبطال الحياة . انهم أقرب وأيسر منالا . بل هم طوع اشارتك تتقدم اليهم اذا شئت ويحدثك عنهم أقرب النـاس اليهم أو هم أنفسهم فاذا أنت تعـرف عنهم ما لا يمكن أن تعرفه عن بطل الحياة ولو يسر لك أن تلقاه كلما شئت . وهذا بدوره شـبه مستحيل . فاذا ما عرفتهم وجدت نفسك فيهم وأحببتهم بل أحسست أنهم هم يحبونك

أيضا . واذا أنت تغشى مجتمعاتهم كما لا يتاح لك أن تغشاها في الحياة . واذا أنت تعرف أهلهم وأصدقاءهم وتحيا معهم حياتهم بكل ما فيها من حيوية وتدفق وأحداث شائقة وظروف ممتعة .

ومن الناس من لا يحب أن يتعرف الى الناس أو يجتمع بهم ولكنه يجب أن يتعرف الى الحياة . انه لا يميل الى أن يعرف ممن تتكون الحياة ، ولكنه يحب أن يعرف كيف تتكون الحياة . وكما تمدنا الكتب بصور عن الرجل منذ عهد بداوته الأولى تتدرج الى صور عن تطوره حتى يصل التطور الى الانسان الخيالي الخارق الذي سيوجد بعد ألفي عام على الأرض أو في الكواكب الأخرى أيضا ، فكذلك تقدم لنا الكتب معلومات عن الحياة نفسها أيّ معلومات . معلومات تختلف قيمة ولذة وتتلون وتتعدد . فمن معلومات عن جرائم شارلوك هولمز أو صعاليك العرب أو أعمال الشطار وحيل على الزيبق المصري الى معلومات عن أدق مكتشفات العلوم . معلومات عن الحياة وعناصرها وتفاعل عناصرها كأدق ما يمكن أن تكون وأمتع .

ان القراءة نوع من المرانة العضلية للعقل ، وهذه المعلومات لا تأتي اليك لتدخل من تلقاء نفسها الى كيانك ووجودك

ولكنك أنت الذى تمد عقلك اليها فاذا عقلك ينشط لهذه الحركة ثم يتعود النشاط ويمتد الى أبعد ويتعود الجهد . وكل هذه الكتب تتصل وتتلاقى آخر الأمر فى عقلك وكأنها البيوت المختلفة التى تكوّن مدينة من المدن كل منها وحدة ولكنها كلها معا تكوّن المدينة العظيمة بطابعها المميز — مدينة عقلك وخيالك التى بنيتها أنت كيفما أردت . وهذه الكتب يتصل بعضها بالبعض صلات أسر وقرابات فبعضها بموضوعاتها تتصل صلات أبناء العم وبعضها يبنى على الآخر ولا يفهم الا به . كما يبنى الطفل على أبيه ولا يفهم الا معه . فالبنوة لا تفهم الا بأب وطفل وكذلك بعض الكتب لا تفهم الا اذا أفهم بعضها البعض الآخر .

وهذه الكتب أمامك طوع بنانك تدعوها فتلبى النداء وتتركها فلا تشكو الهجران . ولكن الروح الذى تقبل به على الكتاب له كل الأثر فى تذوقك له . فلو ذهبت الى مكان ناء لتريح أعصابك من عناء العمل ومشقة الجهد ثم حملت معك كل مشاكل عملك وتعقيداته لتظل تفكر فيها ليل نهار لأفسدت راحتك ، واذا بك تلوم المكان وتستثقل ظله وقد تكرهه . ولا ذنب للمكان فيما تشكو منه . ولكنك لو ذهبت اليه وقد آليت على نفسك أن تستريح فعلا من العمل

ومشاكله ، وألا تفكر الا فيما يلقاك به المكان نفسه من أفكار وصور لأتحت للمكان الفرصة العادلة لأن يؤثر فى نفسك بمميزاته وطاقاته .

ان الكتب لينة طيعة حلوة الطبع رقيقة المعشر فخذ منها ما تأخذ ودع منها ما تدع ، ولا ترغم نفسك بأى حال من الأحوال على قراءة ما لا تحب . لا تفسد لذة القراءة على نفسك أو على غيرك بالالزام ، فلاشيء يفسدها قدر ما يفسدها الارغام عليها . وانما خذ الكتاب فى انشراح وبسطة أسارير واعلم دائما أنك تستطيع أن تتركه وقتما تشاء وأن تغيره الى ما تحب .

ان التمتع بالقراءة شرط أساسى فى كل نوع منها حتى فى القراءة العلمية بل حتى فى قراءة الطالب للعلم . ان القارىء ان لم يسلم نفسه للمؤلف ويذهب معه حيث شاء ليرى فى التاريخ مثلا الماضى والحاضر والمستقبل كلا واحدا فيسر لهذا الرباط الذى يربط بين أزمان الحياة ، أو يرى فى المعمل مع العالم صفحة من الحياة دقيقة مشوقة تبهجه تنائجها ، وتوقظ فيه حب الاستطلاع الى معرفة ما هو مجهول منها ، أو يرى فى الحياة مع الشاعر والقاص ألوانا من النــاس وطائفة من المشاعر تعرفه نفسه وتسلمه فى رفق الى الاحساس

بأنه قد عرف شيئا جديدا أو أحس معنى طريفا ، ان القارىء اذا لم يفعل ذلك فقد الكثير من بهجة القراءة بل لعله يزرع فى نفسه بذور كره القراءة فاذا نمت تلك البذور لم يكن الخاسر الا هو .

ان من الناس من يحب القراءة حتى انه لا يجد فى الحياة لذة سـواها ، وان منهم من لم يقرأ كتابا فى حيـاته خارج الكتب المدرسية ، ولكن أكثر الناس يقرأون الى حد ما ، الا أن يكونوا لا يقرأون أصـلا لأنهم لا يعرفون كيف يقرأون . وليست هناك وصفات طبية يمكن أن نمليها على القارىء ليتحول من قارىء عادى أو كاره للقراءة الى محب لها شغوف بها . ان القانون فى هـذا الصدد كما يقول برنارد شو « القانون الذهبى فى هذه الحال هو ألا قانون هناك » . ليس هناك ما يمكن أن نوصى به القارىء فيتبعه . ولكنها ملاحظات وارشادات لا تقلب الكاره الى المحب الشغوف وانما تنمى الحب عند من عنده الاستعداد . وكلنا فى الواقع عندنا استعداد لأن نحب القراءة . لأن غريزة حب المعرفة متأصلة فينا تبدو فى الشخص السطحى حب استطلاع وتتجلى حتى فى الطفل فيكثر من الأسئلة وتبدو فى الشخص العالم شغفا يضحى فى سبيله بالحياة حتى يصل الى معرفة

ما يريد أن يعرف من أسرار العلم فى معمل تجاربه . بل انها لتظهر فى شخص الفيلسوف فى استسلام تام الى التفكير المستمر وراء البحث عن الحقيقة أو معرفة الحياة .

وما دمنا كلنا تتمتع بغريزة حب المعرفة ، فاننا جميعا نولد ولدينا بذرة صالحة لنبنى حب القراءة عليها . فلا وسيلة خير من القراءة تشبع حب المعرفة وتغذيه فينمو ويبهجنا بل يلذنا بنمائه فنطرب لشبعه ولريه .

ولكن ما السبيل الى تشويق الناس الى القراءة ؟ ما السبيل الى ايقاظ هذه الغريزة التى قد تكون نائمة عند بعض الناس . السبيل الوحيد هو الارشاد الرفيق اللطيف . والوصية الأبدية ألا يكون هناك ارغام . فالجسم بحاجة الى الطعام شديدة ولكننا اذا أرغمناه على طعام زهده ، أما اذا قدمنا له الشهى من القراءة وعرفناه مزاياها وتركناه وحده ، يدع ما يدع ويختار ما يختار فاننا نكون كمن يعرض الطعام على جائع فى أبهج شكل ومع العرض أبدا وبغاية الذوق هذا القول « خذ ما شئت ودع ما لا تشاء واذا أردت غيره قدمناه لك » . عندئذ يقبل الجائع على طعامه مشوقا مندفعا يلتهم الطعام التهاما .

وهنا نقول له مهلا أيها الجائع ما هكذا يؤكل الشهى من

الطعام . انك تريد أن تسيغه فتمهل فى هذا ، انك تستطيع مثلا أن تشرب هذا على عجل لأنه سائغ سهل ولكن ذاك الطعام على لذته ، عسر الهضم فامضغه جيدا حتى لا تضار به(*) .

(*) بنى هذا الفصل على فكرة مقال « انها لمتعة أن تقرأ » بقلم بنيت سيرف (Baenett Cerf) من فصل « مباهج القراءة ».

لم لا نلعب بالألفاظ ؟

ان الألفاظ ، أداة الكتابة ، موضوع شائق للغاية . كثيرا ما ألف عنه النقاد والبلاغيون كتبا بأكملها . فسحر الألفاظ وموسيقاها وطاقاتها على اشعاع المعانى فى النفس شعرا ونثرا كل هذه الموضوعات وغيرها كانت مدارا للبحث والنقاش والدرس والتأليف . ان اختيار الكلمة وحـده يعد المظهر الأول لقدرة الشاعر أو الكاتب على التأثير فى نفوسـنا . والكلمات اذا استعملت استعمالا ما أصبح لهـا من هذا الاستعمال طاقة معينة على أنواع من التأثير . ودراسة الألفاظ فى اللغة العربية قد حظيت ببعض العناية فنجد فى ثنايا بعض الموضوعات التى درسها البلغاء ونقاد الأدب بعض اشارات الى الصنعة والفن فى اختيارها . ففى الفصول التى يعنى فيها المؤلفون بالكلام عن السرقات الشعرية مثلا نرى مجالا للكلام عن الفرق بين لفظ ولفظ فى الدلالة على نفس المعنى . وشاعر كالمتنبى مثلا ملأ الدنيا بشعره فاذا زوبعة من الهجوم تثور عليه وتتجلى بعض مظاهر هذا الهجوم فى القول بأن المتنبى سرق معانيه من الشعراء السابقين . وفى كتاب «يتيمة الدهر»

للثعالبى نجد فصلا طويلا هو صورة من هذا التأليف يبين فيه الثعالبى بعض سرقات المتنبى ممن سبقه من الشعراء . فاذا المعنى الواحد وقد كسى كساءً جديدا يراه الخصوم أقل رواءً وأضعف تأثيرا من القديم ويراه المناصرون أفضل منه وأقوى . والمتأمل لهذه المجموعات يرى الفرق الواضح بين صورة من المعنى وأخرى لمجرد تغيير اللفظ . بل انه ليرى أن تغير اللفظ يغير المعنى نفسه تغييرا جوهريا وان كان يبدو فى ظاهره أنه واحد . هذا المتنبى مثلا يقول :

وان أسلم فما أبقى ولكن
سلمت من الحمام الى الحمام

فيقال انه أخذ المعنى من قول بعض العرب :

اذا بلّ من داء به ظن أنه
نجا وبه الداء الذى هو قاتله

ألست ترى أن اختلاف اللفظ قد غيّر شيئا هاما فى المعنى؟ وأمثلة هذا فى التأليف البلاغى العربى كثيرة جدا . والكلام عن جمال اللفظ ورونقه — أو مائه كما عبر عنه البلغاء العرب — يوجد كمقدمة لغير قليل من الكتب البلاغية .

وباب آخر فى بعض كتب الأدب نرى فيه كلاما عن اللفظ ومدى ما يحدث من الاختلاف فى المعانى بتغييره تغييرات

بسيطة ، هو باب فى المجموعات التى تحفل بها كتب الأدب عندما يتصدى المؤلفون الى جمع أقوال الشعراء والكتاب حول معنى واحد من المعانى . ونجد مثلا جميلا من هذا فى كتاب « المختار من شعر بشار » الذى نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر حيث نجد أثر كثير من المختار من شعر بشار فى أقوال الشعراء الآخرين ؛ أو شبهه عند من سبقوه . ففى وصف بشار مثلا لطول الليل نرى مؤلفى الكتاب يردفان هذا بأقوال غيره فى وصف طول الليل . كل شاعر يريد أن يقول الليل طويل ، ولكن كل واحد منهم يعبر عن هذا المعنى تعبيرا يختلف . فاذا صور ومعان وأفكار حول هذا المعنى البسيط الأول تتفجر من الألفاظ .

يقول بشار مثلا :

خليلىّ ما بال الدجى ليس يبرح
وما لعمود الصبح لا يتوضح
أضلّ النهار المستنير طريقه
أم الدهر ليل كله ليس يبرح
وطال علىّ الليل حتى كأنه
بليلين موصول فما يتزحزح

ولكن العباس بن الأحنف يريد أيضا أن يقول ان الليل طويل فيقول شيئا آخر :

أيهـا الراقدون حولى أعينـو
نى على الليـل حسبة واقتدارا
حدثونى عن النهـار حـديثا
أوصفوه فقد نسيت النهـارا

وهذا ثالث يقول فى نفس المعنى :

ما بال أنجم هـذا الليـل حائرة
أضلت القصد أم ليست على فلك
عادت سواريه وقفا لا حراك بها
كأنهـا جثث صرعى بمعترك

وهكذا نرى المعنى الواحد البسيط الذى يحسه كل منا يصبح شيئا آخر ، شيئا يختلف فى الواقع كل الاختلاف على ألسن الشعراء . ان كلا من هؤلاء الشعراء لم يرد أكثر من أن يقول « ان الليل طال علىّ » . ولكنه لو قال هذا ما كان شاعرا . انه يقول هذا المعنى بأسلوب شعرى — بألفاظ شعرية منتقاة انتقاءً خاصا . وفى هذا الانتقاء بالذات تتجلى شاعريته . ان طول الليل والشكوى من الهموم فيه ، معنى

كتب فيه شعراء العربية خاصة آلاف الأبيات ؛ ولكن منذ أن قال امرؤ القيس « وليـل كموج البحر » الى أن قال الشعراء المعاصرون كما قال رشيد أيوب مثلا :

الليـــل ومثـــلى يســـهده

والنجـم ومثـــلى يرصـــده

نجد عشرات الشعراء يقولون ويقولون فى نفس المعنى مرات ومرات ولو كانوا جميعا يقولون شيئا واحدا لمللنا ولما عددناهم شعراء . ولكنهم يقولون ألفاظا تختلف ، ولذلك فهم يقولون تفصيلات حول المعنى العام تختلف هى أيضا .

ان مجرد وضع اللفظ فى مكانه واستغلال الطاقة التى يمكن أن يحملها جرسه ومعناه وما ألقاه عليه الاستعمال من اشعاعات يدل دلالة واضحة على تفوق الشاعر اذا أحسن وعلى تخلفه اذا أساء . هذا المتنبى مثلا يقول لكافور عندما أصابته الحمى فى مصر وقد يئس من أن يفى له كافور بشىء مما وعـد :

وما فى طبـه أنى جـواد

أضر بجسـمه طول الجمـام

ما ضرّ لو استعمل كلمة حصان بدل جواد . ان الوزن نفسه لم يكن ليتغير أو يتأثر . ولكنه استعمل لفظ جواد بدل

حصان لأنه شبه نفسه بهذا الحيوان فى أقرب صوره الى الانسان وأجملها . انه جواد أى حصان ممتاز قد عنى به صاحبه ورفهه وادخره لكل ما يريد من متع الركوب . انه مترف يعنى بشأنه كل ما فى الأمر أنه يعنى بشأنه على غير الوجه الذى يريد . ولو قد شبه نفسه بالحيوان أى بالحصان من حيث انه هذا الحيوان ليس غير لما دل اللفظ على شىء من معنى الامتياز والرفاهية والجمال ثم الشقاء رغم كل هذا مما يريد المتنبى أن يقوله . وانظر الى شاعر آخر يقول عن حصانه فى الحرب :

حصانى كان دلال المنايا

فخاض غمارها وشرى وباعا

أليس يمكن أن يقول جوادى كان دلال المنايا . ولكنه لا يريد من هذا الحيوان فى موقف الحرب والموت بالذات الا حيوانيته مجردة عن الامتياز والجمال والرفاهية . انه يريد الحيوان لا من حيث الأصالة وما يتبعها من صفات الترف التى تليق بحياة السلم ومواقف اللهو أو المتعة أو حرب الفرسان وانما هو يريد هنا الحيوان الهائج المائج فى الحرب البشعة الضروس . الحيوان وقد تجلت حيوانيته يبيع الموت ويشتريه فى موقف تنسى فيه كل المعانى الا معنى الحيوانية

البحتة ــ معنى الموت والحياة فى غمار حرب بربرية طاحنة .

ان الشعر العربى أزخر شعر فى الدنيا بهذه الأمثلة لاختيار اللفظ . وما ذاك الا لأنه شعر لغة عاشت هذه القرون الطويلة حية فترددت فيها المعانى الشعرية ترددا عجيبا من حيث الكثرة وطول الزمن على نحو لم يحدث فى أى شعر آخر . لأنه ليس هناك هذا الشعر الذى تطاول لغته اللغة العربية طول عمر وامتداد رقعة .

والكلمة الواحدة لها مدلولات كثيرة فى الواقع وهذه المدلولات تحتشد كلها فى الكلمة والشاعر يختار منها ما يريد . انظر مثلا الى كلمة « قلم » حقيقة ومجازا ، كم ذا فيها من المعانى . فهى الأداة التى نستعملها فى الكتابة على اختلاف صورها فى أذهاننا من قلم حبر الى قلم رصاص الى قلم ملون الخ . وهى الأسلوب أحيانا ، وهى أداة العلم فى قوله عز وجل « علّم بالقلم » ، وهى وزارة التربية والتعليم تقريبا فى قول القدامى « رب السيف والقلم » . وهكذا كل استعمال لها نثرا كان أم شعرا يضفى على معانيها ايحاءات جديدة تصبح على مرّ الزمن جزءا ولا شك من معناها لأنها فى الواقع جزء من حياتها .

ومجرد جرس الكلمة كثيرا ما يكون عاملا فى تجاوبنا

النفسى معها حتى ولو لم نتأكد من معناها . بل حتى لو لم يكن هذا المعنى محــددا فى أذهاننا . انظر الى قول الشــاعر الأندلسى ابن زمرك :

ومن لمثــلى يبيت نجــوى
للبــدر فى رفــرف السحاب

فكلمة « رفرف » تلك بموسيقاها وحدها توحى بأكبر جزء من الجمال الذى نحسه من معناها — معنى اشراق البدر من وراء أطراف السحاب وكأنما هو يطل منه .

وهكذا يمكن أن نجد فى الكلمات وحدها لذة وفى تتبع معانيها المختلفة لذة أخرى وفى محاولة ادراك ما قد استغل الشاعر من طاقتها وما قد حرّف فيه من ايحاءاتها ليصل الى الأثر المطلوب لذة ثالثة . ان الكلمات ليست مجرد أصوات ومعان وانما هى زينة فنية وطاقة على تحريك العواطف وبعث الخيال وشحذ العقل . ان اللفظ الذى تصف به فتحسن الوصف يؤثر فينا أثرا قويا كقول ايليا أبى ماضى :

والليــل ســاج صــامت
فيه خشــوع الزاهــدين

اذ يصف الليل بقوله «ساج» . وكأنما الشاعر ، على حد تعبير بعض النقاد ، يأخذ باللفظ نايا وينفخ فيه فأما أن يخرج

لنا منه أعذب الألحان واما أن يؤذى به سمعنا شذوذا ونشازا .

وقد تسمع الشعر وتطرب لألفاظه وتكررها وأنت لم تدقق فى معناها . لأن الشعر يوحى لمجرد ترداده . خذ مثلا قول امرىء القيس المشهور الذى يكاد يحفظه كل دارس للأدب العربى ولكن قلما نجد منهم من تأمل معناه حقا :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهمـــوم ليبتــلى
فقلت له لمـــا تمطى بصـــلبه
وأردف أعجــازا ونــاء بكلكل
ألا أيها الليـــل الطويل ألا انجل
بصبح وما الاصباح منك بأمثل

فأنت لا تقف عند هذا التشبيه مثلا لتفهمه وتتمعن فهمه . انك لا تسأل نفسك مثلا وما وجه الشبه بين الليل وموج البحر . أهو الظلام؟ أهو الكثرة؟ أهو الجبروت؟ أهو التكرار اللانهائى ؟ أهو كل هذا أو بعض هذا ؟ ولا تقف أبدا عند قول الشاعر « ليبتلى » لتتبين علاقاتها بما قبلها — بقوله أنواع الهموم مثلا ، مما يشعر بأن الليل يجرب من الهموم أنواعا ويرزىء بها الشاعر ليبــلوه وليبتليه بكل صنوفها

واحدا بعد الآخر فى تتابع واستمرار مظلم متكرر مخيف ثقيل . انك لا تقف أمام الموج لترى استمراره وهــوله ، أو أمام الليل لترى سدوله وعددها وكثافتها وقد أسدلت على الشاعر فكأنما خصته هو وحده بكل ما فيها ، ولكنك تردد ألفاظ البيت معجبا بها وباشعاعات معناها من بعيد .

ان أكثر الشعراء بل أكثر الكتاب الناثرين الذين يسمون بأسلوبهم الى أرقى مراتب الفن وأروعها لا يقدمون لك من المعانى طريفا ولا من الأفكار جديدا . ولكنهم فى الواقع يقدمون لك نوعا من الســحر يرفعك عن واقعك قليــلا لتستشرف آفاقا من الحياة أوسع مما يمكن أن تستشرف من الواقع الذى تعيش فيه وأعم وأعمق . هذا طه حسين مثلا فى كتابه « على هامش السيرة » يقول : « ثم يشرق الفجــر وتبسط الشمس رداءها النقى على بطحاء مكة ، وما يحيط بها من الجبال . ويرتفع الضحى ويضطرب الناس فى أمورهم وقد قضوا ليلا جاهلا غافلا لم يشعروا فيه بشىء وكأن لم يكن فيه شىء . ولو قد كشف عنهم الغطاء ، ولو قد أزيلت عن قلوبهم الحجب ، لرأوا ولسمعوا ، ولكن الله قد جعل لكل شىء قدرا ، فهو يظهر آياته لمن يشاء ويخفى آياته على من يشاء . وعبد المطلب جالس فى الحجر وحوله أبناؤه

وجماعة من قريش قد أخذوا فيما يأخذون فيه من حديث وهو يسمع اليهم بأذنيه ويعرض عنهم بنفسه . يفكر فى فقيده الذى لا يستطيع أن ينساه . وانه لفى ذلك واذا البشير يقبل اليه مسرعا حتى اذا انتهى اليه حيّاه وقال : (ولد لك غلام . فهلمّ فانظر اليه) . فلا يسمع هذه البشرى حتى يحس أن الله قد أخلفه من فقده » .

ألا ترى كيف استطاعت هذه الألفاظ على بساطتها أن تحملك فعلا الى هذا اليوم فى مكة صبيحة ميلاد الرسول (صلعم) بكل ما كان فيه من بساطة طبيعية وبكل ما كان فيه من جلال هادىء متأمل سام . وهكذا تستطيع أن تجد فى نثر المنفلوطى فى « النظرات » وفى « ماجدولين » وفى نثر مىّ والعقاد والحكيم وتيمور والمازنى ، وسائر من كتبوا بنثرنا الفنى الحديث ، ألوانا كثيرة طريفة من هذه الأجواء الشعرية المتسامية ؛ يحملك اليها الأديب على جناحى اللفظ فيفتح لك الآفاق لترى بل لتحيا حياة أخصب . فاذا أنت مع أبطال الأحداث حينا ، وأبطال المعانى حينا آخر ، تتآلف وتتعارف وتنسجم فتحس من مجرد الاتصال بها ومضات من التفكير المنعش فاذا أنت منها فى نشوة غير عادية .

وقد يصل الشاعر أو الكاتب من مجرد التقديم أو التأخير

أو مجرد الذكر أو الحذف ، أو مجرد قلب الفعل من ماض الى مضارع أو ما شابه ذلك من الحيل البلاغية الى أن يجعل المعنى أقدر على أن يقفز اليك فى عنف فتحسه احساسا أعمق وأشد . ألا تذكر قول زياد بن أبيه عندما أتى الى البصرة واليا فأراد أن يقيم أمرها بالشدة ويقضى على الفساد الذى استشرى فى ربوعها ، فرهّب وهدّد وحذّر الخارجين عليه بأنه سيبطش بهم بطشا لم يعرفوه من قبل ؛ فقال : « حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد ». فاذا الماضى فى هلك يوحى بكل ما يريد زياد من اقرار معنى الحزم والبتر السريع فى نفوس مستمعيه . فجعل ما سيفعل كأنه قد وقع وانتهى بالفعل من شدة العزم وقوة الحسم .

ان تتبع الكلمات وحده كنشاط من أنواع النشاط فى القراءة كفيل بأن يتيح لنا ألوانا من المتعة فريدة . ان هذه الحيل التى يستعملها الكاتب وتتبعها بحيث نرى كيف أن هذه الكلمة لمجرد التحوير البسيط كأن تستعمل مصغرة كقول المتنبى عن كافور « كويفير » يمكن أن توحى بالمعنى على نحو لا يمكن أن نصل اليه بأى طريق آخر . ان هذا وحده كفيل بأن يسلى ويمتع . انه لذة من لذات القراءة أن تدخل نفسك فى هذه اللعبة وتلعب مع المؤلف فتتسلى وتستمتع بما قد قادته اليه مهارته أوملكته دون أن يدرى

فى أحيان كثيرة الى أن يختار لفظا على ما سواه فيصل به هو بالذات الى أقصى ما يريد أن يصل من تحريك مشاعرك وايقاظ خيالك .

وفى كتاب موتتيج الذى عنوانه « مذكرات كاتب عن صناعته » تجد الكاتب يحدثك عن عمله هذا حديثا طريفا فيرشدك الى آفاق اللذة فى اللعب بالألفاظ مع المؤلف(*)

(*) بنى هذا الفصل على مقال – « متعة الالفاظ وجمالها » بقلم « بيركت » (Sir N. Birkett.) من فصل « مباهج القراءة »

هل نقرأ شعراً ؟

ولكن ما فائدة قراءة القصائد ؟ انها لا يمكن أن تزيد دخلك ولا أن تحل مشاكلك فى الحياة . انك لا يمكن أن تكسب حربا بقصيدة ولا أن تحرك الناس وتدفعهم الى أن يعملوا لك ، ولا حتى لأنفسهم ، بأن تقرأ عليهم شعرا . ما فائدة الشعر اذن ؟ انه مضيعة للوقت فيما يبدو .

ولكن من الناس من يرى فى الحياة والتأمل فيها والتعرف الى أسرارها لذة قد ينفق فيها دخله بل قد ينفق فيها وقته وصحته أيضا . ومن الناس من لا يريد أن يكسب حربا ولا أن يشنها فاذا شنها الناس عليه أحس أنهم هم الخاسرون لمجرد أنهم يشنون الحرب . ومنهم أيضا من يرى أن الناس اذا تحركوا لعمل من غير دافع قوى من نفوسهم فلابد أن يكون العمل نفسه غير أهل لأن يتحرك فى سبيله أى انسان مهما كان .

وهذه القوة التى تأتى من نفس هؤلاء الناس هى التى يغذيها الشعر . ان الانسان لا يرقى فى الحياة بالمال ولا بالحروب ولا بأن يشيد المدن ويبنى ناطحات السحاب ،

ولكنه يرقى بسمو نفسه وعلو مداركه وقدرته على أن يحلّق في أجواء الخيال بحيث يرى الحياة ككلٍّ واحدٍ متسق ويحس شيئا من أسرارها التى عجز العلم بل عجزت الفلسفة نفسها عن أن تكشف عنها . ان الشعر أو الفن هو الذى يسد هذا القصور فى العقل الانسانى ، القصور عن أن يدرك الحقيقة كاملة بالعقل والتفكير . انه بالفن يحس هذا الجزء الذى يعجز العقل عن كشفه فتكمل له الحقيقة مما وصل اليه عقله ومما وصل اليه حسه مجتمعين .

فما موضوع الشعر اذن ؟ انه الحياة بكل ما فيها ومن فيها ، بل بكل ما يمكن أن يكون فيها وما قد كان فيها منذ وجدت . انه الحقيقة كلاً متكاملا عبر الزمان ماضيه وحاضره ومستقبله ، وعبر المكان ما يُرى منه وما لا يرى .

ومن منا لا يريد أن يعرف الحياة وأن يحسها ؟ ومن منا لا يريد أن يرى من كل فتحة يمكن أن تفتح له فى قبة الحقيقة ماذا تحت هذه القبة الضخمة العظيمة من أسرار وأسرار ؟ .

وهذا هو الشاعر يأخذ بيدك ليسير بك فى هذه الحياة وكأنما هو يتنزه معك فى بستان جميل يسقيك فى كل لحظة عصارة قلبه فاذا أنت تنتعش وتواصل الرحلة معه فى بهجة ونشاط مسحورا مبهورا لتجرب معه عشرات الاحساسات

وتمرّ معه على مئات الصور ، متمهلا حينا عجلا حينا آخر ، فاذا بستانكما جنة لا نهاية لها ولا آخر ، واذا كل خطوة فيها تزيدك بها تعلقا وعلى التجوال فيها حرصا .

والشاعر يحدثك عن نفسه وعن الحياة من حوله ويصبّ هذا الحديث فى أعذب لفظ وأشجى نغم وألذ خيال . فتعال معى نقرأ قصيدة ، بل جزءا من قصيدة . يقول رشيد أيوب من شعراء المهجر :

على أنهار آلامى
حلت للنــاس أنغامى
ولكن لم أجــد أحدا
يضمّد جرحى الدامى
لذا علقت قيثــارى
على صفصاف أحلامى
وقلت لمهجة تعبت
ألا يا مهجتى نامى

فانك لا تجد فى هذه القصيدة لفظا عويصا فى فهمه ، وانما الألفاظ سهلة تنساب كالماء وما تكاد تطرق الأذن حتى تثير فى القلب الشفقة بهذا الشاعر . بل انها تثير فى الخيال أيضا ألوانا من الشــبه بيننا وبين الشاعر ؛ فكلٌ منّا يحس أنه لا يجد من بنى جنسه التعاطف الذى تهفو اليه نفسه . وكل

منّا أحس الكلام والسأم من كثرة ما أذكى فى نفسه من أمل ؛ فاذا الحوادث تأتى عليه فيخبو من جديد وكل منّا أحس الشوق والحنين الى الراحة والنوم بعد هذا الجهاد . والشاعر يقول : « لذا علقت قيثارى على صفصاف أحلامى » . فجعل من الأحلام شجرة صفصاف وارفة الظلال . ولكن شجرة الصفصاف قد قرنت فى خيال الشعراء بالحزن ؛ بل انهـا شجرة كثيرا ما تحف أسوار المقابر ، ان اسمها فى الواقع الصفصاف الباكى . وعلى هذه الشجرة بالذات علق الشاعر آلته ، آلته التى كانت تبعث فى نفسه الأمل ويغنى الناس آلامه على أنغامها . ولكن الأنغام والغناء كله قد ذهب هباءً ؛ ولم يحن قلب سـامع ، ولم يعطف عليه متنعم بأنغامه فما الفائدة اذن ؟!

وهكذا كل لفظ فى هذه الأبيات القليلة قد اختير دون أن يقف الشاعر ليختاره . وانما نراه انقاد الى انتقائه بالفطرة السليمة الطبيعية فأنهار آلامه وما توحى به هذه الاستعارة مثل صفصاف الأحلام ، وما توحيه بدورها ، كلٌّ متماسك ، يمزج المنظر الطبيعى الملائم بالغناء والشكوى . وهو من أجل ذلك ملائم لأن يكون هو المكان المختار للهدأة الأخيرة للنوم أو للموت . ان الفكرة كلها كلٌّ متماسك يساند بعضها بعضا ولا يمكن لأى جزء فيها أن يحذف ولا أن يقدم أو يؤخر .

قصيدة بسيطة سهلة الألفاظ يبثك الشاعر فيها خلجات نفسه فاذا نفسك تهتز لكل خلجة واذا قلبك يدق بدقات قلبه ، فتحيا معه هذه الفترة القدسية — فترة التحليق فوق الحياة . فترة الاستشراف من عل على أرجاء هذا الكون الفسيح . واذا بك تخرج بعد هذه الفترة وقد عرفت كثيرا عن الحياة بحسّك . عرفت ما لا تجده لا فى كتب العلم ولا فى كتب التاريخ ولا فى كتب الفلسفة . لقد نبّه الشاعر فيك حاسة أخرى غير ما تعرف لنفسك من حواس ، وملكة غير ما تعرف لنفسك من ملكات ، لتدرك هذا الجليل الذى قصر العقل عن ادراكه ، وقصرت الحواس العادية عن أن تمدك بالعلم عن أوصافه أو كنهه شيئا .

وهكذا الشعر الجيد كله مهما سهلت كلماته أو صعبت . ومهما ترددت بين أرجائه من موسيقى أو نغم ، أو تزاوج بين ألفاظه ومعانيها من تقابل ومطابقة . انه كل متماسك لا تستطيع أن تحذف منه جزءا وتظفر بالأثر الكلى . كل جزء كأنما هو منجذب الى محور الدائرة يتصل به فى قوة يتكامل به ويتكامل المحور بدوره بهذا الاتصال المباشر القوى بالأطراف.

ولابد لك وأنت تقرأ القصيدة من أن تستمتع أول الأمر بها دون تحليل وألا تنفر منها . لأنك لو نفرت لصعب

عليك بعد ذلك أن تتعود قراءة هذه القصيدة بالذات ثم الشعر كله . لابد لك من أن تقبل أولا فاذا ما أقبلت استعددت لهذا التمعن وأقبلت على التحليل الذى يقدمه لك الناقد أو تقدمه أنت لنفسك . فاذا القصيدة تغنى غناء قويا بهذه الوقفات المتأملة الطويلة كما يغنى البصر وتشبع الحاسة الفنية فينا كلما تأملنا صورة فنية أو كلما أعدنا على مسامعنا قطعة موسيقية .

وقد تميل الى شاعر بعينيه فتجد فى ديوانه بغيتك فاذا أنت تعكف على هذا الشاعر بالذات ترى نفسك فيه أو ترى ما كنت تأمل من الحياة عنده أو تريحك مجرد صحبته عبر آلامه وأفراحه . ودواوين الشعر العربى أكثر من أن تحصى، منها القديم ومنها الحديث ، منها لشعراء الجاهلية أمثال امرىء القيس وأصحابه ومنها لشعراء العصر الذى نعيش فيه أمثال شوقى وحافظ وعلى محمود طه وأبى الوفا والعقاد وشعراء المهجر والرصافى والزهاوى والشابى وغيرهم من شعراء مصر وغير مصر من البلاد العربية . بل ان شعراء اللغة العربية يفوقون شعراء اللغات الأخرى جميعها عددا لاتساع رقعة الأرض التى تتكلم تلك اللغة على امتداد أزمان طويلة هى أكثر من ستة عشر قرنا . فأقدم الشعر

الجاهلى يرجـع الى حوالى القرن الخامس الميلادى وربما قبل ذلك .

والى جانب دواوين الشعراء تجد مجموعات من الشعر مختلفة . هناك مجموعة كاملة كمجموعة المنتخب فى شعر العرب الذى نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهناك مجموعة شعر لشعراء المهجر خاصة فى كتاب بلاغة العرب فى القرن العشرين جمع محيى الدين رضا . وهناك مجموعات فى الشعر قديمة كثيرة ، يدور الشعر فيها عادة حول موضوع بعينه ، كمجموعة شعر الحماسة التى جمعها أبو تمام وهى معروفة كثيرة الشروح . أو مجموعات الشعر الغزلى الكثيرة. وهناك مختارات من الشعر ، قديمة وحديثة ، كجمهرة شعراء العرب ، والمفضليات من الشعر القديم الصعب فى قراءته الذى يحتاج الى صبر وتمعن وذخيرة لغوية لفهمه والاستمتاع به . ثم مجموعات أحدث فى ثناياها أخبار ، كالشعر الذى يوجد فى الأغانى وفى اليتيمة . أما فى الشعر الحديث فهناك مجموعة شعراء المهجر لعبد الغنى حسن التى نشرتها مؤسسة فرانكلين . وأما الشعر الحديث المصرى والعراقى واللبنانى والسورى وشعر شمال أفريقيا فان الاهتمام به حديث جدا ومع ذلك تجد حوله بعض الدراسات التى تضم طائفة منه ؛

أما كيف تقرأ الشعر وتستمتع به وماذا فى النقد الأدبى مما يعينك على ذلك فانك واجد ولا شك دراسات حديثة فى الأدب القديم والحديث على السواء ودراسات حول الشعراء والعصور والموضوعات ليس من السهل أن نشير الى بعضها دون البعض لأنها كثيرة كثرة فائقة .

فالذى يجب أن توجه اليه نظرك هو : هل اهتمامك بالشعر محدود أم غير محدود ؟ وهل اهتمامك به للدرس أم لمجرد المتعة . ومتى حددت ذلك استطعت أن تتجه الى ما تطلب فى يسر وسهولة بأن تطلع على فهارس المكتبات الكثيرة فى باب الشعر .

أما دراسة الشعر كصورة من صور الفن فاننا لا نزال فى هذا فى أوائل التأليف . ولست تجد فى الواقع كتابا يحدثك عن خواص الشعر ومميزاته ولكنك ستجد مثلا كتابا فى موسيقى الشعر وآخر فى فن الأدب عامة ومن أبوابه الشعر . ولقد ترجم كتاب الشعر لأرسطو الى العربية كما ترجمت قصيدة فن الشعر لهوراس ضمن مجموعة « البدائع » التى أصدرتها جماعة الدراسات القديمة بجامعة القاهرة .

واذكر دائما أبدا أنك لم تنمّ فى نفسك ملكة التمتع بالشعر تكون قد ضيعت على نفسك متعة من أكبر متع

الحياة وألذها وأقلها تكاليف . ابدأ بقراءة ما تحب ثم تأمل هذا الذى أحببت وقليلا قليلا ، ويا حبذا لو وجدت من يرشدك ، ستنمو فى نفسك غريزة الاستمتاع بقراءة هذا الفن . لأن الشعر يعتبر الصورة الأسمى فى فن الأدب كله . وهو بعد بين سائر صور الفنون الأخرى أخف حملا وأيسر منالا . فليس من السهل ان كنت هاويا للصور الفنية أن تجد طائفة منها معك باستمرار حيث حللت وكذلك فى الموسيقى . ولكن كتاب مختارات شعرية يمكن أن يكون كتاب جيب صغيرا خفيفا ، تستطيع أن تقتنيه بأزهد ثمن ، وأن تحمله معك فى أنحاء المعمورة ، وهو يضم بين دفتيه طاقات على الامتاع الفنى لا تحصى ولا تعد ، وصورا من الحياة وألوانا من المشاعر تملأ الدنيا كلها بل قد تفيض عليها (*)

(*) بنى هذا الفصل على مقـال « ما فائدة الشعر ؟ » بقلم توماس رجز (Thomas Riggs, Jr.) من فصل « مباهج القراءة » .

ولنقرأ معاً قصصاً

١ ـ هاك رواية :

من منّا لا يحب القصص ؟ اننا جميعا نهفو الى سماعها ولقد نما فينا حب الانصات اليها منذ أن كنّا أطفالا . منذ سمعنا الجدة ، العجوز الكريمة ، تحملنا بتفصيلات قصصها الساذج الجميل على أجنحة الخيال الى عوالم ننسى فيها الخوف من ظلمة الليل ، بل ننسى فيها كل شيء . واذا العالم من حولنا مملوء بالجن والانس يلعبون ونلعب معهم ؛ ويتلهون ونلهو معهم . فاذا هم حتى بعد القصة يملأون فراغا كبيرا فى حياتنا ؛ ويسدون ثغرات ما كان لها أن تسد لولا أحاديث الجدة ونحن من حولها مجتمعون .

ولكننا قد شببنا وفى نفوسنا ما تزال ميول قوية الى قراءة القصة . هذه رواية أيها القارىء تستطيع أن تقرأها على عجل لتعرف حوادثها ثم تقفز الى معرفة المصير الذى يلاقيه أبطالها . ولكن تعال معى نبحث فى مباهجها . انك سائح غريب وأنا دليلك ولكنى لا أريد أن أفسد عليك رحلتك بأن أملى عليك أحكامى بالجودة أو الرداءة بالجمال أو القبح

على كل ما فى قائمة السياحة من أسماء بلدان . اختر أنت البلد الذى تريد أن تدخله لسبب فى ذهنك أو لغير ما سبب ولكن مجرد اختيارك سيلذك لأنك ستحس منذ اللحظة الأولى عبير الحرية يملأ رئتيك فيضفى ذلك على الرحلة كلها بهجتها . تعال أيها القارىء أدلك على مباهج البلد الساحر الذى دخلت. أقف بجانبك اذا أردتنى أن أدلك على ما يزيد المناظر فى عينك روعة وما يكسب منه أثر الطعوم والألوان والأنغام على حواسك عمقا ولذة . فاذا وجدتنى أثرثر أكثر مما يجب فما عليك الا أن تغلق الكتاب . أما اذا وجدتنى أدلك على نصف ما تريد فاستمر معى لتصل الى كل ما تريد .

هذه قصة . ولكن ما هذا ؟ أراك أقبلت عليها اقبالا حتى نسيت كل شىء . نسيتنى ونسيت نفسك وطعامك وعملك وكل شىء لأن حوادث القصة مشوقة مثيرة . ان أهلك يدعونك لتناول الطعام فلا تجيب الا بقولك « لا أستطيع أن أدع القصة حتى أكملها » . ولكن رويدك ما هذا الذى يشوقك كل هذا الشوق . هل يلعب القاص بغرائزك الدنيا وهل يصف لك حياة كلها شر أو رذيلة . وهل هذا هو الذى يجذبك الى القراءة . قد يكون ؟ ألم تسمع قول أفلاطون مرددا عبر الزمان واذا هو اليوم يجلجل فى صوت ناقد

أو معلم أو صديق ، ليقول لك : « هذه القصة رديئة . انها تحض على الرذيلة فاتركها مهما كانت شائقة » .

ولكن أحقا تحض قصتك تلك علـى الرذيلة ؟ أم أنها تصور الرذيلة مجرد تصوير لتنفر منها ؟ لتقول انها موجودة رغم جهودنا فى محوها فهلمّ نضافر الجهد لنمحوها محوا .

ان كثيرا من القصص قد نزل عليه هذا الحكم كما نزل من أفلاطون على أدب عصره وهو جائر لم يتحرّ الحقيقة . انها قصص قليلة رخيصة هى التى تصور الشر لمجرد اثارة الغرائز بتصويره . ولكن أكثرها وخاصة ما خلد منها على مرّ الزمن قد صوّر الشر ليظهر الخير الى جانبه أكثر صفاءً أو ليدعو الى محاربته دعوة غير مباشرة ولكنها دعوة على كل حال وقد تكون قوية لأنها غير مباشرة .

ان لذة السماع الى قصة لذة غريزية نراها فى الطفل ونراها فى الانسانية منذ وجد الميل الى الانصات والتسلية . لقد سمعنا جميعا قصص الجدات والأمهات ونحن أطفال . وكم كنا نود لو أننا نزلنا عن الكثير مما كان بين أيدينا من حلوى أو لعب لننصت الى قصة من الجدة التى تعرف كيف تقص علينا قصة الشاطر حسن ومغامراته ، أو قصة زينب والشحاذين الثلاثة ، أو قصة أبو رجل مسلوخة ، أو الديب والخروف .

ولقد حفظ لنا الأدب القديم صورا من أروع القصص حفظ لنا قصة حروب طروادة فى ملاحم هومير ، وقصة بطولة عنترة أو سيف بن ذى يزن أو بنى هلال فى سيرهم المعروفة المروية على لسان القاص أو الشاعر الشعبى فى القرون الوسطى فى الشرق . كم من الجماعات جلست ليلها أو مساءها تنصت لاهية عن نفسها الى صوت منشد هـذا القصص . لقد عاش اليونان كما عاش الشرقيون عـلى أنغام هذا القصص قرونا طويلة .

ان المتعة التى يتيحها القصص متعة فريدة . ولكن ما هذا ؟ هذا صوت ناقد من جديد .ماذا يقول ؟ يقول ان القصص ملهاة وتسلية وانه يجدر بنا أن نترك قراءة القصص لنقرأ ما هو أكثر فائدة . ماذا ؟ ومنذا الذى قال أيها الناقد ان الحياة يجب أن تبذل فى العلم والجد والعمل ولا شىء غير العلم والجد والعمل . ان العقل والجسم كليهما يحتاجان الى راحة ، وهذا عالم النفس اسأله يقل لك ان الراحة للجسم والعقل واجبة ومن دونها لا يمكن أن يكون هناك أى انتاج عقلى أو عملى . لابد من راحة لاستئناف نشاط الجسم ولابد من تسلية لاستئناف نشاط العقل . ولكن لا تهرب أيها الناقد انك لم تهزم الهزيمة التى نريدها لك بعد . منذا الذى قال لك

ان القصص حتى السهل البسيط منه الذى لم يكتب الا للترويح عن النفس لا فائدة فيه . انه يضيف علما بشىء جديد على كل حال ولا يمكن له الا أن يضيف . ماذا ؟ قف مالك تهرب ؟ وما رأيك فى القصص المسلى الراقى . القصص الذى يصف لى بيئات وأجواء يستطيع التاريخ مهما صدق ودقق أن يصفها . وهل وصفت بعض مناحى الحياة فى البصرة فى كتب التاريخ بمثل ما وصفت به فى كتاب البخلاء الذى ألفه الجاحظ أو بمثل ما وصفت به فى كتاب ألف ليلة وليلة فى بعض قصصها . أين كتاب التاريخ الذى يصور لى حياة التجار الصاخبة المغامرة بمغامراتها التى تفجر كياننا وعنفها الذى يهز مشاعرنا . انها الحياة بكل حركتها وقوتها عنيفة فى حزنها ، عنيفة فى فرحها ، هادئة راكدة فى راحتها واقامتها ، قلقة مضطربة فى أسفارها . أين هذا الكتاب الذى يصف تلك الحياة بأحسن مما تصفها قصة حسن البصرى مثلا. ان القصص الشعبى نفسه يفيد كما ترى .

وما رأيك فى القصص الروسى مثلا . هل تستطيع أن تدلنى على كتاب يصف حياة الروس العادية اليومية فى المدن والريف على حد سواء مثلما يصفها قصاصها — ترجنييف ودستوفسكى وجوجول وبوشكين . ومنذا الذى يصف

البيئة المتشددة فى الدين التى كانت تتجلى فى فترة ما من حياة الأمريكيين بمثل ما يصفها قصص هوثورن . ومنذا الذى يصور حياة الجنوب فى أمريكا بمثل ما يصورها فوكنر ؟ أو حياة البحار بمثل ما يصورها ملفل فى روايته موبى دك ؟ وهكذا قل عن كل بلد وكل أمة فستجد أن القاص يصف ما عجز التاريخ عن وصفه . يصف الحياة من فوق الأحداث والأشخاص ككل متماسك عال .

ان القاص يا سيدى الناقد .. ماذا ؟ أراك هربت . أليس كذلك ؟ ومع هذا فأنا أزعق عليك لأقول ان القاص لا يمكن أن يهتم كل الاهتمام بالمسائل السياسية أو الاجتماعية كما يهتم بها الساسة أو الاجتماعيون أو المؤرخون . ولو فعل ذلك لعانى فنه على حساب هذا الاهتمام كما عانت قصة الروائى الانجليزى القديم « روبرت بيج » ، التى ألفها أواخر القرن الثامن عشر ليعالج بها مسائل سياسية على حساب فنه وسماها « هرمسپرونج » . أو قصة « الدغل » التى ألفها « أوبتن سنكلر » الأمريكى . ان القاص يجب أن يهتم أولا وقبل كل شىء بامتاعك وتشويقك ؛ ومن خلل هذه اللذة وهذا الشوق أو التطلع الذى تنسى فى غمرته ألمك ، واذا كل عرق فيك ينبض بالقول : « ماذا حدث بعد ذلك ؟ » من خلل

هذا يصور لك ، بألوان جميلة وأنغام عذبة ، صورا من الحياة وموسيقى من عالم الغيب والواقع وقد امتزجت كلها مزجا رفيقا عجيبا كله سحر .

ان القصاص العظام أمثال فلوبير وجين أوستن وملفل ودستوفسكى وطه حسين وتوفيق الحكيم على سبيل المثال لا الحصر يهتمـون ولا شـك بمسائل السياسة ومشاكل الاجتماع ولكنهم يرون هذه كلها من خلل الحياة ككل . لذلك أنت لا تتعلم من القاص شيئا خاصا عن موضـوع بعينه ولكنك تتعلم منه شيئا عن الحياة كلها . ان القصة العظيمة تأخذ هذه الحياة بكل ما فيها من فوضى واضطراب وانطماس معالم لتنظم وترتب كما تجلى حقيقتها .

وما هى الطريقة ياترى؟ انها طريقة لاقواعد لها . فلايمكن أن نقول يجب أن تفعل كذا وكذا لتصبح قاصـا عالميا أو قاصا ممتازا . ان لكل قاص طريقته . منهم من يقص حياة فرد فيرى الانسانية من خلله ، ومنهم من يصف أحداث الملوك والقواد أو حياة الطبقة المتوسطة أو حيـاة العمال أو حياة انسان حسبما يمليه ذوق العصر ، فلقد تتابعت هذه الصور من الذوق فى التاريخ على هذا النحو بعينه . ولكن

القاص اليوم حرّ أكثر من أى قاص سبقه لأن الأنواع جميعا معروضة عليه يختار منها ما يشاء ، كما يشاء .

ماذا ؟ لقد عدت الينا أيها الناقد . ماذا تريد ؟ نعم تقول : « ولكن يجب أن يكون لكل قصة نظام ، انها لا يمكن أن تكون فوضى فليختر المؤلف ما يشاء من سبيل لمعالجة موضوعه ، ولكن لابد له من خطة» . اننا لنوافقك على ذلك. ألم نقل من قبل ان القاص يأخذ من الحياة الفوضى ليخرجها نظاما ، والاضطراب ليصوغه ترتيبا،والانطماس ليجلوه نورا. نعم ، لابد من ترتيب . ان الفن كله يمتاز عن الحياة بأنه منظم نظاما ما . ولكن الكون نفسه منظم أيضا . كل ما فى الأمر أنه يبدو لعين الناس غير منظم . والفنان يبرز الحقيقة الكبرى فى هذه الحياة . حقيقة أنها تتبع نظاما سرمديا أبديا . لابد من النظام لتتجلى الموسيقى وليتجلى الرسم والنحت وليتجلى فن القول قصة كان أم قصيدة . ولكنك تقول « ان خطة القصة أكثر حبكة » . لماذا ؟ لأنها تنبسط على رقعة أوسع من رقعة القصيدة فلابد فيها من عملية الغربلة والتنقية باستمرار. ان الشاعر يختار احساسا واحدا أو فترة بعينها ولكن القاص يرى رقعة الحوادث والأشخاص والحركة والفكر كلها منبسطة مفتوحة على مصراعيها ولابد له من الاختيار لذلك

خطته وان لم تكن أدق فانها تحتاج الى الحبك ، الى الترابط الشديد والتساند القوى حتى يخرج البناء الهندسى الشامخ وكل لبنة فيه تعتمد على الأخرى ولا يدخل بينها ما لا حاجة اليه فيفسدالنظام ويشوه الجمال . كل شيء فى مكانه وحسب الحاجة اليه وعلى نحو ما يجب عليه أن يظهر. وهذا هو الفرق بين القصة والحياة . فلقد نرى فى الحياة تفككا بين الحوادث أو عـدم ارتباط على الأقل لأول وهلة ، ولكن فى القصة الطويلة ، فى الرواية التى تعنى بعدة حوادث وعدة شخصيات لابد لكل جزء فيها ، حادثا كان أم شخصية أم فكرة ، من أن يساند غيره ويقويه .

وهناك شخصيات القصة وكيف ترسم ، وفى هذا يتجلى فن القاص . فرسم الشخصيات فن ليس هينا بأى حال من الأحوال . ذلك أنها تختلف عن الشخصيات التى نصادفها فى الحياة وفى الوقت نفسه يجب أن تقنعنا بأنها حقيقة مثلها . وقديما قال أرسـطو عن شخصيات المسرحية ان الشاعر يرسمها لا كما هى ولكن كما يجب أن تكون بحيث تقنع السامع وهى فى الوقت نفسه أمتع وأكمل من الشخصيات التى نصادفها فى الحياة . اننا نشغف بشخصيات القصص أكثر من شغفنا بالشخصيات فى الحياة ونحس أنهم يقربون منّا قربا لا نصادفه فى الحياة الا نادرا . وقد نحب الناس

فى الحياة أكثر مما نحب أبطال القصص ولكن أبطال القصص من حيث الشخصية دائما أكثر امتاعا لنا وأجلب لانتباهنا واهتمامنا بأمرهم والتأمل فى نواحى شخصيتهم .

ويقول الكاتب المعاصر « سمرست موم » فى مقدمة قصته القصيرة « صديق وقت الضيق » ان رسم الشخصيات فى القصـــة يحتاج الى كثير خبرة وعظيم انتباه ؛ ذلك أن القصاص فى أغلب الأحوال يخفقون فى هذه الناحية بالذات . وأهم عيب فيهم فى نظره أنهم يحاولون دائما أبدا أن يرسموا الشخصيات كاملة تامة متماسكة ؛ فيبعدونهم بذلك عن واقع الحياة . لأننا جميعا نحس فى أنفسنا عدم التكامل بل النقص أحيانا كثيرة . فالشخصية الانسانية مملوءة بالعيب حافلة بالتناقض . ويأتى فن القاص ليجتاز امتحانا صعبا هو أن يرسم شخصية تامة متكاملة ولكنها فى الوقت نفسه يجب أن تكون طبيعية حقيقية مقنعة والطبيعة تأبى التمام والكمال . فكيف يتصرف القاص ؟ هذه هى العقدة فى رسم الشخصيات وعلى مبلغ توفيق القاص فى حل هذا الاشكال يتوقف نجاحه فى خلق الشخصية وتصويرها .

وقد يختار القاص جزءا واحدا أو ناحية بعينها من نواحى الشخصية لرسمها وهنا يكون التخير أيضا محتاجا الى فن

وصنعة محكمة . والقـاص فى الرواية يستطيع أن يتتبع شخصية من الطفولة الى الكهولة . فانبساط الرقعة أمامه يسمح بذلك . ولكن القاص فى القصة القصيرة لا يستطيع ذلك وانما هو مضطر الى اختيار نقطة تحوّل مثلا أو فترة بعينها لضيق الميدان أمامه . لذلك كثيرا ما يعيب القصـة القصيرة تحول الشخصية الخلقى بينما هذا التحول مستساغ فى الرواية الا أن يكون هذا التحول بالذات هو موضوع القصة القصيرة .

وعنصر هـام مما تدور حـوله القصة عادة هو الصراع الذى يكوّن العقدة فى المسرحية والرواية والقصة على السواء . ان البطل المنصور أبدا لا يلذنا ، لأننا لا نجد فى صورته صدى لنفوسنا . فكل منا يجاهد لونا من الجهاد فى الحياة ولذلك يلذ له أن يسمع أخبار المجاهدين الآخرين . ان الصراع لذيذ وتتبعه فى صوره البدائية ممتع للانسان فكيف بصوره الراقية الممتازة . ان الاقبال الشديد على المباريات الرياضية مثلا أو على مشاهدة الصراع بين الحيوان أو الانسان على السواء يؤيد ما نقول من أن لذة متابعة الصراع لذة غريزية فينا .

والقصة تصور دائما صراع البطل مع قوة ما . قد تكون

هذه القوة هى الأرض أو الطبيعة ، وقد تكون انسانا آخر شريرا ، ثم قد تكون ظروف الحياة ومآسيها ، وأخيرا قد تكون نفس البطل ذاتها هى التى يصطرع معها . ولقد تلوّن فن القصص على مرّ التاريخ بهذه الموضوعات فأخذت أول صوره تصــور صراع البطل مع الشر الممثل عادة فى بطل القصــة الشرير . كان القصص اليونانى القديم أو المسرح على الأصح يصوّر صراع البطل الخيّر مع البطل الشرير ، ولذلك دافع أرسطو عن وجــود الشخصيات الشريرة فى القصة بقوله انها ضرورة لابد منها ليظهر الخير الى جانبها أبهى وأوضح . والبطل المثالى عنده ليس بطلا خيّرا كل الخير والا ارتفع بسموه فوق العادى عن مستوانا وأصبح لا يلذنا ، ولا هــو شرير كل الشر والا انحط بشره عن مستوانا وموازيننا فيصبح محتقرا غير مرغوب فيه . وانما هو خيّر خيرا انسانيا يعنى خيّر وفيه الضعف الانسانى المقبول . ومن هذا الضعف الانسانى يهاجمه القدر فيتصارع معه . وكثيرا ما يتمثل القدر انسانا شريرا فتتألف من هجماته على البطل عقدة القصة وأخيرا ينتصر البطل رغم ما فيه من ضعف انسانى على قوى الشر رغم جبروتها .

ولقد أدخل علم النفس هذا اللون الجديد من قصص

الصراع مع النفس ، ولكن الألوان الأخرى ؛ الصراع مع الشر بطلا آخر أو أحوالا أو طبيعة ، ما زال ممثلا فى قصص العالم كله .

ولقد أخذ فن القصة عندنا فى الشرق ينتعش بعد الحرب العالمية الثانية فكتب فيه كثيرون من قصاص مصر والشام ولبنان والعراق وشمال أفريقيا آثارا عديدة . وعرف منهم فى مصر محمد حسين هيكل وطه حسين والعقاد ثم من جيل الشباب نجيب محفوظ والشرقاوى وغيرهم . وعرف فى العراق ذو النون أيوب وعبد المجيد لطفى ، وكتب أشهر كتاب لبنان نعيمه وجبران فى القصة . وكنا نترجم القصص الأجنبى ترجمات مشوهة ثم أخذنا نؤلف تأليفا مستقلا ونترجم ترجمة أمينة . فاذا الفن القصصى يجد أمامه من الحياة وشخصية الكتاب المنطلقة منبعا ، ومن التراجم الصحيحة ألوانا من الغذاء .

ان القاص أوسع المؤلفين فى الأدب مادة وأصعبها ولكنه يعوّض عن ذلك بأنه أحب المؤلفين الى قلوب الجماهير . فالقاص أكثر شهرة دائما من الشاعر وأوسع دائرة قراء . وهو أيسر نقلا من وطنه ولغته الى اللغات الأخرى والأوطان المختلفة ، فما كادت حركة الترجمة تنتعش بين البلدان

المختلفة واللغات المتباينة حتى وجد القاص العالمى الذى يقرأ له الناس فى جميع أنحاء المعمورة ، يقرأ له الخاص والعام على السواء .

لذلك أصبح العبء على كاهل القصاص اليوم أفدح وأكثر مسئولية لأن الذين يتأثرون بأدبهم يعدون اليـوم بالملايين وكانوا الى عهد قريب يعدون بالآلاف والى عهد ليس بممعن فى القدم بمجرد المئات .

ان القاص مكلف أولا وقبل كل شىء بأن يمتع قارئه . ولكنه مكلف الى جانب ذلك أن يقدم له الحقائق عن نفسه وعن الحياة من حوله حتى يخرج قارىء القصة من قراءتها أوسع أفقا وأرهف حسا وأكثر تقبلا للحياة وأقدر على حل مشاكلها (*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقال « المتعة جزاء قراءة القصص الاول » بقلم روبرت جيكبز (R. D. Jacops) من فصل « مباهج القراءة » .

٢ ـ وتلك قصة قصيرة :

انها لون حديث من ألوان القصة عرف باسـم القصة القصيرة . انها ليست مجرد مختصر لقصة طويلة فهى فن قائم بذاته . بل ان بعض النقاد من يضعها مع القصيدة فى باب واحد ، لأنها أقرب الى القصيدة منها الى الرواية أو المسرحية. وذلك لأنها قصة مركزة تعنى بحال واحدة أو مشكلة واحدة أو أثر واحد . هى محدودة بالكلمات التى تتراوح عادة بين ألفى كلمة وثمانية آلاف . وفى هذا العدد المحدود يجب على المؤلف أن يضع كل ما يريد أن ينقله الى القارىء .

وعملت عوامل كثيرة مختلفة فى كل البلدان عـلى نماء هذا النـوع من القصص وانتشاره . ولعـل الصحافة هى المسئول الأول عن رواج هـذا النوع وكثرة الاقبال على قراءته . فلقد كانت الصحف تنشر الروايات الطويلة تباعا ولكن القارىء أخذ يتأفف من الانتظار كل يوم وتعليق القصة تعليقات عديدة . فكان لابد من أن يوجد صنف من القصص ينتهى فى جلسة واحدة ويقرأ كله معا .

وهذا ما جعل القصة القصيرة فى الواقع أوقع أثرا . ذلك أنها لا تعلق أجزاءها وانما أثرها يتلقى ككل وفى الحال

بل فى سرعة أيضا . ومن هنا كان لابد لها من أن تكون مركزة مرسومة الهدف . والقصصى البارع لا يكتب كلمة واحدة فى قصته القصيرة لا فائدة منها . ان كل كلمة تحسب عليه وهو حريص ألا يبعثر الرصيد هنا وهناك . كل كلمة لابد أن تؤدى غرضها وتسير فى الوقت نفسه نحو الغرض الأسمى والأول خطوة الى الأمام .

والفن ، فن قص القصة القصيرة ، صعب جدا . ولا يفلح فيه من الكتاب الا قلة قليلة عادة . ولكن الصحافة دائمة الطلب لهذا النوع من القصص . لذلك نراها كثيرا ما تنشر الغث والسمين على السواء . فليس فى قدرة الفن الحق أن يمدها بكل هذا الفيض من القصص الذى يتعطش اليه قراؤها . ولذلك تجد أصحاب الصحف والمجلات وعلى مكاتبهم أكداس من هذه القصص ولكنهم قلما يظفرون بالقصة الحقة . لذلك تراهم اذا ظفروا بها دفعوا فى سبيلها الأجر الباهظ ، ولكن القاص الباهظ الأجر يعود فيخيب رجاءهم . انه لا يستطيع أن يضغط على زر" كهربى" فتخرج القصص كما يريدها أصحاب الصحف والمجلات فاذا هو بين أمرين اما أن يسف وهذا ما ينقاد اليه عادة بحكم حاجة

الناس أبدا الى الأجور واما أن يمتنع عن الكتابة فيغضب أصحاب الصحف والقراء معا ولا يفى بحاجة نفسه الى الأجر.

وهذا القصص منوع تنوعا كبيرا لا يكاد يترك نوعا من أنواع الرواية الا وله فيه آثار . والمؤلفون البارزون فيه ليسوا بعدد البارزين فى الرواية ولكنهم أخذوا يتزايدون بحكم قلة المعروض بالنسبة لكثرة الطلب . وعندنا من كتاب القصة القصيرة (أصيلة ومعربة أو منقولة) عدد كبير يفوق كتاب الرواية ولا شك . ولعل محاولات شبابنا الكتاب اليوم لا تكاد تتعدى هذا اللون من ألوان التأليف . ولمعت فى عالم القصة القصيرة أسماء أمثال المازنى وتيمور وذهنى والسباعى وفيها مجموعات مختلفة لهؤلاء الكتاب جميعا . فلنا الآن أكثر من أربعين عاما وكتابنا ينتجون ويجودون فى هـذا اللون من التأليف .

ولكن هذا الفيض الجديد من التأليف فى هذا الميدان يعاب أكثر ما يعاب بتعجل الشباب الشـهرة مما لا يجعلهم يقضون الوقت الكافى فى تنقيح قصصهم بل فى اختيـار موضوعاتها وانضاجها قبل أن تنزل الى المطبعة . ان أول كاتب قصة قصـيرة أمريكية وهو « ناثانيال هوثورن » عكفه

اثنى عشر عاما كاملة على كتابة مجموعة قصصه القصيرة الأولى قبل أن يخرجها الى الوجود ، ولم يكن له عمل يشغله عن التأليف . فظل هذه الأعوام الطويلة يجوّد ويجوّد حتى يخرج فنه مستويا . ولا نريد من شبابنا أن يعكف هذه الأعوام الطويلة دون عمل ، فنحن فى القرن العشرين ، بل فى النصف الثانى منه ، لا فى القرن التاسع عشر . ولكن هذا لا يمنع من أن فن القصة القصيرة ، بالذات ، قد ألقى فى سلته كثيرا جدا من المهملات والقمامة . بحيث انه آن الأوان لكتابنا الناشئين أن يعرفوا أن ليس مجرد حادثة أو شخصية كفيلا باخراج أروع القصص من نفسه .

والقارىء يعانى من كل هذا . فهو أحيانا قد يطمئن الى اسم كاتب أو الى موضوع من الموضوعات فيندفع فى القراءة فيخيب ظنه أحيانا كثيرة .

ان أول كلمة فى القصة القصيرة يجب أن تكون واضحة الدلالة على درجة من درجات السير نحو الهدف . ان ضيق المكان والزمان يحتمان على المؤلف ألا يضيع الوقت هباء . ومع ذلك كم من الكلام الفارغ نقرأه فى القصة القصيرة قبل أن ندخل فى موضوعها .

والقصة لتكون قصـــة لابد من أن تشوق ، لذلك تجد الكاتب القدير يشوقك الى ما سيقص منذ الفقرة الأولى من القصة . انك ما تكاد تقرأ جملته الأولى حتى تحس أنك تريد أن تتابع القصة لتعرف ماذا بعد . ان التشويق وتعليق النتائج بحيث يتطلع اليها القارىء فن ليس يسيرا بحال من الأحوال . فقد يزيد عما يجب فتفسد القصة ، وقد يقل كثيرا وهذا ما يحدث فى أكثر الأحيان فتفقد القصة رونقها . خذ مثلا القصص البوليسية المشهورة قصص شرلوك هولمز وتعال معى لنرى كيف تشوق الفقرة الأولى فى قصة منها الى ما سيأتى بعد . يقول القاص :

« ظل الثلج يهمى طوال ليلة قارسة البرد . وما كاد يهدأ والفجر يلوح بنوره الباهت حتى أفقت من نومى على هزة عنيفة . لقد كان هو هولمز يهز كتفى بيد والشمعة الخافتة النور فى يده الأخـرى . وفى ضـوء الشمعة رأيت وجها مضطربا ينم على أن حادثا ما كان يجب له أن يحدث قد وقع . قال هولمز هيا بسرعة البس ملابسك ان الصيد الثمين على قيد شعرة منا ، هيا أسرع » .

أتستطيع أيها القارىء أن تترك هذه القصة فلا تكملها . ألست مشوقا الى أن تعرف ما هذا الصيد الثمين وماذا حدث .

وليس عنصر التشويق هذا مقصورا على القصص البوليسية وان كان يبدو فيها سافرا واضحا ولكنه عنصر لابد منه فى كل قصة ، فالتشويق أساس المتعة الفنية فى القصص . حتى القصص الدينى لابد أن يشوّق أولا حتى يمكن أن يصل الى الموعظة عن طريق التشويق .

ولعل القصص القرآنى فريد فى أسلوب القص فى هذا الباب . فهو يحذف من أجزاء القصة المعروفة شيئا كثيرا أحيانا فى سبيل التركيز والتأثير . خذ مثلا افتتاحية قصة سيدنا يوسف وهى من أكثر القصص القرآنى حبكة حوادث ووضوح شخصيات تمثل النوع لا الفرد . يقول عزّ وجل : « اذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين » أنحن فى حاجة الى أن نعرف أن يوسف كان أحب أبناء يعقوب الى قلب أبيه ؟ أنحن فى حاجة الى أن نعرف أن هذا الحب قد هيج الغيرة فى صدر الأخوة الى حد بعيد ؟ كل هذا يختصره القول « لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك » ثم ألسنا مشوقين الآن الى أن نعرف ماذا سيكون هذا الكيد وكيف سيتلقاه يوسف وماذا يمكن أن

تؤول اليه أحوال هذه الأسرة التى أراد الله أن يخرج منها مؤمن يعرف كيف ينظم اقتصـاديات بلد بأكمله بحكمته ورويته وأمانته وحرصه على ألا يخون أمانة المال أو العرض أو صلة الرحم .

وكما يكون التشويق فى أحداث القصة فكذلك يكون فى الشخصية نفسها وان كان هذا النوع من القصص حديثا جدا وهو أصعب تأليفا . ذلك ان الشخصية ترسـم على فقرات وفترات من خلل الأحداث وتطورها أو تناقضـها ؟ ويكون نماؤها هو محـور القصة . ان الشـوق الى معرفة ما سيتلو الحادث الأول من أحداث ، كالشوق الى معرفة هذا الذى لا نعرف عنه الا القليل ونريد أن نعرف عنه الكثير . ولكن تشويق الحوادث أقرب الى الحياة وأيسر . وأما تشويق الشخصيات فهو يعتمد على أحوال أرقى ومفهومات نفسية أعمق . ألم تصادف فى حياتك انسانا جرت لك معه حادثة فاذا أنت تحب شخصيته وتريد أن تعاشره وأن تتقرب منه لتعرف عن عظمته أو بساطته أو جلال خلقه أكثر مما أظهرت لك هذه الحادثة العابرة . ان القاص الذى يريد أن يثير فيك التشويق الى الشخصيات يلعب هذه اللعبة معك فى قصته .

ان الانسان تواق أبدا الى معرفة المجهول وهو لذلك

قد ألف القصة واستمتع بها قبل أن يفكر فى حفر صورة واحدة على جدران كهفه الذى كان يأوى اليه . انه بدأ يقص قصصا على درجة ما من الفنية منذ أخذ يعبر ويحاول أن ينظم التعبير عما صادفه من حوادث . كأن يقص أخبار مغامرات صيد أو وقع مفاجأة أو انتصار معركة فردية .

ان أكثر القصاص يكتبون فى القصة القصيرة والرواية على السواء وكثيرا ما ترى القــائمة بأسماء كتاب القصة القصيرة وكتاب الرواية فى زمان ما تتلاقى عند البارزين منهم . ولما كان ميدان التأليف القصصى واسعا فان ارشاد القارىء الى ما يقرأه فى هذا الميدان أمر عسير جدا . وهناك أساسان للاختيار ؛ اختيار لأسماء المؤلفين وقراءة كل مايؤلفه المؤلف الواحد لأننا قرأنا له قصة مرة فأعجبتنا فاذا نحن حريصون على أن نقرأ له كل ما كتب . أو اختيار لنوع بعينه من القصص كالمغامرات البوليسية الغرامية أو السياحية أو قصص الأبطال والعظماء والتاريخ أو قصص الحيــاة المعاصرة الواقعية أو قصص الخيال والرمز . ولقد يتحدد الموضوع بأكثر من هذا فنجد مثلا قصصا ترمز فى موضوع كموضوع الشيوعية مثلا وقصص تدور حول حادث بعينه عنيف كحادث الحرب العظمى الأولى وهكذا .

ولكنك تريد أيها القارىء أن تسهم بدورك فى هــذا الميدان . ان موضوعات كثيرة تثور الآن فى رأسك وتريد أن تكتب وأن تجرب قلمك . لا تتردد . أتعرف أن هنــاك كتبا ترشدك الى فن القصة كيف يكتب . ان أكثرها ليس مترجما للعربية للأسف ولكن لا تأس على شىء . ان أوثق النقاد يقولون ان أردت أن تتعلم فن القصة فخير دليل لك وخير معلم لهذا الفن هو قصص عباقرة الفن نفسها . اقرأ ثم اقرأ قصصا من كل نوع واعــرف ميــولك ، ثم اقرأ فيما أعجبك من نوع لمشهورى القصاص العالميين ، ثم حاول أن تقلد . فلو كانت لك ملكة طبيعية فانها لن تفيد فائدة أعظم من هذه .. ان قصص المشهورين العالميين ، أمثــال « موبســان » و « أوهنرى » و « پو » و « مــوم » و « جوركم » و « جوجول » و « بيراندللو » وغيرهم وغيرهم خير من ألف دليل يعلمك فن كتابة القصة . ويا حبذا لو وجدت من يقرأ معك ويدلك على ما يفيد(*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقــال « قراءة القصص القصيرة الممتعة » بقلم ــ لويس روبن الصغير (L. D. Rubin Jr.) من فصل « مباهج القراءة » .

٣ - وهذه مسرحية :

انها قصة حية تأتى اليك بشخصياتها الذين تراهم رأى العين يتحدثون ويتحركون . وفى حديثهم أو حوارهم بل فى حركتهم يقصون عليك هذه القصة الجديدة .

ان المسرح بين فنون القصص أرقاها وأصعبها جميعا ، وهو فى الوقت نفسه أقدمها . ذلك أن القاص البدائى الذى جلس يقص على قومه أخبار مغامراته فى صيد الحيوان مثلا قبل أن نعرف الكتابة كان ممثلا مسرحيا فى صورة بدائية . فلقد كان يقص وهو يريد أن يقنع سامعيه بما يقص وكثيرا ما كان يبالغ ويريد منهم أن يسلّموا بأن مبالغاته كلها حقائق . لذلك كان يعمل صوته وربما حركات وجهه ويديه ليقنع السامعين بأن الذى يقصه من أخبار شجاعته حقيقى قد وقع بالفعل .

ولا يختلف مؤلف المسرحية الحديث فى شىء من هذه الناحية عن هذا القاص الأول . انه يريد أن يقول : « كل هذا الذى أقوله لكم قد حدث » . وهو يوقن ، بل هو يعرف أن النظارة يوقنون أن شيئا من هذا لم يحدث بالفعل . ولكن الكاتب المسرحى يقول لنا انسوا عالمكم وتعالوا معى نحيا فترة فى حياة هؤلاء . فاذا نحن ننتقل عبر القرون والأمكنة

الى أزمنة من صنعه وبيئات من خياله أو ذاكرته أو معلوماته لنرى صورة من الحياة اختارها هو ليعبر بها عما يريد أن يقوله لنا من أفكار وأن ينقله الينا من احساسات .

وقارىء المسرحية يتصور جوّ المسرح وهو يقرأ الى حد بعيد ولكنه لا يجد فى قراءتها اللذة التى يجدها فى مشاهدتها وان تكن قراءة المسرحية تجعل مشاهدتها أخصب متعة وأعمق اثارة . لذلك يحسن بنا أن نبدأ دائما بقراءة مسرحيات شاهدناها أو سنشاهدها ، لأن المشاهدة تتضاعف لذتها اذا ما كنا قد ألفنا الحوار قبل سماعه لأول مرة . ففى أول مرة كثيرا ما تفوتنا أجزاء هامة منه . والذى لا شك فيه أن متعة المسرحية لأول مرة فذة جميلة ؛ ولكن الذى يثبت أن المتعة بعد القراءة تزداد وتقوى ، هو ما نشاهد من هذه الروايات الكثيرة لفطاحل المسرحيين التى تمثل مرارا وتكرارا ولا يملّها الناس أبدا — روايات شكسبير وموليير مثل عطيل والبخيل.

ولما كان فن التمثيل نفسه لا يدخل فى باب القراءة فاننا لا نقف عنده ، ولكنه فن تفيد فيه القراءة كثيرا ، قراءة ما يمثل وقراءة أصول الفن التمثيلى وتاريخه أيضا . وكل هذا يضيف الى متعة مشاهدة المسرح أضعافا مضاعفة .

والتمثيل فن جميل يحرك الجماهير ويؤثر فى مفهوم

الحياة عندهم أثرا لا يمكن أن يجاريه فيه أى نوع من فنون الأدب بل من سائر الفنون الأخرى . وعن طريق المسرح كانت سياسة الجماهير فى بعض أزمنة التاريخ تدار وترسم . وعندنا فى تاريخ المسرح القديم — مسرح أثينا — أدلة كثيرة على جسامة ما كان يؤثر به هذا المسرح فى الجمهور .

وقارىء المسرحية يسير مع مؤلفها جملة جملة وهو فى كل فقره يترقب جديدا ويتطلع الى نتيجة ؛ فسير الأسباب والنتائج فى المسرحية منطقى مرتب الى أبعد الحدود . ذلك أن هدفها الاقناعى أبرز وأبين من أى نوع من أنواع القصص . ولابد لكاتب المسرحية من أن يقنعك بحقيقة الشخصيات وحقيقة الحوادث وهو فى الوقت نفسه لابد أن يقدم لك الشخصيات بشكل جذّاب ، حتى تألف عشرتهم هذه الساعات التى يريدك أن تعاشرهم فيها . لذلك نجد عنصر الفكاهة كثيرا ما يستخدم فى تقريب الشخصيات الينا أو عنصر العظمة والسمو ليثير اعجابنا أو عنصر الرثاء والشفقة أو عنصر الخوف مما سيحل بالبطل لكثرة ما أحببناه أو عطفنا عليه . وهذا جزء من مقدمة مسرحية عنوانها « خطورة الحماسة » لمؤلفها « أوسكار ويلد » .

المنظر غرفة الجلوس من مسكن « الجرنون » فى شارع

« القمر » . أثاث الغرفة فخم يدل على ذوق ممتاز . يُسمع صوت عزف على البيان من الغرفة المجاورة . يدخـل الخادم « لين » ليرتب مائدة الشـاى . وبعد لحظة تسكت الموسيقى ويدخل « الجرنون » نفسه .

الجرنون — أسمعت ما كنت أعزف يا « لين » ؟

لين — سيدى ! ظننت أنه قد يكون من سوء الأدب أن أنصت .

الجرنون — هذا من سوء حظك . وانى لأرثى لك . اننى لا أعزف فى دقة فمنذا الذى لا يستطيع ذلك . ولكنى أعزف وأحمّل عزفى أقصى طاقات التعبير . انى أرى فيما يختص بالعزف على البيان ، آن العاطفة والاحساس هما أهم شىء . وانى لأترك العلم والنظام للحياة .

لين — طبعا يا سيدى .

الجرنون — وبمناسبة العلم والحياة هل أعددت شطائر الخيار للسيدة « براكنل » ؟

لين — نعم يا سيدى . (يقدم له ما أعدّ منها) .

الجرنون — (يتفحص الشطائر ويأخذ اثنتين ثم يجلس

الى الخوان) بهذه المناسبة يا « لين » عندما راجعت دفتر حساباتى وجدتك قد قيدت علىّ يوم تعشى عندى اللورد « شورمان » والسيد « وورذنج » ثمن ثمانى زجاجات من الشمبانيا قد شربت كلها .

لين — هذا صحيح يا سيدى ثمان وأكثر قليلا .

الجرنون — لماذا يشرب الخدم الشمبانيا فى بيت العازب دائما أبدا دون حساب . انى أسأل مجرد سؤال أريد أن أعرف ليس غير .

لين — لعل ذلك يعود لامتياز الصنف يا سيدى ، فلقد لاحظت مرارا أن المشروبات فى بيوت المتزوجين قلما تكون من الأصناف الجيدة .

الجرنون — يا للعجب ! أيكون الزواج مثبطا للهمم الى هذا الحد !

وهكذا اذا استمررت فى قراءة هذه المسرحية أو غيرها ستجد التصميم ، تصميم الشخصيات والحوادث ، وقد أتقن أيما اتقان . ان المسرحية ليست كوما من اللحم يوضع على هيكل من العظم ليخفيه ، انها لحم يكسو هيكلا ليبين مفاتن الانسجام فيه والاتساق والتناسب . ان مؤلف المسرحية

معنىً أبدا بأن يحرك القصة معك نحو الأمام . وقد يحركها عن طريق الحوار وما يقال فيه عن أحداث حدثت خارج المنظر المسرحى وقد تحدث الأحداث نفسها فوق خشبة المسرح ولكنه يرتب ذلك ترتيبا محكما وفى نظام لا خلل فيه بأى حال . والحوار قد يكون بين شخصين أو جملة أشخاص . وقد يقف البطل أحيانا وحده ليحدث الناس عن ذات نفسه حديثا يطول أو يقصر كما يحدث فى مسرحية « هاملت » فى بعض المناظر المعروفة منها ، حيث تطول وقفة البطل ويمتد حديثه عما يحس به ويفكر فيه . وفى المسرحيات القديمة كانت هناك الجوقة تقف الى جانب المسرح منشدة لتغنى رأى الجمهور فيما حدث ، أو تعلمه بما سحيدث لتعدّه له . ولكن المسرحيات الحديثة استغنت عن دور الجوقة ، وكثيرا ما تجعل شخصية من الشخصيات تقوم به أو بضع شخصيات على التوالى .

والمسرحية محدودة الزمن مفروض أنها تمثل فى ثلاث ساعات أو نحوها . فالكاتب المسرحى يعرف جيدا أن الجمهور لا يمكن أن يصبر الى أكثر من هذا فى مكان واحد .

ولذلك نجد الأثر فيها وقد ركّز تركيزا . والمسرحى الحق لا يبرز من الأحوال أو المواقف الا الأهم بل الهام فى هذا الأهم . لذلك نجد أكثر المسرحيات يمكن أن تقرأ فى ساعتين أو أكثر قليلا .

أما الزمن فانه فى المسرحية يتحرك كيفما يشاء المؤلف . وفرق شاسع بين الزمن فى الحياة والزمن فى المسرحية . ففى الحياة يسير الزمن وفق نظام معلوم . ولكنه فى المسرحية يقفز ويبطىء كيفما يريد له المؤلف أن يسير . وقديما اشترطوا فى المسرحية ألا يتعدى الزمن فى حوادثها الى أكثر مما يمكن أن يقع فى يوم واحد — أربع وعشرين ساعة . كما أنهم اشترطوا وحدة المكان — أى بحيث لا يبعد المكان عن آخر بما لا يمكن الوصول اليه داخل هذه الحدود الزمنية . كل ذلك لاقناع النظارة أن هذا الذى يرون قطعة حقيقية من الحياة . ولكن كتاب المسرحية حديثا تركوا هذه الشروط وهم لا يراعون منها الا ما يتمشى مع ما يريدونه من مسرحيتهم .

ولابد للمسرحية من أن تبدأ هادئة ثم تومىء من بعيد الى الأزمة أو العقدة التى يجب أن تنبى عليها . تعرفنا المكان والشخصيات فى فترة سريعة ما أمكن ثم تأتى العقدة . ومتى

وصلنا اليها يبدأ السير حثيثا نحو الحل أو النهاية . وأكثر تفنن الكتاب المسرحيين هو فى خلق هذه العقدة وجعلها مقنعة هامة تثير الانتباه وتستحق التفكير فيها طويلا . والحوار وخلق الشخصيات على صعوبة معالجتهما يأتيان تبعا للعقدة وفى نطاق اثارتها وعرضها ثم حلها آخر الأمر .

أما المسرح عندنا فى أدبنا العربى فهو حديث جدا . ولكن صورا منه كانت قائمة فى مصر خاصة . مثل مسرحية « خيال الظل » التى أثرت عن المؤلف الطبيب « ابن دانيال » . ولكن هذا التمثيل مختلف كثيرا عن المسرح اليوم ، لا فى أنه بدائى بدائية عجيبة فحسب ؛ ولكن من حيث الاعتماد على المؤثرات المسرحية كما نعرفها اليوم . فهذا التمثيل كان يدار خلف ستار أبيض . يظهر فيه الممثلون بوساطة الاضاءة خيالات سوداء على شاشة بيضاء ، ولعله صورة بدائية لفن السينما أكثر منه صورة من صور المسرح . أما المسرحية نفسها فلقد كانت للعظة والتفكه بأرخص الألوان وأبسطها وأقلها فنية . فلم تكن هناك حبكة ولا عقدة ولا حوار ولا شخصيات بأى معنى من المعانى . وانما الهام هو وضع اطار جذاب لكلام يراد ايصاله كما هو للسامعين .

والمنشد على الرباب لقصص ألف ليلة وليلة وسيرة عنترة نواة بعيدة قديمة للمسرح العربى ولكنه نواة باهتة ساذجة. فلقد كان هذا المنشد يستعين بالموسيقى وقد يستعين بشخص آخر لادارة الحوار وكنا الى عهد قريب نرى المقاهى البلدية عامرة بالمتمتعين بهذا الفن من الانشاد المسرحى المشاركين فيه مشاركة عجيبة بوجدان متحمس.

ولكن فجر النهضة الحديثة فى الأدب العربى قد أخذ يترجم من مسرحيات الغرب كثيرا. ترجمات من التجوز فى الواقع أن تسمى ترجمات ولكنها مقتطفات ونبذ تنقل الوقائع من بعيد وتحاول أن تؤقلمها. ونرى فى هذه الصحوة الجديدة للمسرح أن النواة الأساسية القديمة هى التى تغنيه وتقويه. نواة الانشاد، انشاد شاعر الرباب. فكما كان امتاع القصص الشعبى يتوقف كثيرا على فن المنشد فكذلك كانت المسرحيات فى فجر نهضتنا تعتمد على جمال صوت الممثل الأول. يؤثر عن الشيخ سلامة حجازى أنه أراد تمثيل رواية «هاملت»، فلما مثلت لأول مرة بعد التعريب المشوه فشلت فشلا ذريعا لا لأن الترجمة كانت ممسوخة مختصرة بعيدة عن الأصل، ولا لأن الممثلين لم يقوموا بدورهم خير قيام، فلقد كانت

المسرحية مستوفاة فى كل هذا ، ولكن لأن الممثل الأول لم يغن فى المسرحية . بدليل أنه لما تعرضوا للرواية بالمسخ مرة أخرى ، فأدخلوا فيها مواقف ليغنى فيها الشيخ سلامة ، نجحت الرواية نجاحا باهرا .

بل ان أولى مسرحيات الشاعر أحمد شوقى « مصرع كليوباطرا » كان السبب فى نجاحها الأول انشاد المغنى عبد الوهاب لبعض مقطوعاتها الغنائية مثل « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا » . والواقع أن هجوم أحمد شوقى على التأليف المسرحى كان خطوة جريئة لفتح هذا الباب كما يجب أن يفتح . وبصرف النظر عن رأى الفنيين فى مسرح شوقى فانه يعد المؤلف المسرحى الأول فى هذا العصر الحديث . وتلاه فى الشعر عزيز أباظة وفاقهم جميعا نثرا توفيق الحكيم . ويكفى أن نقرأ « شهر زاد » و « أهل الكهف » لنرى صورة أقرب ما تكون الى فن الغرب فى هذا الباب .

أما عن فن التأليف المسرحى فليس عندنا فى الأدب العربى ما يدل الناشئين فيه على شىء . ولكنا نجد فى مقدمة بعض هذه المسرحيات نواة لهذا التأليف الذى سيكثر ان شاء الله(*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقال « التراجم تأتينا بأصدقاء جدد » بقلم « مارشت شوت » (Marchette Chute) من فصل « مباهج القراءة » .

٤ ــ أما تلك فهى ترجمة حياة :

ألم تهف نفسك الى مقابلة عظيم ممن سمعت بهم لتجلس اليه تحدثه ويحدثك ويكشف لك عن ذات نفســه لترى العوامل الهامة التى جعلت ممن هو مثلك رجلا عظيما يتحدث عنه الناس أجمعون . ولكن تعال معى نطلب أن نقابل هذا العظيم . انه مشغول جدا فهو لا يستطيع أن يقابل أحدا ولو قد قابلناه ، لقابل أمثالنا ، ولترك أعماله المجيدة وأنفق الوقت فى أحاديثنا التافهة . ولكن هذا عظيم متواضع يقول لك تفضل أيها المواطن انى فى خدمتك . أراك تلعثمت فلا تعرف ماذا تقول . انه عطوف عليك يحييك ويسأل لك السلامة ولكنه مضطر أن يصرفك عنه ولو فى رفق انه مشغول مشغول.

ولكن لا تأس على هذا . أتظن عظيمك أعظم ممن تحدث عنهم التاريخ . كلا . تعال اذن معى وعلى هذا الرف الهادىء من المكتبة — رف التراجم — تجد تراجم العظماء . تصرّف أنت فى وقتهم . وتحيّن موعدا لتقابلهم فيه . واذا أثقلوا عليك اصرفهم بالحسنى واذهب الى من سواهم . لقد رد اليك اعتبارك ، أليس كذلك . هؤلاء عظماء التاريخ محاربون وسياسيون وعلماء وشعراء وموسيقيون ، فمن من هؤلاء تريد أن تقابل . ان التاريخ علّمهم ما هو أكثر من التواضع وكرم اللقاء . انهم أمامك صفاً واحداً طوع أمرك فى كتاب .

خذ الكتاب الذى أردت وادخل الحياة مع عظيم ودعه يحدثك عن نفسه . انه لن يقول لك : « سلام عليك انى مشغول » . انه يصادقك فى الحال كأنما كان ينتظرك ويتمنى لقاءك ، فاذا أنت أمامه أيام كان طفلا صغيرا لا شأن له ولكنه ليس كسائر الأطفال . لقد كان يمتاز بشىء هنا وآخر هناك جعله فوق المستوى نوعا ما . ما الذى جعله يرتفع عن مستوى العاديين، ومتى حصل له ذلك ، وكيف كان يحيا حياته الخاصة التى تقربه اليك رغم عظمته الشامخة . ما آلامه رغم الأناشيد والهتاف وما هزيمته وسط دقات طبول النصر . انه بشر ، بل بشر عادى مثلك تكاتفت الظروف مع هباته الخاصة فجعلته شيئا ليس مثلك فى كل شىء . واذا أنت فى عالم العظيم تروح وتجىء ، تنصت وترى كيفما شئت ، تشبع حب استطلاعك وتريح عواطفك الثائرة على الحياة لأنها تحاربك . ان هذا العظيم لم يتغلب على الصعاب مثلك . كلنا يلقى الصعاب وكلنا يحاربها ولكن العظيم لا ينهزم أمامها أبدا . انه لا يتراجع بل يثبت ويثبت الى النهاية . كل ما بينكما من فرق أنك تحارب أحيانا وتضعف حينا ولكنه هو يحارب أبدا فى سبيل فكرة ، فى سبيل غاية أو هدف . تتكاتف الظروف والأحوال والناس عليه ويخيل اليه أحيانا أن

السماء من فوق تساعدهم ولكنه يقف وحيدا أمام كل هذا يقويه ايمان داخلى مكين أنه لابد منتصر . وأخيرا ينتصر فعلا . وقد لا يحس انه انتصر ولكن التاريخ يسجل له ما لا يحس ويقدر النتائج التى تبدو له تافهة حق قدرها .

ان ترجمة العظيم فى كتاب تقربه اليك أكثر من أى شىء آخر قصد به الى تخليده وتذكيرك به وتقريبه اليك . أنظر الى تمثال سعد وهو يخطب ، انه حجر يصور سعدا عظيما كخطيب . ولكن سعدا لم يكن عظيما فى الخطابة وحدها . لقد كانت عظمته متعددة النواحى . وتمثال سعد تمثال يوحى بكل ما يوحى به الحجر من الوقفة والبعد بينك وبينه . انه يرفعك من عالمك لتحلق فى سماء العظمة فى قوة وعنف بينما ترجمة سعد كما كتبها العقاد ترينا الرجل أقرب الى القلب وأمس بالاحساس . نراه فيها فى كل وقفة من وقفات حياته انسانا يفيض حنانا ورقة ونبل عواطف . انه ليس عظيما فحسب ولكنه انسان عظيم .

والصور الزيتية لابد من أن ترسم فترة أو وقفة من حياة العظيم تحاول أن توحى بالعظمة كلها فى صورة مركزة ولكن لها طابعا واحدا دامغا . يقف فيها العظيم بملابس عصره التى لا تلائم عيوننا اليوم فاذا مجرد هذا اللباس القديم يبعده عنا

نوعا ما . اننا ننسى أن هذه الملابس كانت مألوفة فى عصره ولكننا نحس الغربة نوعا ما فى هذا الجو أو هذه المناظر التى تصورها الصورة بينما نحن فى الترجمة نستطيع أن نتصور كل ما يقال لنا كيفما يريد لنا خيالنا أن نصوره . نحن الذين نتحكم فيه ونفسره ونترجمه الى مفهومات عصرنا وصوره فاذا العظيم أقرب الى قلوبنا وألصق بنفوسنا . ان الحياة من حولنا مملوءة بآثار العظماء على مر القرون وكل هذه المظاهر تغنى وتنتعش اذا ما عرفنا شيئا عن الذين جعلوها جزءا عاديا من حياتنا نفيد منه وننتفع . ان سيرة حياة «باستور» قد تجعل عملية غلى اللبن عملية ممتعة بدل أن تكون عملا مملا رتيبا يوميا. وسيرة التلميذة الخالدة «مدام كورى» التى جاهدت الأعوام فى صبر وأناة وصمت حتى استكشفت الراديوم تجعل هذا الكشف يثير فينا الاجلال للعقل البشرى ولقيمة هذا الاستكشاف فى الحياة الانسانية . بل ان ما كشفه القدماء الذين جار الزمن على جهودهم وثمراته بما قد قدم من جديد فى ميدانها تصبح بدورها حلقة حية فى هذا الكشف العجيب الذى نراه ونتعم بثمراته . حتى الأدب تدب فيه ألوان من الحياة الجديدة اذا ما قرأنا تراجم مؤلفيه . وهكذا العظماء فى كل فن ولون من فنون الحياة وألوانها يشعون من أضواء

عظمتهم ما ينير لنا هذه المعالم الراسخة فى بيداء الحياة . فاذا الرحلة واضحة المعالم مشرقة الخطوات واذا آثارهم تثير من الاعجاب والمتعة أضعافا مضاعفة لما كانت تثير فينا دون قراءة تراجمهم .

ان العظماء الذين تترجم لهم الكتب متعددون يختلفون عصرا وفنا ومناحى عظمة . عظماء الشعر كأبى العلاء المعرى كما ترجم له طه حسين ، وعظماء التاريخ « كسيرة السيد عمر مكرم » التى كتبها محمد فريد أبو حديد ، وعظماء الحرب والسياسة والجهاد الدينى . ولعل سيرة الرسول الكريم قد ظفرت بأكبر عدد من الكتب حولها . ولعل أقدمها كتاب السيرة المعروف لمحمد بن هشام ، وأحدث هذه التراجم ترجمة محمد حسين هيكل . وعندنا فى الأدب العربى كتب جامعة لتراجم قوم كثيرين . منها ما يترجم لفئة — ككتب فى تراجم الصحابة أو الكتاب أو الوزراء أو الملوك أو اللغويين أو النحاة أو الشعراء وهذه كثيرة جدا . وبعضها يترجم لأهل مدينة فيروى أخبار من عاش فيها ؛ بل من وفد عليها أيضا ، ككتاب الخطيب البغدادى عن تاريخ بغداد . ومن هذه الكتب ما يروى الروايات مقتضبة فى تاريخ من يترجم لهم كمعجم الأدباء لياقوت ، ومنها ما يروى الروايات الحية

التى تقرب هذه الشخصيات المترجم لها على بعد الشقة بيننا وبينهم زمانا ومكانا كما فعل الأصفهانى فى كتابه الأغانى مما جعل هذا الكتاب الى اليوم أخصب المراجع حيوية فى تاريخ الشعر العربى القديم . ولكن أكثر هذه الكتب قديم ، وهو يعانى من قدمه لأن فن التراجم لم يكن معروفا كما نعرفه نحن اليوم ، ولكنها كلها المادة الوفيرة لكتابة التراجم الحديثة عن هؤلاء البارزين فى مختلف العلوم والفنون .

وهكذا تفتح أمامك هذه التراجم أبواب الزمن فترى الماضى وكأنه حاضر تعيش فيه فتغنى حياتك بما فيه من أحداث وأفكار وصور ، فاذا زمانك المحدود تدك أسواره ليصبح طلقا كالعالم ، حرا كالطبيعة يتسع لكل شىء فى الحقيقة بل فى الخيال أيضا(*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقال « التراجم تأتينا بأصدقاء جدد » بقلم « مارشت شوت » (Marchette Chute) من فصل « مباهج القراءة » .

وهل أقص عليك قصة ؟

ومن قراءة كل هذا القصص بشتى أنواعه يمكن الى جانب المتعة والخصب والعمق الذى تضيفه الى حياتك أن تكسب منها شيئا آخر لو أن الله وهبك هبته النادرة — حلاوة الحديث .

ألا تذكر هذه الكلمة السحرية التى كنا نسمعها أطفالا « هيا اسكتوا وأنصتوا الى القصة التالية » ، فاذا أحب الألعاب وأعنف المشاحنات وأصعب الدروس تترك كلها فى سرعة لنهرع الى جانب القاص المحبوب وكلنا عيون تتطلع وشفاه قد وقف على أطرافها الكلام جامدا أمام ارهاف الآذان .

ان هذه الجملة السحرية تصور لك الآفاق التى يمكن أن تنفسح أمامك لو أنك استطعت أن تكون قاصا ماهرا . ان القصة المقروءة بصوت عال تختلف عن القصة التى تقرأ على انفراد وفى خلوة . واجتماع الجماعة لسماع قاص فنان يكسب فنه — الوقائع والشخصيات والحوار — حياة خاصة تجعل للقصص طعما لا يختلف اثنان فى حلاوته .

وليس كل من قرأ قصة يستطيع أن يقصها . ولعلنا نلاحظ ذلك فى أبسط أنواع القصص وأكثرها اختصارا . هل استمعت الى رجل يقص عليك فكاهة فاذا أنت تسائل نفسك « عجبا ! وماذا يضحكه ؟ » ، ثم هل استمعت الى نفس هذه الفكاهة على لسان فنان فى القص فاذا أنت لا تملك نفسك من أن تضحك ملء شدقيك ؟ يقول كاتب انجليزى ان القصاص ينقسمون الى قسمين : قسم يحكى القصة والآخر يقتلها قتلا . ووسائل قتل القصة كثيرة وهى مهما اختلفت لابد مؤدية الى فقدان الصلة بين القاص ومستمعيه . والعجيب أنك اذا أنصت الى هؤلاء ، قتلة القصص ، وجدتهم يفتنون فى القتل افتنان الآخرين فى الاتقان . منهم من يعدى على النقطة الرئيسية تعدية فيسلب القصة مغزاها أو عقدتها . ومنهم من يستطرد فاذا هو قد أنهكك ، فى الفيافى والقفار حيث قاده الاستطراد ، فاذا عدت معه الى القصة الأصلية عدت منهوك القوى فاقد الحيوية فلا تستطيع أن تتابع ولا أن تفهم بل تود لو أنك غادرت المجلس . ومنهم من يدخل لك من التفصيلات تافهها أو ما لا يتعلق فى الواقع بالأصل الا بخيط واهٍ فاذا الأصل محمّل مثقل يدخل أذنك

وكأنما هو الحمـل الثقيل عليه أطنان وأطنان فلا يسرى ولا يتحرك وبالتالى لا يصل الى قلبك ولا يحرك شعورك .

أما الذين عندهم هبة القص فهم يعرفون بالفطرة ، التى تصقلها المرانة فيما بعد ، فيم يفصلون وماذا يختصرون ، ماذا يقولون وماذا لا يقولون ، واذا هم فى كل مجتمع زهرته وفى كل ندوة محور الانتباه .

كم من الحفـلات تنتعش بقص قصة ، وكم من حلقات الأطفال تنتعش بالقصص ، وكم من البرامج تغنى وتزخر لو انها ضمنت قصة يقصها فنان متقن لفنه . وهذه الكتب التى تقص ألوانا من القصص — روايات وقصص قصيرة ومسرحيات وتراجم — غنية كلها بالمواد التى تلزم القصاص وتفيدهم وتصقل فنهم وتغذيه .

انك تستطيع فى اعداد أى برنامج أن تفزع الى قصة لتملأ بعض فراغه . وتستطيع أن تفزع الى هذه الكتب على شتى ألوانها ومختلف أشكالها لترى فيها آلاف القصص بل عشرات الآلاف منها . واذا محصولك القصصى وافر واذا أنت محدث مرموق ، واذا البرامج التى يمكن أن تسهم فيهـا تنتعش بفضـلك .

وفى الاذاعة مجال كبير لهذا الفن . فكلنا يحب أن ينصت الى قصة يقصها متقن لفن القص على أمواج الأثير . اننا لو قرأنا هذه القصة المذاعة لأحسسنا نصف لذتها . ذلك آن القاء القاص وربما بعض تصرفاته التافهة فى النص تكسب الحروف الصامتة حيوية وتضيف الى الذين لا يستطيعون أن يحلّقوا فى الخيال مع القاص طاقة جديدة للوقائع والشخصيات تدفع بأمثال هؤلاء القراء الى آفاق القصة دفعا قويا .

والى جانب المستمع العادى يقف هذا الصغير الذى يتلقى العلم . كم ذا يسهل عليه القصص ما يتعلم . ان أكثر مواد الدرس جفافا وصعوبة تصبح مشوقة ممتعة سهلة لو استطاع المعلم أن يقصها قصة . لذلك أخذ القصاص فى أنحاء العالم يستغلون هذه الطاقة الأصيلة فى القصة لتعليم الصغار . واذا كتب تقص قصص الحيوانات أو مظاهر الطبيعة كالحرارة ، أو المخترعات كالكهربا وما شابه ذلك . وكلها مملوءة بالمعلومات العلمية . ولقد أسهمت مؤسسة فرنكلين فى مصر حديثا فى ترجمة بعض هذه الكتب وحبذا لو استغلها المعلمون بأن قصوا هذه القصص شفاها للنشء الذى يعملون . بل ان من المؤلفين من ألف عن دور القصة فى التربية والتعليم ،

وعندنا فى العربية صورة ما من هذا التأليف الغربى الكبير فى كتاب الدكتور عبد العزيز عبد المجيد «القصةفىالتربية» .

أما دور القصص فى الوعظ والارشـــاد فمعروف منذ القدم . فكتب الأديان السماوية تزخر بقصص المواعظ . والقصص القديم على لسان الحيوان كقصص « ايزوب » اليونانية ، وقصائد « لافونتين » الفرنسية « وكليلة ودمنة » العربيـــة ، كلها مملوء بالمواعظ . فلو قصت هذه القصص بلسان فنان لكان أثرها الخلقى المرغوب أضعافا مضاعفة فى الصغار والكبار على حد سواء (*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقال « القراءة بصوت عال تفجر أفكارا جديدة » بقلم ادوارد ليندمان (C. Lindeman) ومقـــال « سأقص عليك قصة » بقلم نانسى هوسكنج (N. K. Hosking) ومقـــال بنفس العنوان بقلم سبنسر شو(S. G. Shaw) — وكلها فى فصل « القراءة مع الاصدقاء » .

كيف تقرأ..

تختلف الاجابة على هذا السؤال باختلاف السبب الذى من أجله نقرأ وباختلاف الكتاب الذى نقرأه وباختلافنا نحن من حيث استعدادنا للقراءة المثمرة . ذلك أننا قد نقرأ لمجرد التسلية أو المتعة ، وقد نقرأ للدرس والتحصيل لأداء امتحان ، وقد نقرأ لأننا مطالبون بابداء رأى أو اصدار حكم على ما نقرأ . وفى كل هذه الحالات يختلف نوع القراءة . ففى التسلية نستطيع أن نقرأ ونمرّ على الكثير، أو قد نغرى بأن نمرّ على بعض الأجزاء ونقفز من فوق الأسطر قفزات تطول أو تقصر . وأما فى الامتحان فاننا قد نعود فنقرأ ما قرأنا مرة أخرى لنستذكره ونثبته فى ذاكرتنا وقد نعود فنقرأ بعض الأجزاء الهامة مرّات . وأما فى الحكم فاننا كثيرا ما نحاول أن نأخذ فكرة عامة ثم نملأ فجواتها بانتظام ما أمكن بأن نقرأ بامعان وروية وقصد الى ربط ماسبق بما نقرأه الآن ، وهذا بدوره بماسيأتى بعد . فقراءة يصحبها تفكير فيها أو رغبة

فى تذكرها غير القراءة العادية الممتعة التى يترك فيها القارىء نفسه للأسطر تحمله على أجنحتها أنى شاءت وكيفما تريد .

وكذلك اختلاف مادة الكتاب لها دخل أى دخل ، فكتاب فى الكيميا غير كتاب فى الفكاهات أو القصص ، وكتاب فى التاريخ غير كتاب فى الشعر أو القصائد . كل نوع من هذه الكتب يحتاج الى طريقة معينة فى قراءته والى درجة من درجات الانتباه وقدر من مقادير التركيز والحصر والالتفات.

وأما نحن فمنا الصبى الذى يقرأ للمتعة وحب المغامرات ومنا الفتى الذى يقرأ ليسبح فى عوالم الحب والأحلام ومنا الرجل ومنا الكهل ومنا الفيلسوف الحالم المفكر فى كل حرف يقرأ ومنا العالم المدقق ومنا القارىء العادى أو القارىء المهمل بل أحيانا القارىء الذى قد عود عادات سيئة فى القراءة فهو يعانى من المجهود الذى يدفع به نفسه ليقرأ دون أن يكون فى الواقع ميالا للقراءة أصلا .

ولسنا نريد أن نخوض فى كل هذه الاختلافات لنحددها أو لنرسم مداها ولكنا نأخذ القارىء العادى للكتاب العادى وهدفه فيه فائدة ومتعة بمقدار يتساوى لنجيب على بعض أسئلته ونحل له بعض مشاكله .

ان القراءة لا يمكن أن تصبح عادة لمجرد أن نصمم على

ذلك ، أى ما دامت عقولنا قد اقتنعت بأن تجعلها كذلك . وان عادة القراء لا يمكن أن تنمو بالأمــر أو بالعزم وانما هى استجابة طبيعية لحاجات النفس وحاجة النفس لا تتعود الاشباع بطريقة معينة الا اذا كانت قد وجدت فى هذه الطريقة اشباعا ممتازا يغريها بالمزيد . ان الاحساس بالرضا والمتعة مما نقرأ هو الذى يدفعنا الى طلب المزيد وكلما ازداد هذا الاشباع تعودنا أن نهرع الى الكتاب لنجد عنده ما وجدنا . لذلك كان من الهام جدا أن نبدأ بقراءة ما يمتع حقا حتى تغرينا اللذة بالمزيد ، والمزيد بالأزيد ، فتتولد فينا الرغبة ويقوى الشغف وتصبح القراءة عادة لذيذة لا نريد أن نتركها لأننا نحب فيها هذه الألوان من اشباع النفس والمتع اللذيذة.

هذه هى الحقيقة الأولى التى يجب أن نجعلها نصب أعيننا سواء أكنا نحاول خلق هذه العادة فى أنفسنا أم كنا نعمل على ايجادها فيمن قد وُكل الينا أمر تنشئتهم . وهنا نأتى الى الحقيقة الثانية وهى أن عادة القراءة يحسن أن تنمى وترعى فى الصغير . لا لأنها تكون أثبت وأقوى فحسب ولكن لكى لا نضيع على أنفسنا سنوات من العمر سنندم فيما بعد أننا لم نستغلها فى هذه المتعة اللذيذة .

ان الطفل الذى يولد فى بيت لا يقرأ فيه الوالدان لا يمكن أن يحب القراءة الا بمجهود جبار من لدن أساتذته وربما من

نفسه عندما يكبر . ان من بيوتنا ما يزخر بالتحف والطرائف وان منها ما فيه الضرورى ولا شيء غير . ولكنها كلها ليست الا قلة قليلة جدا لا تضع الكتاب فى المكان اللائق به من لوازم البيت وأدواته وزخارفه وتحفه .

جاءنى قريب يوما يريد أن يجهز ابنته المتعلمة الى مستوى البكالوريا وسألنى أن أدله كيف يمكن أن يشترى مترين من الكتب بأقل ثمن . ولما فغرت فمى متعجبة قال فى غاية البساطة : « لقد اشترينا غرفة مكتب للعريس ، والمكتبة مقفلة ولكن لسوء الحظ بها جزء مكشوف نحو مترين فجوة مفروض أن تملأ بالكتب » . ولما كان ما يمكن أن تملأ به لن يقرأ فى يوم من الأيام فهو يستشيرنى فى أرخص الكتب لملء هذا الفراغ . وكدت أقول له : « ان ملء فراغ المكتبة أمر هين ولكن داهية الدواهى هو ملء الفراغ الذى تعيش فيه أنت وأسرتك » . لولا شيء من حياء ونزر من بصيرة أكد لى ألا فائدة فى الكلام .

وهكذا بيوتنا فى الشرق نحن ورثة أرقى المدنيات وأعرقها وأقدمها تقفر من آيات هذه المدنيات وشواهدها ومعالمها . فننفق العشرات من الجنيهات والمئات بل الآلاف فى شراء أثاث وأدوات لراحة الجسم وتغذيته ولا نشترى بالآحاد بله

العشرات أدوات لغذاء العقل والروح اللذين بهما تتميز عن الحيوان وبهما وحدهما يفضل بعضنا بعضا .

ولكن الجيل الجديد ، وقد تعلم أكثره بفضل قانون التعليم الاجبارى سيرى من واجبه بل من لوازمه مكتبة صغيرة تحتل فى البيت مكانا ممتازا يلتقى عنده أفراد الأسرة فاذا هم جميعا بين دفّتى كتاب ، أرواح وعقول وقلوب ونفوس تتلاقى وتمتزج وتشترك فى المتعة والتسامى .

ان الطفل يجب أن يرى صور من نقص عليه قصصهم ، وهنا يبدأ شغفه الأول بالنظر الى كتاب ومتى تعود أن يقرأ الحروف أو الكلمات البسيطة فانه يجب أن يقتنى كتابا لنفسه ليقرأ فيه متى شاء وأنى يريد . وتراه حريصا على هذا الكتاب يحب أن يضعه بين كتب والديه وربما فى الرف الأول اللاصق بالأرض ليكون فى متناول يده ثم يذهب مقلدا أبويه الى كتابه ليقرأ هو أثناء ما يقرأون . ولكنه دائما محتاج الى من يرشده ومن يدله حتى عندما يكون كتابه مجرد صور تحت كل منها جملة صغيرة .

وملكية الكتاب فى سن مبكرة هامة جدا كملكية اللعب سواء بسواء . فالطفل ما يكاد يعجب بلعبة زميل أو قريب حتى يود أنها له وربما أخذها بكل بساطة ورفض أن يعيدها

الى صاحبها . ان ملكية ما يمتع رغبة طبيعية . لذلك يحسن أن يكون للطفل منذ سن مبكرة كتاب ضمن لعبه يلذ له أن يقلب صفحاته . ولقد قامت دار المعارف حديثا بنشر سلاسل من الكتب لتلائم كل سن منها ما ينفع فى الطفولة المبكرة جدا ومنها ما ينفع فيما بعدها . ولقد أصبحت هذه القصص ومجلة السندباد فى أكثر بيوتنا المدنية ان لم يكن فيها جميعا . أما فى الريف فلولا انتشار الجهل بين الآباء لعمت هذه الكتب ومع ذلك فلقد أخذت تنفذ اليها وأخذ الأطفال حتى فى القرية يقرأون عن « كتكت المدهش » و « فرفر وجرس » .

وأسهمت مؤسسة فرنكلين فى هذا الميدان وانتشرت قصة « الفيل المجنون » و « الدب الأكبر » انتشار كتب دار المعارف . وأخذت سلاسل أخرى تظهر للأطفال فى هذه السن كسلسلة السيدة بهيجة سليمان . ومع ذلك أين نحن من عناية الغرب فى هذا الميدان .

أذكر أنى حضرت فى شيكاغو أواخر عام ١٩٥٢ مؤتمرا سنويا يعقده المؤلفون والناشرون لكتب الأطفال فى احدى صالات الشاى فى محل من المحال الكبرى . وأذكر أن كل مؤلف أو ناشر كان عليه أن يقف أمام الجمهور ليقدم كتابه الذى أخرجه هذا العام فى دقيقتين . وأشهد أنى لم أحضر

مؤتمرا أمتع من ذلك المؤتمر . ولشد ما راعنى أن الكتب الجديدة التى صدرت للأطفال فى هذا العام وحده قاربت المائة كلها مؤلف تأليفا حديثا روعى فيه ناحية معينة أو فكرة جديدة . ولم أحس باتساع ميدان التأليف للأطفال والصبية قدر ما أحسست فى هذا اليوم . كتب للبنات وأخرى للأولاد كتب مغامرات ومعلومات وتاريخ وبلدان أجنبية تعرف لهم كلها عن طريق القصص والصور وكتب تنمى الملكات وتغذى الميول على اختلافها وتباينها . وكتب تعلم الرسم وأخرى الكيميا وثالثة فن التفصيل . وكلها للأطفال ليلعبوا ويتسلوا ويتعلموا ويخرجوا الى الحياة مسلحين بالهوايات ، محصنين ضد الفشل بالايمان بأن فيهم شيئا ليس فى غيرهم ؛ ولهم طاقة على عمل بعينه لا يجيده كل الناس .

ويكبر الطفل واذا هو تلميذ فى المدرسة ، تلميذ فى المرحلة الثانوية مثلا فماذا يجد من كتب ليقرأ ؟ عندنا كتب المكتبة الخضراء وبعض الكتب الدينية وبعض الترجمات التى تصدرها دار المعارف ثم لا نكاد نجد شيئا بعد ذلك . مع أن هذه هى السن التى يهوى الصبى فيها المغامرات ويجب أن يقرأ القصص التى تخوض معه غمار الأخطار والأهوال . انه يريد أن يسمع من بطل الأدغال كيف صارع الكوبرا ويريد

أن يعرف من ملك البحار كيف صارع الموج المتلاطم والتيار الجارف ، ويريد أن يعرف منذا الذى يفوز لو التقى انسان بنمر مفترس . انه يريد أن يعرف عن الغابات والبحار والسماء أيضا كل ما يدور فيها من أهوال وكيف يصارعها البطل ويفوز آخر الأمر . انه فى هذه السن يتفتح للحياة يريد أن يستقبلها ملء رئتيه وأن ينشق عبيرها ويملأ صدره وعينه وأذنه وكل حواسه بكل ما يمكن أن يكون فيها مما يملأ الحواس أو يثيرها .

وعجائب العلوم تستهويه كيف اخترع التليفون ، وكيف اخترعت الكهربا ، وكيف يسير القطار ؟ ما الجاذبية وما قوة البخار ؟ وكل هذه القوى قوى العناصر كقوى الحيوان تثيره وتفتنه ويريد أن يتعلم أسرارها . وهذه بداية ليس أحسن منها بداية لنغرس فى نفس الصبى حب الكتاب . ما علينا الا أن نختار له الكتاب الذى يمكن أن يستهويه ويرد على أسئلته ويشبع شغفه فاذا هو قد قرأه فى غمضة عين وعاد الينا يطلب المزيد .

ولما كانت ظروف بيوتنا لا تساعد وظروف تأليفنا فى هذه الميادين لا تساعد أيضا فان النتيجة التى نراها شاذة يجب أن تبدو طبيعية . هذا صبى يريد أن يقرأ فلا يجد

ما يقرأ أو يجد كتابا واحدا لا غير ، فكيف يمكن لهذه الرغبة الطبيعية أن تنمو وتزدهر وتصبح عادة تلازمه وهى بحكم الظروف أليق بأن تختنق .

ان شعورنا بهذه الحاجة وصرخة الصبى « أريد أن أعرف وأن أحيا وأغامر بين دفتى كتاب » سيدفعاننا حتما الى سد هذا النقص الذى بدأنا نسده فى حدود وفى بطء لأن هذه المجهودات تحتاج الى تشجيع الدول ورءوس الأموال الكبيرة.

ان الصبى يريد أن يلتهم الكتب وكذلك أخته تريد أن تعرف الكثير عن أخوات لها أحسسن ما تحس . وهى تريد أن تعرف الكثير عن الاناقة واللياقة وآداب السلوك وأخبار العظيمات ، بل انها تريد أن تعرف الكثير عن الفنون فنون الموسيقى والشعر والقصص والرسم والنحت . وهى تريد أن تعرف عن زمان جداتها وماذا كن يصنعن فى أيامهن . وكل هذه الآفاق بالاضافة الى آفاق الصبى التى تشغف بها أيضا مغامرات البر والبحر والجو يمكن أن تملأ بالكتب ثم الكتب فاذا فتاتنا يوم تتزوج تستغنى عن فستان لا ينقص ولا يزيد لتشترى جملة كتب تقرأها مع زوجها وتقرئها أبناءها من بعدها .

كذلك يميل الصبية الى قراءة الفكاهات وهم يتذوقون نوادر جحا وأبى نواس بمثل الحماسة التى يقرأون بها قصص

السندباد ومغامراته فى البحار الشرقية أو قصص الشطار والصعاليك فى بعض قصص ألف ليلة وليلة . وكتابنا الفكهون كثيرون ولكنهم لا يحبون أن يؤلفوا فى الفكاهة المحضة . فأكثر قصص المازنى مثلا فكهة ، وكذلك توفيق الحكيم له ملكة ممتازة فى الفكاهة ومع ذلك لا تجدنا فى الشرق ، من بعد جحا التركى فيما يقال وأبى نواس العراقى، نجد شخصية فكهة يخلقها كاتب كما خلقت شخصية جحا ، ولا كاتب أو شاعر فكه يؤلف للدعابة ليس غير كما كان يؤلف أبو نواس أحيانا . ان كتاب الغرب نوابغ التأليف فى الفن الفكاهى كثيرون أمثال «ليكوك» و « ميكال آرلين » و «وودهاوس». ولهؤلاء مؤلفات يتهافت عليها الصبية فى هذه السن ويتهافت عليها الكبار أيضا . ترى أيستطيع كتابنا بالعربية أن يتخلوا قليلا عن وقارهم ليشبعوا هذا الميل الغريزى فى الشباب بل فى الشيوخ الى الضحك والاستبشار . ان هذا التأليف الفكاهى خير ما يمكن أن يستخدم ليعود الصبى القراءة فهو بداية مشوقة مغرية تغرى بالمزيد أبدا .

كذلك القصص القصيرة بشتى أنواعها مادة يمكن أن نبدأ بها تعويد الصبى القراءة الفنية الممتعة . وقد يحسن مثلا أن نقرئه قصة رآها فى المسرح أو فى السينما أو حتى

قبل أن يراها ، ليفهم أثناء رؤيتها . فكل هذه مغريات وطرق تجعل نفس الصبي تهفو الى أن يقرأ . فاذا قرأ وقرأ تعود القراءة واذا هي ضرورة في حياته تنفعه وتلذه وتنفع المجتمع من حولنا وتجعله أليق بأن نحيا فيه(*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقال « الصبية تقرأ للمتعة » بقلم مرجرت سكوجن (M. C. Scoggin) ومقال « لما كنا صغارا » بقلم نورا بوست (N. E. Beust) . والمقالان من فصل « مباهج القراءة » .

متى أقـرأ ؟

لقد تعودت أيها القارىء القـراءة . وأنت الآن أمام كتابك تسأل مرة أخرى كيف أقرأ ؟ انى أحب القراءة ولكن دونها صعاب . وأهم هذه الصعاب أنى لا أجد الوقت الكافى لأن أقرأ غير هذا الذى أنا مضطر الى قراءته من صحف ، فماذا أصنع ؟

ان شكوى ضيق الوقت هـذه شكوى زائفـة لأنك لو أردت فعلا أن تقرأ لوجـدت الوقت الكافى بل أكثر من الكافى . ذلك أنك تقوم فى حياتك بأمور وأعمال تشغل بها وقتك هى دون القراءة قيمة وفائدة ثم تجعل لها الصدارة فى التحكم فى وقتـك . انك تجتمع مـع الصحب لتتحدث فى الاجتماع وفى السياسة وربما فى الجو . ألا تكسب هـذه الأحاديث روعة وفائدة لو أنها أديرت على نحو يختلف ؟

هاك مثلا ما يفعله غيرنا ليجعلوا هذه الجلسات ممتعة مفيدة ، تدور فى نفس هذه الأمور التى يدور حولها الحديث عادة . انهم يجعلون هذه الاجتماعات منتظمة كل أسبوعين

مثلا ، أو كل أسبوع اذا أمكن . ولا يقضون الوقت فى اعادة ما قد ملوه من أحاديث . وانما يتحدثون حديثا عاديا فترة ، ثم يجتمعون حول كتاب . قد يكونون تناقشوا فى الأسبوع الماضى مثلا حول الطقس . فالشتاء هذا العام لم يكن شديد البرد بحال من الأحوال . قال قائل منهم ان هذا يعود الى التجارب التى تقوم بها مصانع الذرة فى أمريكا وروسيا . فهل عرفوا شيئا عن الذرة مثلا . هذا كتاب صدر فى سلسلة « اقرأ » منذ قليل عنوانه « بين البقاء والفناء » لمؤلفه قدرى حافظ طوقان . وهذا آخر اسمه « قصة الذرة » لفوزى الشتوى . فما ضرّ لو أن هذا الكتاب كان موضوع الجلسة القادمة . نقرؤه الجماعة ، أو يقرؤه واحد ، ثم يقدم اليهم بعض فقراته الهامة ويتناقشون حوله ويتحدثون كل بما يعرفه فى هذا الميدان . ألا تكون الجلسة أمتع وأجدى وألذ من مجرد الاجتماع حول لا شىء والمناقشة فى لا شىء . فاذا ما ألفت الجماعة هذه الاجتماعات رغبت ولا شك فى تنويع موضوعاتها واذا هم فى الجلسة القادمة يتحدثون عن أندونسيا مثلا بمناسبة مؤتمر باندونج فيكلف عضو بالمعلومات الجغرافية وآخر بالسياسة وثالث بالثقافة واذا جلسة أندونسيا القادمة أقوم من أى مناقشة فى السلم والحرب وأمتع من أى كلام يقال جزافا حول لاشىء فى الواقع .

وقليلا قليلا تنفتح ميادين الأدب والفنون والعلوم أمام أعين هـذه الجماعة وهم يتلاقون ويسمرون وربما يطعمون أيضا ولكن ساعة واحدة كل أسبوعين تغنى عقولهم وتغرى نفوسهم بصحبة الكتاب . واذا هم قراء يجدون الوقت فعلا للقراءة ويرون أن من مكملات وجودهم كأناس أن يقرأوا وأن يفكروا .

ان القراءة لا تمدنا بالمعلومات فحسب ولكنها تنير هذا الذى نراه بأعيننا ونعرفه بعقولنا فاذا الأمر من حولنا بفضل القراءة تظهر أوضح وأجلى. انها مثل النظارات للعين القصيرة النظر تمكننا من أن ترى هـذا الشيء المطموس أو المهتز أو المشوش فى صورة واضحة بينة ، فاذا هو ينار بضوء وتتضح فيه المعالم ، ويصبح أكثر معنى وأبين دلالة . واذا الحياة وقد أصبحت ذات لون يختلف كل الاختلاف عما هو قبل . إن الايمان بالقراءة ، كالايمان بأية قيمة انسانية ، يضفى على كل الحياة بعد الدخول فيه لونا جديدا وطابعا معينا . انها خطوة حاسمة فى حياة الانسان كخطوة الزواج أو الانتظام فى عمل جديد تلقى أضـواءها على ما سبق وما لحق من حياة الفرد وتكسبه كله معنى جديدا وتصبح المؤثر الأول والأهم فى هذه الحياة .

ان الكتب الثمينة كنوز لا تفنى ولكن لابد لنـــا من الصراحة ، ان أكثر الكتب تافه ، وانها لقلة قليلة هى التى يمكن فعلا أن تغير من حياة الانسان . ان الكلمة المطبوعة لا تكسب من مجرد الطبع صحة وصدقا وانما هى كسائر الكلام تخضع لظروف الجودة والرداءة . وتستطيع أن تقـرأ أيها القارىء بنفسك فستجد هذه الحقيقة أول ما يصدمك . ما الفائدة من هذا الكتاب ؟ لقد أضعت فيه وقتى . ولكن المرانة ، ولا شىء مثل المرانة ستعلمك كيف يمكن أن تحكم على الكتاب ان غثا وان سمينا منذ الفقرات الأولى فى كل باب . فاذا قرأت عدة فقرات من كتاب فوجدت أنك لا تميل الى متابعته فلا ترغم نفسك على شىء من هذا وانما دعه ببساطة وخذ ما سواه . دعه فى مكتبك الى حين أو أرجعه الى المكتبة التى استعرته منها . وبعد أعوام ستعود اليه يوما فاذا أنت تجد فيه ما لم تجد أول مرة واذا أنت تقرؤه بشغف . وقد لا تعود اليه فلا ضرر من ذلك .

ان الكتب تكسب الكثير من دلالتها وقيمتها اذا ما كانت ترتبط بشىء ما فى حياتنا . خذ مثلا قصة تصف وفاء كلب فاذا كنت لا تحب الكلاب ولم تألفها ولا تعرف عنها الا النزر اليسير كانت القصة بالنسبة اليك لا شىء . ولكن اذا كان لك

كلب عزيز عليك أحببته ووفى لك بشكل أثر فى نفسك فان قصة هذا الكلب ستعنى الكثير بعد هذه التجربة . وكذلك الأمر فى الكتب العلمية أو التاريخية فان الحوادث فيها تكسب دلالات جديدة وتتسع طاقات تأثيرها فى النفس وتعمق اذا ما وجد من واقع حياتنا ما قد تستند اليه . خذ رجلا أنانيا لا يحب أحدا ولم يحبه أحد . ماذا يمكن أن تؤثر فى نفسه قصة حب عظيم عميق أملى ألوانا من التضحية وألوانا من الأعمال المجيدة . حتى الوصف البسيط يكسب من التجارب السابقة حيوية ، فوصف الرعد والبرق والمطر لمن لا يعرف هذه الظواهر الطبيعية ، الا ما قد سمع عنها ، لا يمكن أن تؤثر فى النفس بمثل ما تؤثر به فى نفس من سعد بها أو شقى بسببها . ولكن هناك موضـوعات عن العواطف الانسانية تجد صداها فى كل نفس لشيوعها . ولكن حتى هذه تكسب دلالات أقوى لو أنها وجدت فى النفس التى تقرأ عنها صدى أو أصداءً لعواطف مشابهة واحساسات مماثلة .

ونعود الى جلستنا التى بعثت فينا شيئا من الاقبال على الكتاب لنرى ماذا فيها . انها كانت مجموعة صغيرة فاذا هى تتسع . ولكن مثل هذه الحلقات يجب ألا تتسع الى أكثر مما يجب حتى يتسنى لكل فرد أن يقول فيها رأيه وأن يكون فيها

عضوا عاملا لا مجرد مستمع . لأن مجرد الاستماع عدة جلسات كفيل بأن يقلب المستمع المتنبه الى مستمع نائم لا يحس ما حوله . لابد للمستمع من أن يتنبه ويصحو على دوره أن يتكلم وأن يضيف الى الموضوع شيئا مما قرأ هو . لذلك يحسن ألا ينفرد بالكلام فى هذه الحلقات فرد مهما كان حلو الحديث واسع الاطلاع . انها حلقة قارئين لا حلقة سامعين لمحاضر . فالمشاركة والمشاركة وحدها هى التى تجعل الكل يقرأون .

ومرة أخرى أراك تقول أيها القارىء انى أشكو من ضيق الوقت فكيف يعالج ضيق الوقت بأن أكلف بحضور جلسات وحلقات ؟ والواقع أننا لم نكلفك بشىء . كل ما فى الأمر أننا جعلنا جلساتك التى تجلسها بالفعل للاستروواح والتمتع أغنى متعة وأوفر راحة وأكثر فائدة . بقى سؤالك كما هو فيما تظن وأراك تقول لقد بدلت جلسة واحدة من جلسات الأسبوع أو الأسبوعين الى جلسة مفيدة لا فراغ فيها ولكن من أين لى الوقت لأشارك فى هذا الذى تشوقنى اليه الجلسة من قراءة .

والجواب بسيط . ان القارىء العادى يقرأ نحو ثلاثمائة كلمة ، فيما قد رصد العلماء الغربيون ، فى الدقيقة الواحدة . ومعنى ذلك أنك تستطيع أن تقرأ ثلاثة آلاف كلمة فى عشر

دقائق . فلو أنك قرأت فى اليوم الواحد عشر دقائق فقط لا غير لاستطعت فى الأسبوع أن تقرأ واحدا وعشرين ألفا من الكلمات . ومعنى هذا أنك تستطيع أن تقرأ كتابا صغيرا فى أقل من أسبوع ، وكتابا متوسطا فى أسبوعين ، وكتابا طويلا فى شهر . وهكذا تستطيع أن تقرأ حوالى عشرين كتابا فى العام من مختلف الأحجام . حتى ولو كنت تحب أن تقرأ على مهل ، أو أن تتأمل ما تقرأ ، أو تستعيد ما قرأت ان كان شعرا تعجب به . انك تستطيع على أقل تقدير أن تقرأ خمسة عشر كتابا فى العام .

يؤثر عن الطبيب العالمى المعروف السير « أوسلر » الذى كان يدرّس فى أكبر مدارس الطب فى أمريكا ، مدرسة مستشفى هوبكنز ، ويجرى جراحات عالمية الشهرة ، والذى عرف فى العالم أجمع بمؤلفاته فى الطب ، انه وضع قانونا حاسما صارما فى حياته وهو أن يقرأ فى غير مادته ربع ساعة كل يوم قبل أن يأوى الى فراشه . مهما تأخر فى العمل ومهما تأخر فى بحوثه ودراساته لابد من أن يقرأ هذه الدقائق الخمس عشرة يوميا . فاذا كان فراغه من العمل واستعداده للنوم الساعة الحادية عشرة فانه لا يضيره فى شىء أن ينام الحادية عشرة والربع . لقد شغف هذا الطبيب بالكاتب

« توماس براون » واذا هو ، بين المشتغلين بالأدب ، يعد حجة فى تآليف هذا الكاتب المشهور من كتاب القرن السابع عشر ، وتعتبر مكتبته عن هذا الكاتب أحسن مكتبة وأوفاها . يعرفها المشتغلون بالأدب الانجليزى وبنثره خاصة .

وأمثال هذا الطبيب كثيرون جدا فى أوروبا وأمريكا يرون أن التخصص يمنعهم من متع التآليف الأخرى فيكرسون جزءا من وقتهم للقراءة غير المتخصصة لتتزن شخصيتهم فى الحياة العامة .

وأشهد أنى وجدت من بعض أطبائنا ومهندسينا المصريين ميلا الى القراءة يستحق التنويه . ويكفى أن أذكر اسم الدكتور محمد كامل حسين طبيب العظام المعروف وكيف استطاع أن يجد من وقته بعد الجراحات والتدريس ما يكفى لأن يتيح له من القراءات ما يؤهله لأن يكون مؤلفا فى الأدب وحوله . فله كتاب « متنوعات » ، وهو مقالات كثيرة فى موضوعات شتى كلها تمتاز بالعمق والاطلاع وله قصته التى صدرت فى العام الماضى فأحدثت فى الوسط الأدبى دويا لا تظفر به الآثار الأدبية الا قليلا وهى « قرية ظالمة » . ولست أذكر المهندس على محمود طه فلقد ترك فنه الأصلى وخلص للشعر . ولا أذكر طائفة أخرى من كرام الأطباء يقرأون

ومنهم من يعقد حلقات وجلسات للمناقشة فى الأدب والتاريخ والعلوم ولكنهم لا يؤلفون .

وكل هذا فى نظرى اتجاه محمود سوف تنتشر تباشيره وتعم فائدته ويصبح عندنا من الوعى ما يدفع بنا قدما فى ميادين القراءة . ان كل هؤلاء فى الشرق والغرب من الذين يجدون فى العمل ما يملأ ساعات يومهم كله لا يبخلون على عقولهم ولا يقترون على نفوسهم وانما يلتفتون اليها دقائق فى اليوم أقل من التى ينفقونها فى الطعام ، طعام الجسد ، ليغذوا روحهم هو أيضا بما لابد له منه من غذاء . كم من الدقائق نقضيها فى المواصلات وكم أخرى نقضيها فى الانتظار ، انتظار دورنا فى عيادة طبيب أو مكالمة تليفون أو غيرها من الأعمال . فلو أننا نحمل كتيبا صغيرا فى جيبنا لكان لنا خير رفيق فى كل هذه الدقائق بل الساعات أحيانا . وقراءة دقائق فى مثل هذه الأوقات لا تفيد فائدة القراءة فحسب ولكنها تهون علينا ملل الانتظار فلا تثور أعصابنا لهذه الدقائق الوئيدة التى تمر فى بطء قاتل مميت . وكلنا قد رأى فى الخارج كيف يقضى ركاب السيارات العامة فترات بقائهم فيها . انهم جميعا يقرأون لا فى صحف غيرهم عبر المقاعد وانما فى صحفهم هم وكتبهم الصغيرة — كتب الجيب التى

يحملونها معهم . وبدل أن يشاركوا فى كل صغيرة وكبيرة تحدث فى السيارة، وبدل أن يتدخلوا فيما لا يعنيهم من شئون غيرهم تراهم فى حالهم يقرأون فاذا الطريق بالنسبة لمن يقرأ ولمن لا يقرأ هدوء مريح ومتعة على كل حال لا صخب فيها ولا مشادات .

ولكن هذا صوت خافت رقيق يقول « انك تتحدثين عن الوقت للقراءة وأنت سيدة بيت وتعرفين كم ذا تعمل المرأة فى الشرق حيث لا آلة فى أعمالها المنزلية . انها دائبة العمل ، فكيف بربك تجد فسحة من الوقت لتقرأ ؟ » ولكن ، لأنى سيدة بيت ، أقول لك يا سيدتى نعم لديك فسحة ، أى فسحة ، من الوقت للقراءة . ولست أحدثك عن الساعات الطوال التى تقضينها فى زيارة الأهل والجيران للمناقشة فيما قالوا وقلنا ، بل لست أحدثك عن الساعات الطوال تقضينها فى المحال التجارية تدخلين خمسة منها لشراء متر شريط يجب أن يكون باللون الفلانى بالذات والا انطبقت السماء على الأرض . انى لا أحدثك عن شىء من هذا وانما أفترض جدلا أنك أم لطفل وأنت أقل من متوسطة الحال فليس عندك من الخدم الا واحدة صغيرة تعينك فى كل شىء ولا غيرها يساعد وأفرض جدلا أيضا ألا سيدة كبيرة تقيم

معك يمكن أن تعاونك فى شئون الطفل . كل هذا أفترضه وأقول لك ، عن تجربة شخصية ، نعم لديك الوقت للقراءة بعد كل هذا لو أنك أحسنت تنظيم وقتك ، وجعلت الوقت يساعدك بدل أن يسلب منك حيويتك . فقد تستطيعين أن تنظرى الى الحياة نظرتها الصحيحة الحقة ، ان طهونا مثلا يأخذ وقتا طويلا ويضر بالصحة أيما ضرر ، فماذا لو قللت من أصناف الطعام واختصرت فى عملية الطهو . وحاولت أن توفرى من مصروفك الشهرى لتشترى ثلاجة توفر عليك الطهو كل يوم والخروج الى السوق لشراء الحاجات كل يوم . ان منها ما قسطه الشهرى فى حدود الميزانية المتوسطة بلا جدال .

ولو عرفت الحياة على حقيقتها لعرفت أن كتابا يملأ حديثك طلاوة وجاذبية ويحيى فيك شعلة الذكاء التى يجب أن تتجلى فى عينك يمكن أن يوفّر ثمنه ، لا أقول من فستان أقل ، بل من نفس ثمن الفستان . لو اخترت قماشا أرخص قروشا معدودة فى المتر . وليكن هذا الكتاب فى فن الملبس يعلمك ويدلك على انسجام الألوان مثلا أو يعطيك فكرة عن البساطة الجميلة فى أثواب الصباح أو فكرة طريفة فى كيفية استعمال أثواب العام الماضى بل الذى سبق لتحور بحيث تلائم ذوق هذا العام وهكذا . ان المسألة مسألة حسن

تصرف . وكتاب فى فن الخياطة أو حتى مجلة كمجلة حواء الجديدة أو بنت النيل يمكن أن تدلك على أبواب من الوفر فى ثيابك تمكنك قطعا من شراء كتاب .

بل ان القراءة ستجعلك تعرفين كيف تنوعين بالمعقول فى وجبات طعامك كقراءة كتب السيدة نظيرة نقولا . وستعلمك ما هو أهم ، تعلمك كيف توفرين فى وجبة الطعـام المواد اللازمة لصحة الأسرة جميعا . أراك منهمكة فى اعداد الطعام وهذا طفلك يصرخ فتتركين ما أنت فيه وتهرعين اليه فاذا هو يلعب لا أكثر ولا أقل وتعودين فاذا الطعام قد احترق واذا أنت تبدأين من جديد . ولو قد قرأت كتابا صغيرا فى علم النفس وفى كيفية معاملة الطفل ككتاب السيدة سمية فهمى أو كتابا فى صحة الطفل ، ككتاب الدكتور الديوانى أو كتاب الدكتور صبرى لعرفت أن الطفل ما دام نظيفا فى غرفة جيدة التهوية فالأفضل أن يترك وحده الى حين ويكفى أن تطمئنى عليه أحيانا أثناء العمل المنزلى ثم تعودين بسرعة الى ما أنت فيه ، ولعرفت أن البكاء للطفل نوع من مرانة الصـوت والرئتين على عملهما . وهكذا يساعدك الكتاب ويوفر عليك وقتك فى الواقع . فاذا ما كبر طفلك احتجت لكتاب فى تربيته. كم ذا يفيدك مثلا أن تقرئى كتاب أسـئلة الأطفال للآباء والأمهات تأليف محمد بدران .

وكتب الأعمال المنزلية كثيرة منوعة يكسب منها بيتك رونقا وحياة . وساعة فى الأسبوع تقضينها مع الكتاب ستدر على بيتك حتما ربح جنيهات وجنيهات . انها ستجعل بيتك أبهج وأمتع . فمن هذه الكتب ما يدلك كيف تنسقين البيت وتزخرفينه ومنها ما يدلك على بعض الهوايات المنزلية التى تجعل زوجك يهفو الى جلسة البيت بدل أن يضيع ماله على المقاهى . ومنها ما يعلمك كيف تنظفين الأدوات والثياب وترتقين القطوع وتستعملين البالى من الثياب فى شتى المنافع الأخرى وهكذا وكل هذا يوفر مالك ويبهج بيتك .

ان تربية الدواجن، اذا كان فى بيتك حديقة ، هواية واقتصاد ، وزرع الحدائق بهجة ومتعة وبعض أعمال النجارة للصبية من أبنائك هواية واقتصاد أيضا وتربية النحل ودود القز كل هذه هوايات ممتعة تجعل لبيتك الروح الذى يجب أن يسرى فيه .

وفى كل هذه الموضوعات مؤلفات ، فمثلا عندك فى تربية الدواجن كتاب الدكتور أحمد فاضل الخشن وفى تغذية الطيور المنزلية كتاب أحمد غنيم وفى تربية الأرانب كتاب لمحمد حبيب وأنور يوسف وفى النحل كتاب لعباس السيد حسين وفى نحل العسل والنحالة كتاب للدكتور عبد الخالق وفا ومثل هذه الكتب كثيرة كما ترين .

ان البيت بلا هوايات كالمستشفى أو كالسجن يهرب منه الأبناء والأزواج وتجدين العبء كله ملقى عليك : تُرين هل قلت لك ان من أهم ما يربى فى أطفالك الاعتماد على النفس والفهم الصحيح لدورهم فى الحياة أن يعملوا كل ما يمكن أن يعملوه لأنفسهم فيرتبوا ثيابهم ويصلحوا من شأن فراشهم وينظفوا أحذيتهم ويغسلوا جواربهم وينظفوا هم بأنفسهم كل ما يفسدون فيه من نظافة البيت أو نظامه ؟ انك اذا سرت وراءهم تفعلين أنت أو خادمك كل هذا لهم لخرجوا الى الحياة مائعين لا يعرفون أن العمل سر النجاح وأن الانسان الذى لا يخدم نفسه لن يجد فى المستقبل القريب من يخدمه .

كل هذا يا سيدتى يربى أبناءك خير تربية ويحبب اليهم المكث فى المنزل ، بل العمل على جعله مكانهم الأول المفضل ، وكل هذا يوفر لك أنت الوقت للقراءة التى تمدك بالأفكار الجديدة بل بالاختراعات الخفيفة أحيانا التى تضفى على أفراد أسرتك وعلى بيتك لونا من الحيوية والجمال قلما يتوافر الا للذين يفكرون وينشطون .

انك يا سيدتى رفيقة زوجك وصديقته وأم أبنائك ومرشدتهم فكيف يمكن أن تتصدى لهذا كله وأنت لا تتقنين الا ما تتقنه خادم لا أكثر ولا أقل . ان أعمال المنزل الرتيبة

التى لا روح فيها تصبح متعة شيقة اذا أنت قمت بها وأنت تفكرين فى مشروع جديد أو فكرة طريفة تحدثين بها أبناءك وزوجك وتتعاونون جميعا على تحقيقها .

بل ان أحاديث الجيران تصبح شـيقة لو أنك اجتمعت واياهم حول مشروع ، لا أقول مشروعا خيريا أو اجتماعيا ، وانما مشروعا لكن أنتن ساكنات الحى الواحد لتتعارفن وتستفدن من الجوار خير فائدة. ان علاقة الناس بجيرانهم كثيرا ماتكون سبب متعة والأكثر من ذلك أنها تكون سبب اقلاق ومضايقة وأنت وحدك تستطيعين أن تجعليها كيفما تشـائين برغبتك المتحمسة وروحك الطيبة ، ثم بقراءاتك التى توسع آفاقك .

لابد لنا بأى شكل من الأشكال من أن نوجد لأنفسنا هذه الدقائق كل يوم بانتظام . وليس هنـاك وصفة بلدية أو تعويذة سحرية يمكن أن ندل عليها تسهل لنا هذا الأمر . ان المسألة مسألة اقتناع أولا ثم رغبة ستدفعنا بعد الاعتياد الأول الى الاكثار من القراءة متى تيقنا أننا نستطيع بهذه الدقائق القليلة أن نقرأ عشرين كتابا أو نحوها فى العام(*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقال « القراءة نفسها تريك ماذا تقرأ » بقلم برنار هافلاند (J. B. Haviland) ومقـال « كيف أجـد الوقت الكافى لأقرأ » بقلم لويس شورز (L. Shores) فى فصل « اقرأ قراءة أجدى » .

القراءة المثمرة

ثم تأتى مشكلة أخرى غير مشكلة الوقت أمام الكتاب وهى مشكلة القراءة المثمرة . فكثيرون منا يشكون أنهم لا يقرأون كما يجب أن يقرأوا . فهم ينسون ما يقرأون أو هم لا يستطيعون أن يتابعوا القراءة بسبب هذا . أو هم لا يستطيعون أن يقرأوا بسرعة أو لا يستطيعون أن يركزوا اهتمامهم فيما يقرأون . وكل هذه الشكاوى لابد من أن ترجع الى أحد أمرين . اما أنها ترجع الى عيوب حقيقية تحتاج فعلا الى علاج الاخصائيين ، واما انها عيوب تأتى من مجرد اهمال التعود على طريق القراءة السليمة وهذه تكفى فيها المرانة الصحيحة لتزول .

واليك بعض ما يمكن أن يجعل القراءة أكثر فائدة وأسرع زمنا . ان أول ما يجب أن تعرفه هو أن الكاتب لا يرصف الكلمات التى تراها أمامك وأنت تقرأ مجرد رصف ، وانما كلماته تلك تعبر عن أفكار وهذه الأفكار تتسلسل تسلسلا منطقيا فى انتظام عقلى معروف . فحاول ما استطعت أن ترى طريقة تسلسل الأفكار فيما تقرأ فستجد أن كل فقرة

من فقرات الفصل تبدأ عادة بالجملة الرئيسية الأساسية التى سيدور حولها الكلام فى كل الفقرة أى فى الأسطر القليلة التالية . ان من الكتاب من يضع هذه الجملة الهامة فى آخر الفقرة ، ومنهم من يخفيها فى الوسط ، كلّ حسب أسلوبه ، ولكن الغالبية المطلقة تتبع النظام المألوف وهو أن تضع الجملة الأساسية فى الأول .

فاذا ما وضعت هذا الهدف أمام عينيك فأنت تقرأ قراءة الفاهم المدقق وقليلا قليلا تستطيع أن تلمح كلية الفكرة التى يتحدث عنها الكاتب . ثم حاول امعانا فى تركيز المرانة وتأثيرها أن تكتب مختصرا لما قرأت . فستظهر لك ساعة التلخيص الفكرة بكل خطواتها فى غاية الوضوح وسترى نفسك اذا عاودت القراءة بعد التلخيص أنك تسير على بساط من حرير لا على طريق وعر مملوء بالحجارة والحصا . مرّن نفسك على هذا النوع من القراءة مرات فسترى أنك قد ألفت تتبع خطوات الفكر وألفت أن تلمح الأهم وتغض الطرف عما ليس بهام فى الموضوع ، فاذا ما تصديت للقراءة مرة أخرى فى موضوع آخر ألفت عينك السير مع تفكيرك المنظم وتتبعك الذكى لتسلسل الفكر وتتابع الخطوات فى التفكير .

كذلك ستجد حتى فى الجملة الواحدة كلاما هاما وآخر

غير هام . ولتتضح لك هذه الحقيقة تصور أنك تريد أن تبرق لصديق بفحوى هذه الجملة بالذات من جمل الفقـرة التى تقرؤها . فستراك تحذف من الجملة كلمات كثيرة وتكتفى بكلمات قليلة . هذه الكلمات القليلة هى لباب الجملة وكل ما عداها تابع لها . خذ مثلا هذه الجمل :

« تعود أن تبحث عن الكلمات الهامة الدالة أكثر من غيرها على المعنى فى كل سـطر تقرؤه . فستجدها فى أكثر الأحيان قليلة . اذ بينما عينك تسارع عبر الأسطر المزدحمة ستجد أن عقلك يهدأ ولا يجهـد نفسه فى فهم كل كلمة على حدة ليصل الى المعنى كله » .

فهى فى جملتها خمس وأربعون كلمة . فاذا أردت أن تبرق بمحتوياتها فان برقيتك ستخرج على النحو الآتى :

« تعود أن تبحث كلمات هامة دالة أكثر على المعنى . قليلة أكثر الأحيان عينك تسارع عبر أسطر مزدحمة عقلك يهدأ لا يجد فهم كل كلمة ليصل معنى عام » .

فاذا أنت قد اختصرت الكلام الى نصفه بالفعل . ومعنى هذا أنك ، اذا مرنت على هذه القراءة التى لا تجعلك تقف الا عند الكلمات الهامة وتعبر بك سريعا على الكلمات الثانوية ، تستطيع أن تقرأ رسالة من أربعين ألف كلمة فى نصف الوقت أو أكثر قليلا لأنك فى الواقع لن تقف الا بنصف الكلمات

بينما الكلمات الأخرى تعبر عليها العين عبورا سريعا . وهذه السرعة تزداد بالمرانة وبذلك تصل الى سر من أهم أسرار القراءة السريعة التى لا يضيع الأصل فيها بسبب السرعة .

كذلك مما يساعد على سرعة القراءة أن تعود العين أن ترى دائرة أوسع فى كل مرة تواجه فيها الصفحة المطبوعة . ومعنى ذلك أن العين ترى الجملة منذ الكلمة الأولى الى الكلمة الأخيرة كلها دفعة واحدة . وتعوّد الذهن على أن يلقطها فى الحال بسرعة . وهذا لا يمكن أن يأتى الا بالمرانة — مرانة العين ومرانة متابعة الذهن للعين . والمرانة تساوى كل ما يضيع فيه من وقت . لأن الوقت الذى سيوفره الانسان فيما بعد فى قراءاته سيكون أضعاف الوقت الذى أضاعه فى المرانة مهما طال .

ولعل من أهم ما يساعد على القراءة السريعة أيضا الاقلاع عن بعض العادات الرديئة فى القراءة التى تأخذ من وقت القارىء ما لا حاجة له به . فهناك من يقرأ ويعود بعد قراءة جملتين الى الجملة الأولى لأنه ما كاد يصل الى الثالثة حتى نسى ما قرأ من الأولى . هذا الارتداد الى الوراء يضيع الوقت ولا يدل الا على أن القارىء قد تعود عادة سيئة فى طفولته . فالطبيعى ألا نعود فنكرر قراءة جملة قرأناها الا فى

الأحوال النادرة عندما نرى أنفسنا فعلا عاجزين عن أن نتابع الفكرة التى نقرأ عنها . وسبيل الاقلاع عن هذه العادة أمران : الأول أن نتعود بقدر الامكان الانتباه الى ما نقرأ بحيث نستطيع فعلا اذا واجهنا الكتاب أن ننسى كل ما حولنا وألا نفكر الا فى أن نركز اهتمامنا فى الكتاب وفى الكتاب وحده . وهذا التركيز عادة مستطاع ما لم نكن نشكو نقصا يحتاج الى علاج نفسى . والأمر الثانى هو أن نقرأ ونقرأ دون أن نعود الى الوراء أبدا الا اذا وجدنا أنفسنا فعلا قد أضعنا كل الفكرة . فأكثر الذين يعودون الى الوراء فى قراءتهم يفعلون ذلك من باب التردد وطلبا للمزيد من الوثوق مما قرأوا . انه نوع من الوسوسة كما يقول العامة يغذيه وينميه أن نستمر فيه ويقتله ويشفينا منه أن نتجاهله وأن نستمر فى تجاهله ، فاذا نحن قد كوّنا لأنفسنا عادة أخرى ، هى عادة الثقة والتثبت من أننا نفهم ما نقرأ فلا داعى للتشكك لأن الطبيعى أن نفهم ولأن الظروف العادية تؤدى حتما الى أن نفهم كل ما نقرأ .

ولكن بعض القراءات تدعو الى التأمل والتريث واستعادة ما قرأنا ، لأن الأفكار فيها عميقة أو لأن الصياغة فيها جميلة . فالقارىء يستعذب أن يردد ما قرأ كما يحدث ذلك فى قراءة الشعر. وهذه القراءة البطيئة للعميق من الأفكار والجميل من

الصياغات لها فوائدها العظيمة فهى التى تجعل القارىء العادى متأملا له رأى ، وهى التى تجعل منه ذواقة له فن ومذهب . فلنقرأ فى سرعة الكتب الخفيفة المسلية التى لا تمتاز بعمق ولا صياغة مخصوصة . ولنقرأ فى بطء وتأمل وهوادة ما يحتاج الى كل هذا من التآليف فكلتا القراءتين لازمة لتكوين شخصيتنا وتوسيع آفاقها .

ومما يكسب قراءتنا فائدة وقوة تأثير أن نتعود أول الأمر القراءة بصوت عال أحيانا . فلقد لوحظ أن الذين يقرأون جيدا بصوت عال أقدر على فهم ما يقرأون ممن لا يحسنون القراءة على هذا النحو. ذلك أنهم فى مثل هذه القراءة يمرنون على أن يقسموا الكلام حسب معناه فى أدائهم الصوتى فيرفعوا الصوت أو يخفتوه حسبما يملى المعنى، وفى هذا تعود" على لمح المعنى بدقة فى سرعة . فاذا ما مرنا بقدر كاف على هذه القراءة يحسن ألا نقرأ بصوت عال ولا مهموس بعد ذلك ، بل يحسن ألا نحرك شفاهنا حسب جرس الكلمات لأن مثل هذه القراءة تستتبع البطء وتعوق كثيرا عن السير السريع . لأن القراءة السريعة لا يمكن الا أن تكون بالعين وحدها . وما القراءة بصوت عال الا نوع من المرانة نلجأ اليه فترة معينة لنتعود سرعة لمح المعنى ثم نمضى فى القراءة الصامتة السريعة .

أما اذا كنا نشكو عيبا واضحا فى القــراءة فيحسن أن نستشير مختصا ممن نصّبوا أنفسهم لهذه المهمة . ولما كانت هذه المهمة لا تعرف فى الواقع فى مجتمعنا بعد ولما كنا فى أشد الحاجة اليها ، لذلك يحسن أن نلم بها لنعرف كم ذا يمكن أن تؤدى الينا من خدمات لعلنا نعمل شيئا فى سبيل ادخالها فى مصر وخاصة بالنسبة للصبية فى مراحل التعليم الأولى . ان الاخصائيين فى معالجة عيــوب القراءة يوجدون فى الغرب وخاصــة فى أمريكا اما فى المدارس واما فى المراكز التابعة للمكتبات العامة — مكتبات البلدية والأحياء حيا حيا .

واخصائيو المدارس يهتمون كثيرا بألا يعالجوا الصبى من عيوب القراءة بعد ساعات الدرس لأن معنى ذلك أن الصبى يعاقب بالبقاء بعيدا عن صحبه ولهوه ساعة من نهار بينما نحن لا نريد عقابه وانما نسعى لشفائه . وفى هذه المدارس توجد عادة ساعة من ساعات الدرس تسمى ساعة تشجيع القراءة . وبينما يشترك التلاميذ العاديون فيما يثار لهم من موضوعات حول ما يقرأون ليتشجعوا على القراءة ويمرنوا عليها يؤخذ الصبى الذى يشكو العيب الى عيادة الاخصائى للمعالجة .

وأول ما يجرى عليه من بحوث هى البحوث الطبيــة

ليرى ان كان بنظره أو بسمعه عيب عضوى أو ان كان فى ذكائه عيب طبى فاذا تبين أن الصبى سليم البصر أو احتاج الى نظارات وعملت له وانه طبيعى السمع عادى الذكاء ، أدخل شبه معمل لترصد قدرته الحالية على القراءة رصدا علميا حتى تقارن علميا بما يجب أن تكون عليه .

وأول تجربة يخضع لها هى تجربة الكلمات أو الجمل الخاطفة وذلك أنه بوساطة آلة معينة تظهر أمام عينى الصبى كلمات عشر أو أكثر كل واحدة وراء الأخرى بسرعة خاطفة بحيث تختفى الأولى ساعة ظهور الثانية . وكذلك الجمل . ثم يطلب الى الصبى بعد عدة كلمات أن يقول ما يذكر منها وبعد عدة جمل أن يكتب ما يتذكر منها أو ما قد فهمه . وهذه التجربة تجربة الكلمات والجمل الخاطفة تدوم عدة مرات لأن الصبى يُطالب فى كل مرة أن يتذكر أكثر عددا ، وأن يفهم من الجمل أدق فهما .

وفى كل مرة يشجع الصبى تشجيعات مختلفة وما دام ذكاؤه عاديا فانه حتما سيتقدم ولكنه محتاج فى كل خطوة الى كثير جدا من التشجيع . ان الأمل الخافت الضعيف الذى كان يراوده من أنه سيصبح كالزملاء عاديا قد تحقق شىء منه

وهو يحب من الممرن أن يؤكد له أنه تحقق حتى يستمر فى بذل المجهود الممتع فلا يحس أنه يؤدى واجبا بغيضا .

ثم يقرىء الممرن الصبى كتابا بصوت عال وأثر كل فقرة يقف معه ليرى كم فهم . وهو يحرص باستمرار اذا ما دل صوته وهو يقرأ على أنه لا يفهم ، أن يوقفه ليجعله يعيد القراءة ، قراءة الفاهم لما فى الجملة من معنى . ثم يحدث الصبى ممرّنه بكل ما فهم من الفقرة التى قرأها ويحاول الممرن أن يجعله يميز أبدا بين الهام والتافه ، بين الهام والأهم، التافه والأتفه ، وبعد عدة جلسات يمرنه على القراءة الصامتة ويفعل معه من حيث التأكد من وصول المعنى الى ذهنه ما كان يفعله فى القراءة التى كان يجهر بها . وبعد عدة جلسات يكلفه بقراءة جزء من كتاب — فصل أو باب وحده فى البيت ثم يغدو يفعل معه ما فعل من حيث التأكد من وصول المعنى .

والممرّن يسير مع الصبى فى كل فج وصقع . يترك فى الحال ما يحس أن الصبى لا يقبل عليه ويحاول أن يقدم له ما يمكن أن يقبل عليه . انه يعامله معاملة المريض الناقه الذى لم يسترد بعد شهيته كاملة ولكن لابد له من الغذاء لتتم نقاهته . ومتى استطاع الصبى أن ينجح بعض النجاح فان الممرن يعود به أثر كل جلسة الى الفصل مع سائر الزملاء

ليثنى عليه وليجعل المعلم يشترك معه فى الثناء والاطراء العلنى فان هذا أكثر ما يكسب الصبى ثقته بنفسه . وقليلا قليلا يربطه الممرن بالفصل وبالعلم وقليلا قليلا يتركه وقد انتهت مهمته وديعة فى يد المعلم لتتم على يديه الخطوة الأخيرة خطوة المشاركة مع المجموع بنفس الحماسة لأنه تأكد من أن لديه نفس الفرص ونفس المؤهلات . لقد شفى الصبى من عيوب القراءة النفسية وربما العضوية أيضا واذا هو كسائر الصبيان وقد يصبح فى يوم من الأيام أحسنهم .

هذا بعض ما تعمله هذه الأمم لتنمية حب القراءة فى نفوس التلاميذ فى هذه السن المبكرة التى يعرفون قدر ما يتأصل فيها من عادات وأثرها فى الحياة كلها فيما بعد . انهم لا يكتفون بمكتبة يديرها غير اخصائى ولا يكتفون بأن يلقن الصبى ما فى الكتب المقررة وانما القراءة حول المقررات بل بعيدا عنها أيضا جزء هام جدا من التعليم فى هذه السن . ان القراءة الخارجية مادة أساسية من مواد الدرس . وهى وحدها التى تميز التلميذ عن زميله فى مرحلة الصبا . لأنها هى وحدها التى ستميزه فعلا اذا ما صار طالبا جامعيا ثم انسانا فى مجتمع راق .

والمعلم فى هذه الدروس دروس القراءة والتعويد عليها

لا يقرىء الصبية كتابا كيفما اتفق وانما له كل الحرية فى أن يقرئهم ما يريدون هم . وله كل الحرية فى أن يوجّه قراءاتهم نحو ما يرى هو أنه مشوّق بالنسبة اليهم . ولعل أهم ما فى مهمته هو أن يوجد عندهم هـذا الشـوق الى القراءة وألا يخدعهم عن هذا الشوق فيفخم من أمره أو يزدريه . ان القراءة ليست كالحياة ولا يمكن أن تحل محلها . ان أروع رحلة وصفت فى كتاب لا يمكن أن نتمتع بها تمتعنا برحلة حقيقية مثلها . ولكن الحياة محدودة والزمن الذى نعيشه قصير فما ضر لو أننا تمتعنا بالحياة ثم بالكتب أيضا . ان الكتب لا تغنى عن الحياة ولكنها توسع دائرتها وتضيف الى تجاربها الحقيقية تجارب من نوع آخر ولكنها تجارب على كل حال . تجارب هى عصارة ذهن كاتب أو مؤلف أراد أن يعجبك وأن يتقرب اليك وأن تحبه لأنه أحب الانسانية فأحبك فيها .

وقد يفجؤك التلميذ بقوله : « أف ما أثقل القراءة » . فلا تأس أيها المعلم ان هذا التلميذ نفسه يستقبل الحياة كلها بنفس هذا الروح انه يرى الحياة كلها ثقيلة فكيف لا يجد القراءة كذلك . انه قبل أن يحتاج الى تصحيح نظرته نحو القراءة ، يحتاج الى أن تصحح نظرته نحو الحياة كلها .

وعلاجه فى عيادة نفسية قبل أن يكون فى درسك للتشويق الى القراءة . لقد عُود عادات سيئة نحو الحياة ، وهــذه العادات يجب أن تستبدل بغيرها . أما الصبى العادى فهو فى هذه السن مملوء بالأسئلة تكاد تفيض منه فتنزل كالوابل من بين شفتيه . انه يريد أن يعرف الكثير عن كل هذا الذى حوله . والصبى يحب أن تحدثه أنت وترد على أسئلته . انه يجد فى الانسان يتكلم صــورة أحب الى نفسه لأنه يستطيع أن يناقشها وأن يستعيدها ما لم يفهم ولكنه أمام الصفحة المكتوبة لابد من أن يبذل مجهــودا ، لأنه يترك المؤلف يتحــدث كيفما يشاء هو لا كيفما يريد الصبى . ولكن اذا قربنــا اليه المؤلف وعرفناه شيئا مشوقا محببا عنه فانه يتقبل هــذا الجهد بشىء من الاستعداد لبذله . ان هذا المؤلف يريد أن يجيب على سؤالى كيفما يشاء هو ولكنه مؤلف طيب القلب بذل من نفسه ومن وقته الكثير ليجيبنى على سؤالى ، انه يمد الىّ يده فلماذا لا أمد اليه يدا تصافحه وربما تشكره أيضا .

وهكذا يقبل الصبى بدافع غريزى هو حب الاستطلاع . وتعبيد للطريق من المعلم هو التعريف بالكتاب أو المؤلف أو ظروف التأليف أو طبيعة المادة التى ستقرأ . ان الكتاب فى أحيان كثيرة يكسب المميزات الطيبة من قارئيه لا من مؤلفيه.

ذلك أن قارئا يقبل عليه مهتما شغوفا ملتذا فيرتاح للكتاب ويعجبه ثم يشتد اعجابه به واذا هو قد روّج لهذا الكتاب فأحاطه بهالة من الاستلطاف تيسر مدخله لدى القراء .

ومهمة المعلم فى التشويق الى القراءة لا تقف عند حد وضع الكتاب فى يد الصبى ولكنها تتعدى الى ما بعد ذلك مراحل . فالصبى يجب أن يعوّد مثلا ألا يفكر الا فيما يقرأ فيه . وهو ما لم يكن يشكو عيبا نفسيا أو عضويا يستطيع بوساطة المعلم وحده أن يصل الى هذا الشرط الأساسى فى القراءة — شرط تركيز التفكير والانتباه فيما يقرأ بالفعل .

كذلك مما يسهل عليه الأمر أن يدل أولا على الغاية التى سيصل اليها من هذا الكتاب فيعرف سلفا مثلا هل هو يقرأ كتابه ليستمد منه معلومات جديدة مشوقة أو غير مشوقة ، أو ليحس احساسات جديدة لذيذة أو عجيبة ، أو ليقتنع برأى فى موضوع بعينه لا يعرف الصواب فيه ، أو هو فيه مقتنع بعكس ما يجب أن يقتنع به .

والمعلم فى هذه الساعات القيمة من حياة الصبى يستطيع أن يوائم بين ميول الصبى وبين ما يشجعه عليه من قراءة ، مواءمة لا ترضى الصبى فحسب وانما المواءمة التى تفيده أيضا فى مستقبله . فقد يكون الصبى يميل الى قراءة الكتب

العاطفية ميلا قويا وهنا يجد المعلم نفسه منساقا الى مده بمثل هذه الكتب ولكنه يحرص فى الوقت نفسه على اختيار الكتب التى تزن العواطف ولا تمرئها . ويحرص أيضا على أن ينوّع ميل الصبى بحيث لا ينحرف بقوة نحو شىء واحد دون سائر الأشياء فيستثير فيه التفكير والنقاش حول مسألة حية من مسائل الحياة من حوله : حول نظام الحكم مثلا اذا كان فى سن تسمح له بفهم أوليات هذا الموضوع ثم يحاول أن يجعله يتعصب لرأى ، ثم يقرئه كتابا يرى رأيا مخالفا فتراه يلذ بمتابعة النقاش فيقرأ كتابا فى الاقناع الى جانب كتابين فى العواطف والأحاسيس والتجارب . ثم يحاول أن يجعله يهتم بحيوان أو نبات أو ظاهرة طبيعية ويتخذ كتابا شائقا فى هذا يقرئه اياه فيقرأ كتابا آخر أيضا فى غير الموضوعات العاطفية . وهكذا تتزن ميول الطفل ويمرن على القراءة اللذيذة والمفيدة معا .

وعلى المعلم يقع عبء المناقشة حول الكتاب فى الدرس وكيف تدار ، وعليه يقع عبء تعويد هذه المجموعة (التى يجب ألا تزيد على العشرين بحال من الأحوال ويحسن أن تكون حول العشرة) كيف يمكن أن تناقش وأن تفهم وأن تعبر وأن تقرأ فى انتباه تام وفهم ذكى وادراك شامل .

ان هذا هو ما يمكن أن نبدأ به فى مدارسنا . ساعة للقراءة كل أسبوع على الأقل يختار لها معلم مقبل على هذا النوع من الدرس مستعد له يعاونه ويعاون غيره من المعلمين فى المدرسة الواحدة اخصائى فى فن المكتبات يستطيع أن يلبى طلباتهم وأن يرشد خطاهم فى هذه الميادين الفائرة المملوءة بالتآليف لينتقى معهم الكتب خير انتقاء وليعاون الصبية ساعة يدخلون المكتبة على أن يجدوا هم ما يريدون . ولكن للمكتبات حديثا آخر (*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقال « كيف تقرأ قراءة مثمرة » . بقلم بول ليدى (P. D. Leedy) . ومقال « معلم ينظر الى القراءة » بقلم ا . ب . هر . ومقال « نفسانى يعاون صبيا » بقلم ت . س . كراويك (Krawiec) من الفصل « اقرأ قراءة أجدى » . ثم أخذت مجرد الفكرة من مقال « القراءة بصوت عال تحيى الافكار » . بقلم ادوارد لندمان (E. Lindeman.) من الفصل « القراء مع الاصدقاء » .

ماذا نقرأ

آفاق التأليف من حولنا ـ (الكتب تستشرف العلا) :

ان ميادين التأليف واسعة متعددة . تأليف عن الأرض والسماء والبحر والجو وجوف الأرض وما على الأرض من نبات وحيوان وانسان وما فى الجو من طيور وما فى جوف البحر من أسماك وأصداف. كل هذه موضوعات وموضوعات ثم يأتى عامل التاريخ والزمن فاذا هذه الموضوعات تتضاعف وتكثر ولا يكاد يلم بها حصر . فأين نحن من كل هذا الخضم الواسع العريض من التأليف وكيف يمكن أن نهتدى فيه الى شىء نقرؤه . ان تحديد ميادين التخصص المهنى تعين على اختيار القراءة المتخصصة . ولكن القراءة للثقافة العامة لا يحدها حد ولا يمكن لانسان مهما يكن عنده من الوقت ومهما يكن لديه من الجلد على القراءة أن يقرأ كل هذه التآليف . بل أن يقرأ الحديث منها فحسب ، ففى كل يوم تخرج المطابع فى مشارق الأرض ومغاربها كتبا وكتبا فى شتى

المناحى . والترجمة قد نشطت فى أغلب البلاد فاذا الكتاب يصدر بلغة فما يكاد يقابل بالتقدير حتى تصدر ترجمته فى اللغات الأخرى بسرعة عجيبة . والأمم الحية ترصد الأموال الطائلة لهذه الترجمات لأنها تعرف أن أمة مهما يكن مبلغ الرقى الذى وصلت اليه اليوم لا تستطيع أن تكتفى بما عندها من ألوان الثقافة وانما لابد لها أبدا من هذا الدم الجديد يأتيها من البلدان الأخرى ليوسع مدركاتها ويرحب آفاقها ويجعل نظرتها الى الحياة أشمل وأعمق .

ولقد ترابط العالم فى هذا العصر ترابطا لم يعهده من قبل وهذا الترابط يقتضى ولا شك أن نعرف الكثير عن الكثيرين من جيراننا وعن أحوالهم . وهذا ما يضيف الى قائمة المؤلفات عشرات بل مئات أحيانا فى العام فاذا الميدان يتسع حتى يظن ألا نهاية له .

وليس من السهل أن نقول للقارىء اذهب الى أقرب مكتبة وتفحص فهرسها فستجد بغيتك من الكتب كما تشاء ولكنا نحاول أن نعين فى ذلك . فخلق الرغبة للذهاب الى المكتبة حتى تصبح عادة يستغنى بها القارىء عمن يدله لابد أن يسبقها رسم المعالم العامة التى يجول فيها التأليف وتبيان بعض المصادر العامة التى ترشد الى القراءة المفيدة .

أنا وخالق فى الكتب الدينية

من أكثر الكتب فائدة وأمتعها قراءة الكتب الدينية وان كنا نصدف عن قراءتها كثيرا فى هذه الأيام التى تدفع بنا الى ألوان من النشاط الدنيوى يلهينا عن أنفسنا وعن التطلع الى ما هو أسمى من الحياة اليومية الرتيبة .

وقراءة الكتب الدينية تحتاج الى مرانة ليجد القارىء فيها المتعة الحقيقية ، وهى تحتاج أبدا الى أن تربط بحياتنا وأن تفسر فى ضوء شامل بحيث يشمل حياتنا وينسجم معها . ولقد أخذت لغة هذه الكتب تبعد عنا بسبب هجرنا الجوامع والكنائس بوجه عام . ولكن نظرة واحدة صائبة الى هذه الكتب تدلنا بأقوى دليل على أن هذه النصوص يمكن أن تحيا ، وأن تؤثر فى حياتنا وأن تملأ نفسنا غبطة وأن تفتح آفاق الحياة من حولنا بأوسع ما يمكن أن تنفتح .

ان نصوص هذه الكتب السماوية نصوص مقدسة قصد بها الى هداية البشر فى أى زمان وأى مكان فلنقبل على قراء جزء من كتابنا السماوى كل يوم ففى هذه القراءة لبضع دقائق ، زاد" لسائر اليوم كله ، وفيها وحى يجعلنا نفهم

الحياة ومن فيها وكل ما فيها فهما أعمق وأوضح مما يغنى حياتنا فعلا بشتى العواطف السامية .

ولا أعرف كتابا فى العالم درس وكتبت حوله البحوث بقدر ما درس القرآن الكريم وكتب حوله . فالقرآن كتاب الله ومعجزته التى فاخر بها رسوله (ص) العالمين . ونشأت الثقافة الاسلامية أول أمرها كلها حول هذا الكتاب الذى نظر اليه المسلمون حتى بعد أن انتشروا فى الأرض على أنه مجموع معارفهم ودليلهم فى الحياتين حياة الدنيا وحياة الآخرة .

ذلك أن الدين الاسلامى ليس دينا ينظم علاقة الفرد بخالقه فحسب ولكنه ينظم علاقة الفرد بجيرانه فى الحياة ، علاقته بأهله وبمن يعاملهم من الناس ، فاتخذه لذلك المسلمون دستورا حيا يرددون نصوصه مرّات فى اليوم الواحد لكثرة ما يتعرضون الى الاستشهاد بأحكامه فى حياتهم اليومية .

وقراءة القرآن الكريم لمجرد المتعة الفنية من أقوم القراءات وأنفعها . ذلك أنه ينفرد بأسلوب معجز . وقد ألفت الكتب فى سر اعجازه ، ولما يصل بعد باحث الى السر فى هذا الاعجاز . ولكن أكثرنا يجد النص صعبا فتصرفه هذه

الصعوبة أحيانا عن متابعة القراءة . ولكن الدافع الدينى يدفع بالكثير منا الى متابعة القراءة بوساطة بعض التفاسير . وتفاسير القرآن عديدة كثيرة منوعة منها ما يعنى بالناحية البلاغية المحضة مثل تفسير الزمخشرى ومنها ما يعنى بالناحية القصصية والروايات حول ظروف الآى وحكمتها مثل تفسير الطبرى . ولكن هذه التفاسير قديمة مطولة . وهناك تفسير حديث للمرحوم فريد وجدى سهل التناول حسن الترتيب ومن أشهر التفاسير المختصرة التى عنيت دار الكتب بطبعها مع المصحف طبعة أنيقة حديثة تفسير الجلالين جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى .

كذلك كتبت دراسات حول القرآن قيمة ممتعة منها ما يدور حول بعض موضوعاته كأن يدور حول القصص فيه . ولقد جمع بعض المؤلفين قصص الأنبياء من القرآن فى كتاب مستقل . كما فعلوا ذلك فى الانجيل والتوراة فى اللغات الأخرى .

كذلك تدور بحوث كثيرة حول ماهية الدين الاسلامى نفسه وفى هذا استفاضت التآليف قديما وحديثا . ولعل القديم منها ليس فى متناول القارىء العادى ولكن الحديث منها فيه العلمى المحض وفيه ما يمكن للقارىء أن يتابعه دون

كبير عناء . ولما كان الاسلام منتشرا من مراكش الى الصين فان المؤلفين فيه من شتى هذه البلدان كثيرون . وكذلك نجد المستشرقين يؤلفون كثيرا فى ماهية الاسلام وعلاقته بالنظم العالمية المعروفة .

ولعله مما يلذ لنا أن نرى وجهة نظر الاسلام فى بعض هذه النظم العالمية فكتاب عباس محمود العقاد مثلا عن « الديمقراطية فى الاسلام » يكشف لنا الكثير عن هذا النوع من الديمقراطية الذى عرفه الاسلام ، قبل أن توجد الأمم التى تتمتع بمزاياها وتدافع عنها لأنها جاهدت فى سبيل الظفر بها . ولعل المسلمين من أحق شعوب الأرض بالدفاع عن الديمقراطية وبالتقبل للتضحية فى سبيلها . وهذا كتاب مولاى محمد على عن « الاســلام والنظام العالمى الجديد » الذى ترجمه الى العربية أحمد جودة السحار يرينا بعض هــذه الحقائق . وعندنا كتاب محمد الغزالى فى « الاسلام والنظم الاشتراكية » وكتاب الجندى عن « الاسلام والاستعمار » .

كذلك نرى فى الاسلام كما نرى فى سائر الأديان دراسات لبعض العبادات . ولما كانت الصلاة أكثر هذه العبادات اتصالا بحياتنا اليومية فلقد كثر التأليف حولهــا ، فهــذا

كتاب للقس داى عن الصلاة أسماه « ترجمة حياة الصلاة » وقد نشرته له دار هارپر . وفى الاسلام عندنا الكتاب الأشهر ، كتاب الامام ابن حنبل الذى حققه ونشره البهى الخولى ، كما أن عندنا كتاب الصيام فى الاسلام للشيخ محمد محمود.

وتصدى بعض المؤلفين المحدثين لبعض مشاكل حياتنا الاجتماعية فى الشرق الاسلامى وحاول أن يعالجها بروح اسلامى سمح جديد كما فعل خالد محمد خالد فى كتابه « من هنا نبدأ » ، أو كتابه « لكى لا تحرثوا فى البحر » . كما حاول بعضهم أن يبين نظر الاسلام فى بعض جزئيات هذه المشاكل مشاكل المجتمع الاسلامى اليوم فكتب مثلا كتابا فى حقوق المرأة فى الاسلام كما فعل عبد القادر الحمد ، حتى تعرف المرأة ما لها وما عليها اسلاما أمام هذه التيارات العنيفة التى تأتينا من الغرب وفيها ما ينفع كثيرا ولكن فيها أيضا ما يضر .

وكل هذه المؤلفات تجعل النص القرآنى أو الدينى بعامة يتبوأ مركزه فى حياتنا ويزيل ما قد علق بالأذهان من ترهات حول هذه النصوص اذا لم تفهم حق فهمها لقدمها . واذا نحن بعد قراءة القرآن الكريم أو التوراة أو الانجيل نرى

متعا جديدة تضيف الى تأملاتنا آفاقا جديدة والى احساسنا الدينى جلالا وعمقا .

ان الكتب السماوية جميعها لم تنزل لقوم بعينهم ، للعرب فى الصحراء مثلا ، وانما هى نزلت للعالمين فى كل زمان ومكان . لذلك لابد لكل جيل من الأجيال أن يقف أمام هذه النصوص الدينية الكريمة ويسجل ما تمليه عليه من خصوبة المعانى وعمق ادراك الحياة . ان كتب الدين لا تفتأ تنبهنا الى الحياة من حولنا الى سمائها وأرضها وناسها وحيوانها . انها نصوص عالقة بصميم الحياة والحياة عالقة بها .

وكثيرا ما نذكر بعض كلمات الآى الكريم وننسى سائرها ونقع فى ورطة لأننا لا نعرف كيف نجد الآية الكريمة . وهناك دليل صغير سهل الاستعمال اسمه « فتح الرحمن لطالب آى القرآن » ألفه على نسق معجم فلوجل المعروف السيد فيض الله المقدسى . وهو فهرس أبجدى للكلم ، وذكر الآيات ومواضعها التى وردت فيها كلمة بعينها .

والكتب السماوية كلها تؤدى غايات لا يمكن الاستغناء عنها فى الحياة . انها الكتب التى لا تفتأ تحدثنا عن أهم ما نفكر فيه فى الحياة ، عن أنفسنا وعن خالقنا . ونصوصها

لكثرة ما تتداولها الألسن قد اكتسبت حلاوة خاصة لها أثرها فى النفس . يؤثر عن أبى العلاء المعرى انه قال فى رواية غير ثابتة تاريخا وان كانت لها دلالتها عن كتابه « الفصول والغايات » اصبروا عليه أربعمائة عام تتلوه الشفاه فى المحاريب لتكون لآياته حلاوة كحلاوة القرآن . يريد بذلك أن يقول ان التكرار يكسب النص حلاوة وهذه الحلاوة تكسب النص أنواعا من الدلالات جديدة .

ان هذه الكتب لا تعين على تهذيب النفس وتربية النشء فحسب ولكنها تنمى الذوق الفنى وتساعد على انبثاق الملكات الفنية والأدبية .

ولقد عاشت هذه الكتب جميعا حياتها وأثرت فى تاريخ البشرية آثارا واضحة . فامتلأت المكتبات من المؤلفات حول هؤلاء الذين عاصروا هذه الكتب وأسهموا فى اذاعتها ونشر الدعوة التى تدعو اليها . فألفت كتب كثيرة حول سيرة سيد المرسلين وحول الصحابة والمجاهدين والتابعين . كما ألفت عشرات الكتب فى سيرة السيد المسيح والحواريين والشهداء والأبطال فى حروب المسيحية ضد الوثنية .

ولقد أصدر العقاد سلسلة من الكتب بعنوان «عبقرية..» . أصدر عبقرية محمد والصديق وعمر وخالد . وألف طه

حسين مؤلفا يمتاز بانسانية المنهج التاريخى وفنية البحث العلمى حول فتنة عثمان . والجزء الثانى منه أصدره باسم « على وبنوه » . فسجل مأساة تفرق العالم الاسلامى وما كاد يجتمع بأروع بيان . وللأستاذ عبد الحميد العبادى المؤرخ الاسلامى الأشـــهر كتاب ممتع عنوانه « صور من التاريخ الاسلامى » . ودار المعارف تنشر سلسلة عن قصص الأنبياء للشباب بدأتها بسيدنا آدم وأظنها وصلت الى سيدنا أيوب وما تزال تنشرها تباعا .

وتاريخ الأديان مملوء بالمواقف المثـــيرة والشخصيات الموحية . وتاريخ الاسلام بنوع خاص لتأخر زمانه يزخر بهذه الشخصيات والمواقف فلقد امتد به الزمان واتسعت رقعة دولته شرقا وغربا بحيث أصبح من العسير أن ندل على خير هـــذه المؤلفات ما لم نحدد الموضوع لاتساع ميدان التأليف . وكذلك آلفت الكتب حـــول المصلحين فى هذه الأديان فكلما امتد الزمان احتاج الدين الى من ينفض الغبار عن أعين المؤمنين به ليروا حقيقته . فألفت الكتب فى تعاليم لوثر كما ألفت حول اصلاح الشيخ محمد عبده الدينى .

وأما الحضارة التى استتبعتها تلك الأديان فلقد ألف فيها أيضا شرقيون وغربيون ، فكتاب المستشرق متز الذى ترجمه

عبد الهادى أبو ريده ، ككتاب المستشرق بارتولد الذى ترجمه حمزة طاهر ، كلاهما عن الحضارة الاسلامية بقلم مستشرقين . ولكن هذه الكتب علمية اضطررنا الى الاشارة اليها لافتقار الميدان من الكتاب المبسط عن حضارة الاسلام بل عن حضارة المسيحية أو اليهودية أيضا . بل ان فى لغتنا العربية لا نكاد نجد حتى الكتاب العلمى عن حضارة المسيحية أو اليهودية .

وكذلك الفنون والعلوم لهـا مؤلفات علمية فى لغتنا عن الاسلام وأثره فيها ولكنها كلها وقد نشأت من فيض القرآن الكريم بعيدة عن يد القارىء العادى . ولقد أخرجت مؤسسة فرانكلين كتاب الفنون الاسلامية لديماند ترجمة أحمد محمد عيسى .

والى جانب القرآن الكريم كتب دينية أخرى ككتب الأحاديث والسير والتاريخ الاسلامى وكلها تحيا بالقراءة الواعية والتقبل الصحيح لما فى نصوصها من فائدة فعلية فى حياتنا . اننا نحيا بأجسادنا وأرواحنا وهذه الكتب كلها فى كل الأديان تتحدث عن علاقة روحنا بالعالم الذى نعيش فيه وبالبارىء الذى خلق الكون فأبدع . ولكن الانسان أروع ما خلق وسيظل بالنسبة الينا على الأقل أهم ما قد خلق

فالحديث عنه وعن علاقته بخالقه دائما مشوق جذاب . وتطور الأديان وما نشأ حولها من حضارات سيظل أبدا من أروع أجزاء التاريخ وأمتعها (*) .

(*) بنى هـــذا الفصل على مقالى فولتين أورسلر (Fulton Oursler) وكينث ملر (K. D. Miller) . فى الفصـــل « الكتب تستشرف العلا » .

أنا ووطنى فى الكتب عن بلادى

واذا ما غضضت البصر ونظرت الى الأرض وجدتنى أعيش على أرض حبيبة الىّ هى جزء من كيانى لأن مناخها أوجد لى مزاجى وبعض خصائصى . وربما كان هو السبب فى وجود بعض ملامحى على هذا النحو فما عامل الجنس فى الواقع الا نتيجة تراكم الأثر الجغرافى المناخى .

هذه هى مصر قطعة الأرض التى أسميناها كنانة الله فى أرضه بريفها ومدنها وساكنيها وتاريخهم . انها بكل هذا كانت موضوعا شيقا للتآليف الكثيرة . وكذلك وطنك أنت أيها القارىء أينما كنت ستجد له أدبه الخاص به ، تأليفاً يدور حول جغرافيته وآخر حول نباته وثالثا حول حيوانه ورابعا حول تاريخ كل هذا وتتابع الزمان عليه . ثم جيرانك أيضا أيها القارىء وعلاقتك بهم موضوع أىّ موضـوع للتأليف الكثير .

ان هؤلاء الذين ألفوا فى كل هذا لم يكونوا يريدون بتأليفهم أحدا غيرى أو غيرك . ان أعظم الكتاب لم يكن

يؤلف للأدباء أو للنقاد فى أبراجهم العاجية أو للانسانية أو للفضيلة بعامة وانما كان يؤلف لى أنا ولك أنت . ان شكسبير نفسه لم يؤلف للانسانية ولا للمجامع الأدبية ولا للسادة العظماء وانما كان يؤلف لرواد مسرحه من العمال والكادحين وأبناء الطبقة الوسطى والسفلى أو الدنيا والعليا معا . ان هومير لم يكن يغنى الياذته للسادة وانما كان يغنيها للسائرين فى شوارع سميرنا ، للحفاة والسامرين على مقاهى البلدة الشعبية والكادحين . انه كان يغنى هؤلاء قبل أن تنفرد الأرستقراطية بقراءة شعره فى هذه القرون التى نعيشها نحن. وكذلك مؤلفوها اليوم انهم يؤلفون لى ولك وينتظرون منى ومنك أن نشاركهم احساسهم أو نقتنع بفكرتهم أو نتلقى فى سرور ما يعلمونا به من حقائق .

لذلك لما حكمت مصر طبقة غريبة عنها لم تصور قصورها وقلاعها فى الأدب ، وانما الذى صور هو ريف مصر وفلاحوها ، والأحياء البلدية وعمالها وأبناء الشارع والسائرون فيه . ان هؤلاء جميعا لأنهم قريبون منا هم موضوع التأليف قبل أى شىء آخر ، لذلك نرى القصص يدور حولهم والبحث يدور فى مشاكلهم والتوجيه يراد لهم والاقناع يستهدف عقولهم : ان ثقافة أية أمة مهما تكن كثقافتنا المصرية من نبع الشعب ولها من العيوب والمحاسن

ما لهذا الشعب فى حالته الراهنة من عيوب ومحاسن . ان الكتب قد تطبع فى العواصم الكبرى ولكنها تكتب فى الأحياء الصغيرة والبيوت العادية والبلدان الريفية البسيطة . ان ثقافتنا هى حاضرنا وماضينا ومستقبلنا كله فى حلقات متتابعة متضافرة لا تفصم عراها . انها تاريخ الحياة ، حياتى وحياتك وحياة أجدادى وأجدادك وحياة أبنائى وأبنائك على هذه الرقعة الحبيبة من الأرض .

ولعل أهم ما قد شغل التأليف فى مصر هو حياة الريف وأبناؤه ومشاكلهم والموضوعات التى تعنيهم . ذلك أنهم هم السواد الأعظم من أبناء هذه الأمة . أنظر الى الرواية عندنا مثلا قصة زينب لهيكل مناظرها الريف ، قصة ابراهيم الكاتب للمازنى مناظرها الريف ، دعاء الكروان لطه حسين وجزء من الأيام له أيضا والمعذبون فى الأرض آخر ما أخرج من قصص كله حول الريف ، والعقاد يكتب عن بلده أسوان فيضع مناظر قصصه هناك . وليس هذا عجيبا فان للريف سحره حتى فى البلاد التى يكون الريفيون فيها أقلية فى عدد السكان . انه موضوع أكسبه الشعر رونقا خاصا وحمّله طاقات من الوحى قوية بحيث أصبح فعلا يوحى بأكثر مما توحى به موضوعات المدينة .

خذ مثلا الشعر الذى كتب حول النيل والتأليف العلمى حول محصول مصر الرئيسى القطن ، تجد صورة من تغلغل صور الريف وموضوعاته فى ميدانى الشعر والعلم على السواء . ويزخر ميدان التأليف الاصلاحى والاجتماعى بكتب عن ريف مصر ، ككتاب الأب عيروط الذى ترجمه الى العربية محمد غلاب واسمه « الفلاحين » . ولقد شاع هذا الكتاب وترجم عن الفرنسية ، لغته الأصلية ، الى الانجليزية فعرف فى أمريكا وانجلترا .

ان سكان الريف فى أمريكا مثلا قلة بالنسبة لعدد السكان يكادون يكونون أقل من الخمس . وحتى هذا الأقل من الخمس ليس ريفا بالمعنى الصحيح وانما أكثره قد أخذ يعمل فى الصناعة والتجارة وان سكن الريف بحكم تجارته أو صناعته . أما ريفنا نحن فلا يزال كما هو لأن الآلة لم تغزه بعد كما يجب أن تغزوه فتضطر الأيدى العاطلة بسببها الى البحث عن رزقها فى المدن . ان أكثر من ثلاثة أرباع مصر من سكان الريف وأكثرهم يعمل فعلا على أرضه ، لذلك انصبت صيحات الاصلاح كلها حول حال الفلاح المصرى وما يجب له . وكثر التأليف حول المطالبة بحقوق الفلاحين التأليف الفنى والعلمى على حد سواء . وأخذت مشاكله مشاكل

كثرة السكان والأيدى العاطلة والفقر والملكية وغيرها تستأثر بجهود الكثيرين من الباحثين .

ولكن الاحصاء الصحيح ، والدرس المدقق المختص للأحوال بحذافيرها ينقصنا كثيرا لبناء النتائج السليمة عليه . بينما نجد هذا الاحصاء الدقيق قد عملته أمريكا مثلا فاذا هى تبنى عليه النتائج وتحقق برامج الاصلاح . اصلاح الريف وأحواله . ان وزارة الزراعة فى أمريكا لم توجد نتيجة تقليد نظام أو تفكير ساسة وانما وجدت نتيجة لصيحات الحاجة الى المعونة الفنية التى انبعثت من الريف الأمريكى . وكذلك كليات الزراعة فى الجامعات بل كذلك كل هذه الهيئات المختلفة التى تعمل متعاونة متكاتفة لترفع من مستوى الفلاح وترقى مجتمعه وفى الوقت نفسه تحسن من نتاجه الزراعى والحيوانى ما أمكن . ذلك ان أقل من خمس السكان فعلا يعيش على التجارة فى هذه المزروعات أو العمل على انمائها ولكن السكان جميعا بما فيهم هذا الخمس نفسه يعيش ويحيا على هذا النتاج الحيوانى والنباتى . اننا جميعا نعيش على الأرض وعلى ما تغله الأرض من غذاء لنا وللحيوانات التى تتغذى بلحومها وسائر ما تنتج. لذلك كان تحسين الثروة الزراعية والحيوانية والعمل على

السير بهذه الثروة نحو الرقى والامتياز صالحا جوهريا من أهم المصالح التى يجب أن تجند فى سبيلها الجهود .

والفلاح عصب الأمم حتى حيث يكوّن قلة من السكان كما هى الحال فى أمريكا ، لذلك اهتمت الأمم جميعا بتعليم هذا الفلاح ما يجب أن يتسلح به من علم ليحيا حياة خصبة من جهة وليدير عمله مفيدا من تجارب العلماء والباحثين من جهة أخرى . ولست تجد مجتمعا يجل العلم ويحب أن يدركه كما تجد فى الريف . ان رغبة الآباء الريفيين فى تعليم أبنائهم رغبة شديدة ملحوظة فى كل بقاع الأرض . هذه أمريكية تأتى بابنها على باب المدرسة وهو فى الثانية عشرة تدافع عن قضيتها . ان الولد يجب أن يتعلم ، لقد فاته الكثير ولكن لابد له من التعليم . ومشاهد الأسر عندنا فى الريف وما تعانيه من ضنك وشظف فى سبيل تعليم أبنائها مشاهد مألوفة قد تداولت أحاديثها الألسن . ولكن الفرق بيننا وبين الأمريكيين هو أن فلاحهم يتعلم ليتقن صناعته ، وليحسن الحياة فى قريته ، لا ليهجرها الى المدينة ليكون طبيبا أو مهندسا بل كاتبا أحيانا فى احدى المصالح . ونحن نرقب هذا الفجر الجديد بالتفاؤل والتطلع فان اصلاح القرى وادخال عنصر التجارة فيها سيجعلها تثرى وتحيا فلا يترك الفلاح بلدته الى العاصمة

وانما يتركها ، ان تركها ، للمدينة الريفية القريبة للمركز مثلا ليعمل فى بعض شـئون التجارة الزراعية ومن يدرى لعله يأتى اليوم الذى لا يترك فيه بلده وانما يظل عالقا بحقله بعد أن سهلت له الآلة العمل وارتفع مستوى عيشه فأحب الحياة على الأرض ، وحب الأرض غريزة من أقوى غرائز الناس فى البلاد الزراعية .

ولعل بناء بعض المصانع الكبرى فى الريف سـيعمره وينعشه . فان أكثر الشركات الصناعية اليوم تتجه نحو هذه المساحات الواسعة من الأرض الرخيصة لتبنى عليها مؤسساتها وما يلحق بهذه المؤسسات من مساكن وملاعب للعمال بسبب اتحادهم فى نقابات . كل هذا سيؤدى حتما الى انعاش بعض المناطق البعيدة عن المدن الكبرى كما حدث مثلا فى مصنع النسيج فى المحلة الكبرى عندنا . وسيجد الفلاح نفسه عما قريب يعامل هذه المصانع فاذا الفلاحة وحدها تتطور وتقترب من التجارة وتمتزج بها .

وهو فى كل هذا محتاج الى القراءة والقراءة الكثيرة . فهو سيجد نفسه مطالبا بمعرفة الكثير فيما يختص بزراعته . الكثير عن دودة القطن مثلا التى تفسد عليه محصوله وسائر الآفات الزراعية . وهو مضطر الى أن يعرف الكثير عن الرطوبة

والجفاف وعن خواص النبات وأنواع التربة . وقد يحتاج عما قريب اذا ما غزت الآلة حقله كما يجب أن تغزوه الى معرفة الكثير عن الكهرباء وعن الآلة وعن كيفية استعمالها . ولا يكفيه فى هذا مجرد ارشادات لأنه سيضطر بحكم التقدم أن يعرف أكثر مما يقدم اليه فى نشرات موجزة ، سيضطر الى قراءة الكتب .

ان ثلثى سكان العالم فلاحون وأكثر هؤلاء يعيشون فى ظروف مؤلمة من الفقر والعبودية . هذا ما أثبتته الاحصاءات التى قامت بها النقطة الرابعة ومكتب العلاقات الخارجية الزراعية ومنظمة الغذاء والزراعة فى الولايات المتحدة . بل هذا ما أثبته بعض الثقات كقاضى القضاة فى المحكمة العليا فى نيويورك وليم دوجلاس . ولابد لهذه الأحوال من أن تتغير . فصيحات المطالبة بالحق ، حق الفلاح ، تتعالى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية . وانه لعلى مؤلفى الكتب وناشريها فى السنوات القليلة القادمة يقع العبء الأكبر فى تقرير مصير هؤلاء البائسين الثائرين ؛ أينحرفون نحو نظم غير طبيعية ملتوية أم يتجهون نحو ديمقراطية عالمية سليمة .

ان قراءة الفلاحين للكتب سترفع من مستواهم الاقتصادى . ولقد ألف المؤلفون منذ أقدم العصور فى الفلاحة والارشادات

الزراعية ، وعندنا فى الأدب القديم المصرى صور مبتورة لهذا التأليف الذى قصد به ارشاد الزراع الى صناعتهم . وقصيدة « الأيام والأعمال » لشاعر اليونان الأشهر هزيود لم تكن الا فى هذا . ولكن التأليف للفلاح قد أخذت تتسع آفاقه منذ فجر هـذا القرن . وبعد أن كانت الكتب ، بل الأدلة التى تصدر للفلاحين ، تعد على الأصابع فى أواخر القرن الماضى ؛ نراها أخذت تتدفق منذ فجر هذا القرن . ولقد أخـذنا فى ترجمة بعض الكتب فى الزراعة عامة ، ولكننا اليوم نجد ، حتى فى مصر التأليف الزراعى ينتعش ، منه العلمى التجارى مثل كتاب « القطن فى الريف وبورصة الاسكندرية » لحسن زكى أحمـد ، ومنه البسيط الذى ينمى بعض الثروات الريفية كتربية النحل ، ودودة القز ، والعناية بالدواجن ، وهكذا ...

ولكن الذى ينقصنا هو تنمية الرغبة لدى الفلاحين العارفين بالقراءة لكى يقرأوا والعودة بخريجى الجامعات ، فنصفهم ان لم يكن ثلاثة أرباعهم من أبناء الريف ، الى الأرض ليعملوا عليها بعلمهم ما يملأ ثراءً وينعش تربتها ويحسن نتاجها . ولقد بدأت العودة الى الريف تتجلى فى بعض شبابنا المثقف . ولكن ايجاد حلقات القراءة والمكتبات والمجلات المحلية كل هذه عوامل تجعل هذه الاقامة مرغوبا فيها ومثمرة .

وهذه طريقة من الطرق على التشجيع على القراءة . تبدأ أولا بدراسة المنطقة وتبين الحاجة الماسة الأولى التى تحتاج اليها وتبصيرها بهذه الحاجة ان كانت غافلة عنها . ثم تأتى الخطوة الثانية وهى ايقاظ الشعور بأن هذه الحاجة يجب أن توفى وأن تسد . ثم اختيار الأسباب والوسائل التى تفى بهذه الحاجة على أحسن وجه ثم دفع بهذه الأسباب والوسائل بما يجب لها من دفع لكى توفى الحاجة . فاذا التزم المعلمون والمشرفون الاجتماعيون والتعاونيون هـذه الفكرة ، فكرة ايقاظ الشعور بحاجة والدلالة على ما يوفيها أيقظوا فى نفوس الفلاحين الرغبة فى أن يعرفوا حاجاتهم ويتعرفوها بأنفسهم بعد ذلك وأن يبحثوا فى وسائل سد هذه الحاجات والوفاء بها . ولنا فى المستقبل رجاء أن يقبل الفلاح على القراءة . ان التعليم ينتشر وهذا فى صفنا ، وان الآلة لتتقدم وترخص بحيث يمكن أن تكون عما قريب فى متناول يد الفلاح فتتيح له من الراحة والفراغ ما يمكنه من القراءة وهذا أيضا فى صفنا . ولكن التقدم الذى جاء بنشر التعليم وسهولة استعمال الآلة قد جلب معه أيضا ما ليس فى صفنا من صوارف عن القراءة . فهذا الراديو والتلفزيون والسينما ثم سهولة اقتناء السيارات وسهولة السفر كل هـذا جعل

الأمريكى العادى يفضل أن يقضى أوقات راحته فى مثل هذا . فيتمتع بمشاهدة فيلم أو سفر رحلة أو سماع اذاعة . وبينما كان أجدادنا لا يجدون فى أوقات فراغهم تسلية خيرا من القراءة الجماعية أحيانا يجد هذا الجيل الجديد ما يصرفه عنها . لذلك وجب على المعلمين والمرشدين أن يعملوا عملا ايجابيا على ايقاظ حب القراءة لدى الناس ، وخاصة الفلاحين .

ومن هذا الذى يستطيعون عمله هو تحبيب الأدب الريفى أولا الى القــراء . فلقــد كان الريف ، وما زال ، من أهم موضوعات الأدب . فيه تدار كثير من حوادث القصص المحلية والعالمية المعروفة وبوحيه كتبت قصــائد من أروع الشعر العالمى . قصيدة « جولد سميث » فى « القرية المهجورة » أو قصــيدة « جراى » فى « مقبرة القرية » أو قصــيدة « لونجفلو » فى « حداد القرية » كل هذه قصائد تثير فى النفس الحنين الغــريزى الى الطبيعة وتحبب المرء فى قراءة المزيد من هذا النوع من الأدب . كذلك قصائد التغنى بجمال الطبيعة فى الموشحات الأندلسية أو قصــيدة الربيع للبحترى كلها تضرب على أوتار حساسة لأننا جميعا نحن الى أمنا الطبيعة . وهناك من القصص العــالمى ما يصــور جهاد المرء مع الطبيعة . ولقد برع كتاب الرواية الأمريكية

بالذات فى هـذا الصدد وأصبح أدبهم عن الريف من أعز ما يعتزون به فى ثروتهم الأدبية . بل ان أكثر جوائز القصة عندهم ينالها القصص عن الريف . ذلك أن المهاجرين الأول لما واجهوا الأرض البكر واجهوا معها معركة عنيفة كثيرا ما كان الفشل بعض نتائجها . واذا قصة هـذا الجهاد مع الأرض ثم التحول عن هذه الأرض الى المدن الريفية التى نشأت على أطراف الغيطان ، موضوع من أكثر الموضوعات جاذبية عند المؤلفين . وبطلة هذا التأليف هى ويلا كاثر التى ترجمنا لها قصتها العالمية « عزيزتى آنتونيا » . ولها غير هذه الرواية فى موضوع الريف الأمريكى « أغنيـة القبّرة » و « يا أيها الرواد » . وكذلك ألف الكاتب النرويجى الأمريكى رو آلفاج قصته « عمالقة الأرض » . ولما تعقـدت الأحوال ودالت دولة الجهاد على الأرض جاءت دولة الجهاد فى سبيل الحقوق . وليس أقدر على تصوير حال الفلاح الأمريكى من الناحية الاجتماعية والاقتصادية من قصة جون شتينبك التى أسماها « عناقيد الغضب » . وهكذا نرى أن الموضوع الأدبى يتطور بتطور الظروف ، ولكنه دائما أبدا يتخذ من الطبيعة والأرض طاقات معينة للتأثير فينا .

ولقد أخذ بعض كتابنا الشباب ينحون نحو التأليف عن

الريف بأسلوب جديد يحاول أن يصور مشاكل الفلاحين وأحوالهم على الطريقة التفصيلية المصورة لتفاهات الحياة اليومية التى شهرت فى العالم أجمع عن الروس . وهـذا عبد الرحمن الشرقاوى يصدر منذ أكثر من عـام قصته « الأرض » .

ولا تكفى قراءة هذا الأدب ، أو ما يماثله ، وحدها لتتولد الرغبة فى القراءة ولكن لابد من العمل بعد ذلك على تقريب الكتاب الى الفلاح . انه اليوم غيره بالأمس . انه اليـوم يشارك فى حكم وطنه فلابد من أن يطلع على الكثير مما هو خاص بأنواع الحكم ليعرف لنفسه طريقا . ولابد من أن يعرف عن العالم حوله الكثير أيضا ليستطيع أن يحكم على تصرفات الساسة الذين ينتخبهم حكما سليما . ان العـالم يضيق كل يوم عن سابقه . وأخذت الأمم يعرف بعضها البعض على شكل لم يكن له مثيل من قبل . والفلاح لابد أن يعرف عن أخيه الفلاح فى سائر أنحاء الأرض — ما مشاكله وكيف حلها — وما طاقات الحياة من حوله وكيف يستغلها ؟ ان الفلاح الأمريكى يستطيع اليوم أن يطير ليقضى اجازته فى ربوع أوروبا اذا شاء . وفلاحنا ان يكن لا يستطيع ذلك فهو لا شك أكثر حركة من أبيه ومن جده . فكم من أجداده

عاشوا وماتوا فى نفس المكان لم يبرحوه بينما هو اليوم ينتقل الى العاصمة أحيانا كثيرة ، وسيأتى عما قريب اليوم الذى ينتقل فيه الى جيرانه من سكان هذه الأرض . انه مستوى المعيشة ولا شىء سواه هو الذى ما زال يشل حركته الى حين.

وعقد مؤتمرات لفلاحى منطقة بعينها مفيد جدا فى ايقاظ الوعى والارشاد الى القراءة . ذلك انه فى أمريكا مثلا ينظمون مؤتمرات من هذا النوع كثيرة بل انهم لينظمون مؤتمرات فى الجامعة أحيانا لكل الذين يعنون بشئون الفلاحة بغية التشاور فى الطرق التى يمكن أن يرتفع بها مستوى الفلاح الثقافى ، والقراءة أولى هـــذه الوسائل ولا شك . ان كثرة الفلاحين حتى هناك فى أمريكا لم تعتد شراء الكتب ولم تألف تكوين المكتبات الخاصة الا بعد أن انتشرت وسائل تشجيع القراءة المختــلفة وما زالوا رغم النتــائج الحسنة يواصلون العمل ويواصلون . وما فكرة العربات المملوءة بالكتب ، المتنقلة من بلد الى بلد لتحمل الى الفلاح فى داره ما يشتهى من كتب يقرؤها ثم يعيدها الى العربة فى جولتها الثانية ليأخذ كتابا آخر كما نفعل فى المكتبات عندما نستعير منها الكتب ، الا فكرة حديثة جدا ناجحة الى أبعد حدود النجاح . وهى وليدة هذه العناية الدائبة المستمرة لايجاد

حل لهذا الاشكال — اشكال أن الفلاح لابد أن يقرأ ولكنه لأمر ما لا يقرأ . بل ان الناس جميعا فى هذا سواء ولكن الاهتمام بالفلاحين جاء نتيجة لبعدهم عادة عن المكاتب العامة وعن قاعات المحاضرات التى تحض سكان المدن نوعا ما على القراءة .

ان ميادين الثقافة التى يحتاج اليها الفلاح تتعدى اهتمامه بالزرع واهتمامه بسياسة بلده أو مشاكل أمثاله فى أنحاء المعمورة ، انها فى حياته اليومية متمكنة متفرعة . فهو محتاج الى معرفة الكثير عن صحته ليعنى بها وعن صحة الطفل ليعنى بابنه . وهو محتاج الى معرفة الكثير جدا عن نفسه وعما يدور حوله — عن دينه الذى يتبعه مسلما كان أم مسيحيا أم يهوديا ، وعن بلده الذى يعيش فيه وتاريخه ، وعن أوليات الاقتصادى وكيفية الاستغلال ومشروعات استثمار الثروات الصغيرة فى الريف كتربية الدواجن أو الأسماك أو الحيوانات أو النبات كالخضراوات والأزهار .. ثم هو مضطر الى أن يعرف الكثير عن التقاليد والعادات ونظام الأسواق ونظام التثمين ، وهكذا يأخذ من كل شىء طرفا ليستكمل وجوده ويكمل وعيه ويحسن حاله المعنوية والمادية .

ولقد كانت مساجدنا الى زمن غير بعيد مدارس للقرى يتعلم فيها الصبية .فما ضر لو أن كل مسجد من هذه المساجد الكثيرة كون نواة مكتبة صغيرة للريفيين فيها ما يحتاجون اليه وما يلذهم فى الوقت نفسه أن يقرأوه . ان بعض المساجد فى المدن كمدينة دمياط مثلا له مكتبة ولكن لو أن كل مسجد مهما صغر حجمه أوجد مكتبة صغيرة لكانت هذه وسيلة أى وسيلة لتشجيع القراءة فى القرى ، فكل قرية لا تخلو من مسجد قريب أو بعيد .

وهاك مثلا بعض ما عمله الحريصون على تشجيع القراءة فى بعض بلدان أمريكا . هذا قسّ مثلا وضع فى مدخل الكنيسة رفوفا صغيرة عليها كتب قليلة وحولها بعض الكراسى ودعا الناس بعد الصلاة الى فنجان قهوة قرب هذه الرفوف فشربوا القهوة ورأوا الكتب واستعاروا بعضها وتناقشوا فى بعض الموضوعات وتبرع بعض القراء بشراء كتب أخرى ونمت المكتبة وبعد أعوام كانت مكتبة هذه الكنيسة من أشهر المكتبات .

وهذا آخر فى اجتماع الجمعية التعاونية أخذ يتحدث الى الناس فى بعض الشئون مستعملا الكتاب كدليل على

ما يقول لهم من آراء واحصاءات . وأخذ الكتاب منه غيره يريد أن يطلع عليه فاشترت الجمعية عدة نسخ من هـذا الكتاب الذى ظهرت فائدته . ثم جىء بغيره وغيره فى نفس الموضوع ثم فى موضوعات تتصل به حتى تكونت مكتبة . واذا المستعيرون بالمئات واذا هذه الحلقات تعقد شـهرية أو نصف شهرية للمناقشة فيما قرأوا ولفتح الآفاق للقراءة الجـديدة .

وكثيرا ما تجتمـع بعض الأسر فى الريف فى الولايات المتحدة فى بيوت البعض ، وكثيرا ما يدور النقاش حـول الموضوعات الريفية التى تعنيهم . كأن يناقشوا موضوعا أثارته الصحف أو أثارته الأخبار عامة واذا هذه الاجتماعات تصبح دورية بسرعة لكثرة ما يحسـون ما جنوه من فائدة بتبادل الرأى . وسرعان ما تتصل هـذه الجماعة ببعض العاملين على تشجيع القراءة من هيئات فتمدها الهيئة بالمعونة — ببعض الكتب والنشرات وأخبار مثيلاتها من الحلقات فى أنحاء البلاد الأمريكية فاذا هذه الاجتماعات تغنى ويخصب فيها التفكير وتكثر فيها القراءة .

ان الأمريكيين يحسون اليوم انهم أصحاب رسالة . وأن جنود هذه الرسالة ليسوا سكان المـدن وحدهم وانما هم

سكان الريف من قبلهم ؛ ذلك أن سكان الريف سيظلون مهما ازدحمت المدن وزخرت هم عصب الحياة فيها وهم أساس أى مستقبل يبنى للوطن (*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقال كارولين شيرمان (C. Sherman) ومقال روبرت وست هاورد (R. W. Howard) ومقال كارل وودوارد (C. R. Woodward) ومقال مسز سلاتر (C. W. Slater) وكلها فى الفصل « المدينة والقرية » .

أنا ومواطنى فى هذا العالم

كتب عن الناس فى أقطار الارض :

لقد أصبح العالم كله وطنا واحدا بعد ما تقدمت وسائل السفر ورخصت أجوره الى حد بعيد . لم تعد أوروبا فى معزل عن أمريكا ولم تعد كلتاهما فى معزل عن آسيا وأفريقيا. بل ان المشاكل التى تثور فى احدى هذه القارات أصبحت تثير الناس فى شتى أنحاء الأرض . اننا لا يمكن أن نغفل أمر جارنا . انه صديق ، انه عدو ، انه لطيف ، انه مشاكس ، مهما تكن أخلاقه لا يمكن لنا بأى حال أن نغفل أمره ، ونسير فى الحياة وحدنا . فالعالم أصبح كله متجاورا وأصبحنا جميعا فى شتى أنحاء الأرض جيرانا . قامت الحرب فى أوروبا بين فرنسا وألمانيا فارتجت لها بقاع الأرض واذا أمريكا تهرع للحرب والنجدة ، واذا نحن نقدم المعونة ما استطعنا . ولما انتصرت الحلفاء أول مرة هرعت أمريكا يائسة من عصبة الأمم الى عزلتها من جديد . كانت كما يقول بعض كتابها كالنعامة تدفن رأسها فى الرمال لتأمن الخطر . ودق ناقوس الحرب مرة أخرى ودخلت أمريكا مرة ثانية بعتادها ورجالها

أىّ دخول . فلما تكونت هيئة الأمم احتضنتها واتخذت لنفسها مكان الصدارة فيها فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . لقد تعلمت الدرس .

انا جميعا أهل عالم واحد ولابد لنا من أن تتعارف لنتحاب . ولا يمكن لأمة مهما بلغت من الرقى أن تظن نفسها أنها أرقى الأمم وأنها تستطيع لذلك أن تعيش فى عزلة عن العالم مستغنية عنه . وهذا ما أدركته أمريكا فهى اليوم تسعى لتعرف العالم ولتعرّف نفسها الى العالم . انها لا تريد أن تطبع الناس بطابعها فليس هذا من صالحهم ولا من صالحها فى شىء ولكنها تريد أن تعرف الناس كما هم وأن يعرفوها كما هى لتصبح الحياة على هذا الكوكب الأرضى أمتع وأفيد .

لذلك وجب على كل منا أن يقرأ بعض الكتب أو المجلات أو الجرائد التى تحاول أن تلخص الموقف العالمى السياسى أو أن تلقى على مسائله العامة بعض الأضواء . فهناك كتاب نشره معهد بروكنجز فى وشنطن منذ عامين ، بعنوان « المسائل الكبرى فى سياسة أمريكا الخارجية » . وكان يحسن لهذا الكتاب أن يترجم فان سياسة الدنيا كلها اليوم تتصل اتصالا ما بسياسة أمريكا . وهناك جريدة « النيويورك تيمز » تستعرض عادة الخطوط الرئيسية لهذه السياسة . أما المسائل

الخاصة فى هذه السياسة فنجد لها اشارات فى دليل القارىء فى هذه الجريدة الى التأليف الجديد ، حيث يستعرض أهم ما تخرج المطـابع فى كل باب على حـدة ولا تكاد تخلو منه مكتبة أمريكية .

وأما عن الفكرة السياسية عامة وكيف نشأت فى العـالم كله وتطورت مع تطور العصور فى شتى أنحاء الأرض فان كتاب الأستاذ جورج سابابن عن تطور الفكر السياسى يمثل لنا هذه الصورة فى دقة العالم وأسلوب الأديب . وقد قام حسن جلال العروسى بترجمة الكتاب لمؤسسة فرانكلين .

أما بالنسبة الينا نحن المصريين خاصة فاننا نهتم أيضا بسياستنا مع انجلترا للاتصال الذى فرضه التاريخ علينا بها . وفى المسألة الانجليزية المصرية كتب كثيرة نافعة لا يمكن الاستغناء عنها منها الحديث ككتاب محمد مصطفى صفوت عن « الاحتلال الانجليزى لمصر » ومنها ما هو متخصص فى نقطة بعينها هامة جدا من هذه العلاقة كمسألة المفاوضات . وأحسن ما قرأت فى هذا كتاب محمد شفيق غربال عن « تاريخ المفاوضات المصرية الانجليزية » .

ونحن مهتمون بالطبع بهيئة الأمم فنحن أعضاء فيها وهذا كتاب يبين لنـا حقيقة هـذه المنظمة عنوانه « هيئة الأمم

والمحاولات التى سبقتها فى سبيل السلام» لمحمد عبد الوهاب رجب. كذلك يهمنا أمر اخواننا فى البلوى — اخواننا المسلمين سكان شمال أفريقيا . وكتاب « الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقيا » من الكتب المفيدة فى هذا الميدان . وهذه سلسلة اخترنا لك طلعت علينا بالذات لتسد هذه الحاجة — الحاجة الى معرفة جيراننا وتاريخ حياتهم — ففى سلسلتها كتاب عن الصهيونية وآخر عن تركيا وثالث عن شمال أفريقيا ورابع عن جنوبها وخامس عن الباكستان وسادس عن الهند وهكذا . وكل هؤلاء جيران تربطنا بهم أواصر وأحداث تاريخ ومصالح ، يجب أن نعرف عنهم وأن يعرفوا عنا لنعيش معا وهدفنا سلام مكين . وقد يفيد أن نعرف أشياء عامة عن جيران آخرين تربطنا بهم أيضا أواصر الاشراف على البحر الأبيض المتوسط، وكتاب محمد رفعت عن « التيارات السياسية فى جوف البحر الأبيض المتوسط » ينير لنا السبيل ويأخذ من التاريخ أجزاء يفسر بها واقع الأحداث على هذه البحيرة الضخمة ، التى شهدت فى العصر القديم أروع مدنيات ثلاث — المدنية المصرية واليونانية والرومانية . أما علاقتنا بالسودان الشقيق أو جنوب الوادى فلقد ألف فيها الكثير أيضا ، وأحسن هذه التآليف كتب محمد فؤاد شكرى عن « الحكم المصرى فى السودان » .

أما تاريخ مصرنا القديم وأما فجرها الجديد وأما تاريخ البلاد الاسلامية العربية وفجرها الجديد ومشاكل البترول فيها فكل هذه موضوعات حظيت بتآليف كثيرة . يكفى أن ننظر فى فهرست أى مكتبة عامة لنجد فى ذلك بغيتنا . ففى كتب سليم حسن وأحمد بدوى « مصر القديمة » و « فى موكب الشمس » وفى كتاب راشد البراوى عن « البترول » نماذج حسنة من هذا التأليف الكثير الذى يكثر فيه الممتاز من الكتب .

ولا يكفى أن تقرأ هذا أيها القارىء مجرد قراءة عابرة ذلك أنك فى دنيا الديمقراطية مطالب بابداء الرأى فى شتى المسائل . يقول آدولف بيرل « ان أساس الديمقراطية الرأى » . ان الأمة الديمقراطية تسير الى الأمام بما يدفعها به كل فرد فيها . انها لا يمكن أن تدفع نفسها . كلنا مسئول عن أمته . ولا يكفى أن تقرأ أيها المواطن الصحف اليومية أو المجلات فان مهمة هذه الصحف والمجلات فى الواقع أن تشوقك الى القراءة لا أن تغنيك عنها . انك تقرأ فيها موضوعا صحفيا مثلا عن أهل منطقة من مناطق بلدك يطالبون الحكومة بشىء معين فاذا أنت مشوق لأن تعرف لماذا يطالب أهل هذه المنطقة بهذا الحق . ما موقعهم الجغرافى بالفعل

وما هى عادات أهل هذه المنطقة بالذات . واذا بك تفزع الى المكتبة لتبحث عن بغيتك — كتاب يشرح لك كل هذا الذى قام فى رأسك من أفكار وأسئلة .

ولعلك تقرأ يوما عن كشف البترول فى صحارى مصر . فاذاً بك تريد أن تعرف الكثير عن هـذه الصحارى لترى بنفسك مقدار احتمالات هذا الكشف ولو من بعيد . وأنت تقرأ مثلا عن المفاوضات فى مياه النيل بيننا وبين السودان واذا أنت مشوق لأن تعرف مسألة اتفاقيات المياه بيننا وبين السودان والعلاقات القديمة والحديثة من التاريخ والجغرافيا التى يمكن أن تعين على فهم هذه المسألة من مسائل السياسة الهامة فى بلدك .

كذلك فى أمريكا يقرأون فى الصحف أحيانا شـيئا عن مطالب بعض أهل الجنوب فاذا القارىء يريد أن يعرف الكثير عن هؤلاء القوم انه لا يملك فى كل مرة أن يرحل بالفعل الى هؤلاء الناس الذين يلذ له أن يعرف عنهم شيئا ليراهم بالفعل ويعرف بنفسه وبأقوى بيان كل ما تاق الى معرفته . فاذا هو يستعيض عن الرحلة بكتاب . بل لعله فى الكتاب واجد ما قد كان سيغفل عنه فى غمرة الرحلة والأسفار . وبشىء من الخيال قد يعوض بعض متاع الرحلة الحقيقيـة فيفيد من الكتـاب

ويستمتع . فاذا كنت أيها القارىء فى مصر وتريد أن تعرف الكثير عن أمريكا فانك غير مطالب بانفاق مئات الجنيهات لتسافر اليها . يكفى نصف جنيه أو أقل لشراء كتاب ككتاب « كيف أنشئت الولايات المتحدة الأمريكية » تأليف وايت وترجمة حسن جلال العروسى ، أو يكفى أن تقرأ كتاب جيمز بريس فى لغته عن « الكمنولث الأمريكى » أو كتاب توكفيل عن « الديمقراطية الأمريكية » . وهكذا عن سائر بلاد الأرض تقرأ عنها كتابا تشتريه أو تستعيره من مكتبة عامة لتعرف وتزداد معرفة . ومعرفة الجيران على هذا الكوكب لا تقربك منهم فحسب ، ولكنها تعرفك أمتك ونفسك أيضا فى ضوء أقوى ونظرة أشمل . واذا أنت عارف بنفسك وأمتك كجزء من هذه المجموعة الضخمة من الأمم ، كما كنت تعرفها وحدها ، فالمعرفتان تكمل احداهما الأخرى .

ولعل أكبر بلد بذل مجهودا صادقا جبارا فى أن يعرف الدنيا ويعرّف نفسه للدنيا هو أمريكا فى هذه السنوات الأخيرة . فلقد كان العالم الى عهد قريب جدا لا يكاد يعرف عنها الا ما كانت تأتى به بعض الأفلام السينمائية . ولكن أمريكا قررت الخروج عن عزلتها كما أسلفنا وقررت أن يعرفها العالم . ولما كان من الصعب أن تحمل العالم الى

أرضها فقد أرسلت كتبها سفراء عنها لديهم . ودعت اليها كل من استطاعت أن تدعوه .

لقد شجعت أمريكا ارســال الكتب الى جميع أنحاء العالم . ومنذ عام ١٩٥٠ أرسلت فى العامين الأولين وحدهما نحو مليونين ونصف مليون من الكتب فى الخارج . وهى تشجع حتى أطفالها على ارسال كتبهم الى أطفال آخرين فى سائر أنحاء المعمورة يستطيعون أن يقرأوها مثلهم.وما منظمة اليونسكو الا منظمة فى هيئة الأمم هدفها تقارب العالم عن طريق الثقافة ، فلو قرأ الناس بعضهم لبعض وتلاقت الثقافات المختلفة فى رءوس أكبر عدد ممكن من الناس لوجدت أطيب نواة يمكن أن يجتمع حولها الناس ليتحابوا ويتآخوا ويفهم بعضهم بعضا ، فلا يتشاحنون ولا يتقاتلون ولا يتحاربون ، وهذا هو الأهم .

ولم تشجع أمريكا مجرد ارسال الكتب ولكنها أوجدت هيئات حكومية وأهلية لتشجيع ترجمة هذه الكتب الى لغات البلدان المختلفة حتى يقرأها أكبر عدد ممكن .

ولقد قامت السفارة الأمريكية فى القاهرة منذ بضعة أعوام ببرنامج ضخم فى الترجمة ثم جاءت مؤسسة فرانكلين منذ أربعة أعوام وأخذت تصدر من هذه الكتب الأمريكية

المترجمة كل عام محصولا يفوق محصول العام الماضى حتى وصلت الى أنها ترجمت العشرات فى هذه السنوات القليلة . ولم تكتف أمريكا بتقريب المسألة من هذه الناحية وانما ذهبت الى الناحية الأخـرى وأخذت تنشىء المراكز للتعليم الأساسى للغة الانجليزية حتى يتمكن أكبر عدد ممكن أيضا من قراءة الكتب الأمريكية فى لغتها . ثم أمدت هذه المراكز بكمية من مبسطات الكتب فى شتى الميادين العملية التى يحتاج اليها بلد بالذات ، كما فعلت فى مصر فى سرس الليان فقربت بعض الكتب الزراعية للريفيين .

ووقفت مسألة العملة الصعبة عقبة فى سبيل انتشار هذه الكتب بين الذين يحسنون قراءتها فهم لا يجدون اليهـا السبيل . فسهلت اليونسكو هذه العقبة بأن أوجدت طوابع خاصة يشتريها الفرد من فروعها بعملته المحلية ثم يشترى بها الكتب التى ثمنها عملة صعبة .

ولم تلجأ أمريكا فى التعريف بنفسها الى مجرد الدعاية السياسية وانما ألحقت بسفاراتها فى أنحاء الأرض فى أكثر من مائة وتسعين بلدا مكتبات جعلت هدفها المعلومات الحديثة فى شتى نواحى الحياة العملية والفكرية والفنية . فاذا هذه المكتبات تزخر بالمراجع الهامة جدا الحديثة جدا أيضا عن

كل فرع من فروع المعرفة . وهى تراقب نشاط هذه المكتبات وتعمل على استكمالها . ولقد أنشأت مكتبتها فى القاهرة منذ أكثر من عشرة أعوام وكانت أول أمرها مكتبة صغيرة ثم أصبحت دارا فخمة تضم آلاف الكتب الأمريكية الحديثة. ومن أهم ما تقرّ له عين القائمين بهذه المكاتب أن يجدوا بعض الهيئات الحكومية تستعين رسميا بما فى المكتبة من معلومات حديثة واحصاءات دقيقة لاخراج بعض تقاريرها الرسمية . وكذلك أن يجدوا الطلاب على مختلف أعمارهم يقضون فى هذه المكتبات المريحة التى لا يدفعون فيها رسما أوقات بحثهم ، فيتزودون بالعلم الذى يأتى اليهم وكأنما هو الذى يمد يده اليهم لا هم اليه .

وأهم ما فى هذه المكتبات طريقة ايصال الكتاب الى القارىء تلك الطريقة الأمريكية الناجحة التى عنوانها : « لا حجاب بين القارىء والكتاب » . فالقارىء يدخل المكتبة ليرى بنفسه صنوف الكتب المتراصة فما عليه الا أن يمد يده الى الكتاب ثم يستريح على أقرب كرسى ليقرأ . فاذا أراد أن يستكمل القراءة فما عليه الا أن يكتب اسمه وعنوانه واسم الكتاب على بطاقة يتركها لدى الموظف المختص ويسير متعهدا أن يرد الكتاب فى أسبوع أو أسبوعين على الأكثر

ليفيد منه غيره . وكثيرا ما يسألك الموظف المختص عن رقم تليفونك حتى يطلب الكتاب منك أو يستعجله اذا طلبه غيرك وكانت حاجته اليه ماسة .

وما موظف المكتبة الا معين لك فى كل ما تطلب . يرشدك الى طريقة استعمال الفهارس اذا لم تكن تعرف ويدلك على الكتاب أو على الرف الذى يحتمل أن يكون الكتاب عليه اذا أردت . وهو مستعد أبدا أن يجيبك بكل أدب عن أى معلومات تريدها عن الكتاب أو الموضوع الذى يهمك .

وهذه المكتبات تمعن فى الترحيب بك . حتى الاعلان الذى كنت تصادفه فى بعض المكتبات « ممنوع دخول الأطفال » قد عملت على ازالته . اذ كيف يمنع الطفل من القراءة وهو المواطن غدا . انه لم يعود القراءة صغيرا تكلفه الصعب ليعتادها كبيرا فهلم نبدأ من هنا . واذا هذه المكتبات يلحق بها عادة مكتبة صغيرة كالتى نجدها فى القاهرة خاصة بالأطفال من كل سن ومن كل جنس ولون يدخلون فيرحب بهم واذا كتبهم الملونة الحبيبة بين أيديهم . بل انهم ليجدون أكثر من هذا ، يجدون مختصة تقص عليهم القصة ليستمتعوا بقراءتها وتلعبهم المختصة بعض الألعاب التى يجدون شرحها فى الكتب ليلعبوا مع اخوانهم ويستمتعوا بأوقات فراغهم .

وكثيرا ما تجد فى هذه المكتبات كما تجد أحيانا فى مكتبة القاهرة معارض لما صنع الأطفال بأيديهم مسترشدين بالكتب، أو حفلات موسيقية عن بعض ما قد قرأوا وعرفوا من تاريخ الموسيقيين أو فنهم . وكثيرا ما توزع عليهم بعض الصور الكبيرة مجانا تريهم اخوانهم الأطفال فى شتى أنحاء العالم ليتعرفوا اليهم .

ان هذه المكتبات هى بعض ما قدمت أمريكا للعالم لتعرّف نفسها . فلو أنه كان فى وسع العالم كله ماليا أن يعرّف نفسه أيضا لنجحت الفكرة الأمريكية أيما نجاح . ولوجدنا الى جانب كل سفارة فى كل بلد مكتبة ممتازة هى نموذج للمكتبات ، تعرف الناس بأمتها بأحسن طريق وأخصره وأكثره تأثيرا فى النفس — تعرّف الناس بأمتها عن طريق الكتاب .

ولم تكتف أمريكا بهذا ولكنها راحت فى عالم الكتب أيضا تحاول أن تلقى الناس بين دفتى الكتاب فأخذت بعض مؤسساتها الأهلية والحكومية فى ترجمة أمهات المؤلفات فى سائر اللغات الى اللغة الانجليزية . ولقد ترجمت لكثير من مؤلفينا أمثال طه حسين والحكيم ومحمد عبده وأرسلت الكثيرين من مندوبيها فى مختلف المناسبات ليسألوا المختصين

فى كل فرع عن أجدر الكتب بالترجمة الى الانجليزية لتعريف الأمريكيين بالمصريين .

كذلك أنشأت المعاهد والمدارس لدراسة لغات الشرق وحضاراته وثقافاته ولكن كل هذا وان كان عمدته الكتاب فانه يعتمد على الدروس والرحلات أيضا مما يجعله بعيدا عما نحن فيه .

ومن أطرف ما أدخلت أمريكا فى حياة القراءة فى بعض الأمم فكرة المكتبات المتنقلة على عربات التى تصل الى أماكن بعيدة وعديدة لتوصل الكتاب الى يد القارىء حتى لا يجد المشقة فى الوصول اليه . وقوبلت هذه العربات فى كل مكان دخلت فيه بغاية الترحيب وكانت وسيلة طريفة ناجحة فى سبيل نشر الكتاب وايقاظ همة القارئين لأن يستزيدوا من القراءة (*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقال توماس هوكنز (T. F. Hawkins) ومقال دان ليسى وبول هل (D. Lacy—P. Hill) من الفصل « القراءة للمواطنين » .

وقد أشير الى الفكرة الاساسية من مقال « أنت أيها المواطن القارىء فى عصر الديمقراطية » . لكارل سولبرج (C. Solberg) وكلها فى الفصل « القراءة للمواطنين » .

أنا والكون والزمان

كتب فى العلم والتاريخ ، :

قال السير اسحق نيوتن قبيل موته : « لست أدرى ماذا أنا فى عين الناس ، أما أنا فى عين نفسى فلم أعد أن أكون صبيا يلعب على شاطىء البحر يسلى نفسه بأن يبحث عن حصاة أملس ، أو قوقعة أجمل ، بينما المحيط المجهول يمتد أمامه لم يكتشف أحد بعد الحقائق فيه » .

انه بفضل أمثال نيوتن نستطيع اليوم أن نجد الأملس والأجمل فى مظاهر الكون من حولنا . اننا جميعا نريد أن نعرف وأن نستكشف وأن نبحث عن هذا الكون الذى يحيط بنا . ان أسراره لعميقة وانه ليشوقنا أبدا أن نعرف عن هذه الأسرار ولو الضئيل القليل .

لهذا لابد لنا من أن نقرأ فى هذا العالم الضخم الذى يعوج ويموج بالمؤلفات ، عالم كتب العلم والحقائق الكونية من حولنا لنفيد من تجارب أمثال نيوتن وننتفع بما قد وصلوا اليه . اننا نستطيع بين دفتى كتاب مما قد دونوا عن اكتشافاتهم أن نسير معهم فى ساعات تلك الرحلة المشوقة اللذيذة الطويلة

التى قطعوها ليصلوا الى ما قد وصلوا اليه . نستطيع أن نحيا مع جليليو وكورى وداروين واينشتين وباستور وكل عظماء المكتشفين حياتهم كلها فى ساعات ، بل اننا قد نستطيع أن نرحل أيضا مع كتاب الخيال فى عالمهم المستقبل الذى صوروه على ضوء هذه المخترعات ومن وحى تقدمها . كتب ككتب هكسى عن العالم فى المستقبل أو ويلز أو الكاتب الأحدث أورول ، كل هؤلاء قد تخيلوا العالم فى المستقبل القريب أو البعيد ، فى ضوء المخترعات الكثيرة فى عالم الميكروب والكهرباء والذّرة .

ونستطيع أن نبدأ ، فى قراءة الكتب العلمية ، بكتب عامة مثلا عن أهداف العلم ومراميه وميادينه أو بالكتب العامة فى موضوع بعينه ككتاب ارثر تومبسون فى تقريره الشائق الطويل عن « أصل الكائنات الحية وتطورها » أو كتاب تيلر عن « عالم العلم » . وعندنا فى اللغة العربية كتب عامة وخاصة مترجمة . مثل كتاب سلامة موسى عن « نظرية التطور وأصل الانسان » التى خلدت اسم داروين العالم المعروف . أو نظرية النسبية التى كتب عنها محمود محمد مرحبا التى خلدت اسم آينشتين العالم المعاصر صاحب الذّرة . كما أن عندنا

كتاب هارتمان عن « العالم الذى نعيش فيه » وقد أخرج له صورة عربية عثمان نويه ومحمود شوكت .

وكان الانسان وما زال هو محور أكثر هذه الاكتشافات التى يشغل بها العلماء حياتهم . حقيقة الانسان وأحواله فى الصحة والمرض وعلاقاته بالكون حوله . ولقد ألف لنا طبيبنا المعروف سليمان عزمى « على هامش الطب » كما ألف محمد مختار صدقى كتابا عن « الغذاء فى الصحة والمرض » . أما الناحية النفسية من هذا المخلوق الأعظم فى هذا الكون — الانسان — فلقد حظيت بتأليف كثير وراجت التراجم والمؤلفات على السواء فى علم النفس والمسائل النفسية . فنجد كتاب يوسف مراد عن « علم النفس العام » ، ونجد فى الموضوعات الخاصة كتبا قيمة مترجمة مثل « أحلام اليقظة » « والمراهقة » لجورج جرين وقد ترجمهما ابراهيم حافظ و « العقد النفسية » لفرويد وستيكل ترجمة عصام محمد سليمان . وحظى علم نفس الطفل أيضا بعناية المترجمين .

ولكن مظاهر الكون من حول هذا المخلوق الأعظم تثير انتباهه — السماء والماء والجبال والبحار والحيوانات والطيور . وكان التأليف قديما حول هذه الموضوعات يسترعى الاتنباه ويلفت اليه الأنظار ولم يكن فى الواقع

الا مبنيا على المشاهدات الدقيقة ليس غير . كما نجد مثلا فى كتابى « الحيوان » للدميرى وللجاحظ . ولكن العالم يتقدم واذا هذه الملاحظات لا تعتمد على المشاهدة والكتب السالفة فحسب وانما تتخذ الأسـاليب العلمية وأدوات الاختراع والعلم الحديثين أيضا لتحدثنا عن هذه المظاهر حديثا يكشف الأستار عن حقائقها المشوقة الممتعة . لم يعد الحديث عن البحار يصف المغـامرات كما تصفها قصص ملفل فى « موبى ديك » مثلا . أو تصف العجائب كما نجد الكتب الكثيرة فى المكتبة العربية الجغرافية التى تصف عجائب البحر الشرقى . وقد جمع لنا منها مجموعة حديثة جعلها تدور حول رحلات السندباد وما تذكر من عجائب البحر فى كتاب حديث حسين فوزى وقد أسماه « حديث السندباد القديم » . ولكن التأليف الجديد غير مضطر الى أن يستند الى العنصر القصصى المغامر ، أو عنصر العجيب الشاذ ليلفت الأنظار ؛ وانما يكفى اعلام الحقائق فى أسلوب شائق وطريقة أدبية سهلة واضحة . وهذا كتاب عن « البحر من حولنا » ألفته راشل كارسون نال جائزة الدولة عام ١٩٥١ عن المؤلف غير القصصى . وهو يعتبر من الكتب التى ضربت رقما قياسيا فى التوزيع فى أنحاء العالم . تقول المؤلفة اثر

ما جاءها من خطابات من شتى أنحاء العالم ممن قرأوا لها الكتاب :

« لقد علمتنى الخطابات العديدة التى تلقيتها أثر ذيوع كتابى « البحر من حولنا » ألا أقلل أبدا من شأن اهتمام الجماهير بالكتب العلمية أو أسىء الظن بحسن استقبالهم لها واقبالهم عليها . ان للجمهور العادى استعدادا فطريا قويا لأن يستسيغ الكتب العلمية ويفيد منها . وان تكن هـذه الخطابات علمتنى شيئا فلقد علمتنى أن هناك ظمأ لا تنطفىء ناره لمعرفة الكون من حولنا غريزيا فنيا وان أية حقيقة أو أية نتفة من المعلومات يمكن أن تحل عقال عقل القارىء ليسبح فى أرجاء الكون الفسيح من حوله لتتلقى بحماسة شديدة بل مؤثرة . ان قراء الكتب العلمية يختلفون اختلاف ركاب القطر أو السيارات العامة ، ولكنهم جميعا يجدون فى هذه الكتب نوعا من الراحة . انهم عندما يفكرون فى هذا العالم تفكيرا يمتد عبر الكواكب وملايين السنين يتعزون اذ يرون أن مشاكلهم الشخصية يمكن أن يتأجل حلها حينا وأنه لن يصيبهم من ذلك ضرر » .

ان من وراء كل اكتشاف علمي سـواء أكان كبـيرا أم صغيرا قصة حياة — حياة رجل أو امرأة — حياة مفعمة

بالأمل واليأس مملوءة بالنجـاح والفشل . والكتب التى تحدثنا عنهم لا تكتفى عادة بأن تقول لنا هذا ما فعلوه هم وانما هى تقول لنا أيضا فى طيات الكلام .. وان الذى ينتظر منكم أنتم أيها القراء لكثير أيضا . انها كلها تدفع وتشجع وتحثّ على أن نمسك بالخيط حيث تركوه لنستمر فى نسج هذا الأثر الفنى الذى بدأوه . هذا كتاب داروين يقص على أبنائه قصة حياته المشوقة . وهذه احدى بنات السيدة كورى تقص قصة حياة أمها بكل ما فيها من مجالدة وصبر . ان هؤلاء جميعا كانوا مثلى ومثلك منهم من كان قد رسم له أن يكون فى حياته شيئا آخر ولكن الصدفة أو الهـواية دفعت به الى حيث قيد له أن يكتشف كشفا يغير من وجه حياة الانسان على هذه الأرض . هذا لويس باستور كما يحدثنا مترجم حياته رونيه دوبوا كان مقدرا له أن يكون فنانا يوم صمم على أن يرفع عن البشر آلامهم ويترك الفن . ان هؤلاء جميعا ما تكبدوا المشاق ولا خاضوا غمرات اليأس والفشل الا ليجعلوا هذا العالم ، بما قد حلموا به من نجاح ، خيرا مما هو .

ولقد حاول بعض المؤلفين أن يقربوا عالم العلم الينا جميعا بشتى الوسائل . فهذا كتاب مولتن الذى سماه « ترجمة

حياة العلم » حيث انتهج المؤلف طريقة جذابة هى أن يجعل كل عالم يتحدث الينا بما أدى فى علمه من مخترعات ومكتشفات بلسانه هو وبكلماته . فاذا المجموعة كلها تحدثنا عن تاريخ العلم والكشف بلسان المستكشفين أنفسهم . وهناك مختصرات كثيرة عن قصة بعض العلوم كقصة « علم الحيوان » للوسى أو كتاب أينشتين واينفلد عن « تطور علم الطبيعة » . أما فى اللغة العربية فعندنا أشهر من كتب فى هذا الميدان ميدان تقريب العلم بالأسلوب الأدبى الى ملايين القراء وهو أحمد زكى . وكلنا قد قرأ له قصة الانسولين أيام نشرت مقالات متتابعة فى مجلة الثقافة . ولقد ترجم بنفس الأسلوب المشوق لمؤسسة فرانكلين كتبا كثيرة فى الميدان أهمها « مواقف حاسمة فى تاريخ العلم » تأليف جيمس كونانت كما أهدى الشباب كتيب « حيوانات أليفة نعرفها » مترجمة لنفس المؤسسة . وكذلك قامت المؤسسة بترجمة كتب عن الضوء والحرارة والكهربا والصخر والنهر وتقلبات البر والبحر والاضاءة وكيف تطورت وقام بترجمتها كلها عبد الفتاح المنياوى . كما ترجم كتابا عن « تليفونك وكيف يعمل » .

ان رحلة الأميال الطويلة لابد من أن تبدأ بخطوة واحدة

ومتى خطونا هذه الخطوة فمن يدرى اذا ما أغرانا الكتاب بالمزيد ثم المزيد ، متى سنقف . بل قد لا نقف ما عشنا . فلعل منّا من يدخل الميدان معديا بالروح المثابر المغامر المؤمن بخير الانسانية فيكرس حياته لكشف جديد يخلد اسمه بين الخالدين .

ان هؤلاء العلماء امتازوا أكثر ما امتازوا به بأنهم تلفتوا الى مظاهر الكون من حولهم فساءلوا أنفسهم ازاء كل ظاهرة ما سرها ؟ ماذا هى ؟ ما حياة النبات مثلا وكيف يحيا ويموت؟ وما العوامل التى تؤثر فيه وما أشكاله المختلفة ، ما فصائله وما أجناسه ؟ وما خضوعه للمناخ والحرارة ؟ ان الطبيعة من حولنا مفعمة بالأسئلة أبدا كلما عرفنا عنها شيئا عدنا نسأل من جديد عن شىء آخر . ان الشعور بأننا شكل من أشكال هذه الحياة المتنوعة المتعددة على هذه الأرض شعور لذيذ يغرينا بأن نتعرف على كل هذه الكائنات التى تسكن معنا هـذا العالم — على الطيور والحيوانات ، على الصخور والبحار ، على النبات والسماوات . بل ان الاحساس بوجود عوالم أخرى غير عالمنا يغرينا هو بدوره على البحث أو القراءة فى ميادين من العلم أخرى . وسواء أكنا من سكان القرى أم من سكان المدن فان شغفنا بمعرفة من يساكنوننا هـذا

الكوكب واحد وان اختلفت مظاهره . وشغفنا بمعرفة كل شيء عن الحياة حتى فى الكواكب الأخرى لا يمكن أن يمحى وان تعددت أيضا مظاهره . فان يكن يلذ لى مثلا أن أعرف كل شيء عن القاهرة التى أسكنها فانه يلذ لى أيضا أن أعرف كل شيء عن الربيع الذى يظلها ومظاهره والسر فى تكراره الموسمى . ان معرفتى بالقاهرة تجعلنى أحس المدينة كلها ، ومعرفتى بالربيع تجعلنى أحس الحياة كلها من حولى أيضا .

وعلىّ وعلى الكائنات من حولى يعدو الزمن ويسير بخطاه الرتيبة فى سيره الذى لا ينقطع فاذا أنا والكون من حولى نُرى فى عدة مرايا . الحاضر والماضى ومن يدرى ؟ والمستقبل أيضا ! ولقد حاول الكتاب القصصيون أن يصوروا المستقبل بخيالهم ، والعلم يصور لى الحقائق . ولكن التاريخ يصور لى هذه السلسلة المتصلة ، الماضى والحاضر أو الحاضر فى مرآة الماضى . وانا لنتساءل كيف يمكن لمؤرخ معاصر لم ير شيئا من الحياة على الأرض منذ مئات الأعوام أن يصف هذه الحياة ، ثم كيف يستطيع بقلمه أن يجعل هذا الماضى الميت ينبض بالحياة من جديد ، ليقصّه علينا ويجعلنا نعيش فيه فترة . انها صناعة التاريخ أو فنه وليست هى بالصناعة

اليسيرة وليس الفن فيها الا للعباقرة ، كما هى الحال فى كل نوع من أنواعه . ولئن كان من الصعب أن نصف الوجود والحركة على كوكب فى الجانب الآخر من العالم ، فانه لمن الصعب أيضا ، ان لم يكن من الأصعب ، أن يصف مؤرخ عام ١٩٥٥ مثلا عالما بمن فيه من آلاف الناس والأحداث منذ مئات السنين ، وهو لم يره ولم يسمع عن أحد أخباره الا فى الكتب . هذا مؤرخ اسمه فردود يصف آخر القرون الوسطى فى تاريخه الكبير فيعلق على هذا الوصف بقوله :

« والآن لقد ذهب كل هـذا وانقضى . لقـد انتهى الاستعراض وأطفئت الأنوار ولم يعد هناك شىء . واذا هوة عميقة تفصل بيننا وبين هؤلاء القوم الذين عاشوا فى القرون الوسطى . هوة لا يمكن لنثر المؤرخ أن يجتازها . انهم لن يعودوا الينا . وخيالنا لا يستطيع أكثر من أن يمد خيوطه الواهية اليهم . ولكن فى الكنائس القديمة ونحن نسير فى جنباتها وفى نظرتنا الى رفاتهم حيث دفنوا فى قبورهم ، فى هذا ، وفى هذا وحده ادراك خافت عابر لما كان عليه هؤلاء القوم يوم كانوا يدبون على هذه الأرض ويملأونها حياة . اننا قد نجد فى الانصات الى أجراس الكنائس (بدعة القرون الوسطى) صدى ولو هزيلا من صوت هذا العالم الذى زال » .

بمثل هـذا الحنين والخيال والتواضع يمكن لبعض صفحات التاريخ أن تعين الخيال على ادراك الماضى أو تصوره عبر القرون .

ان مهمة المؤرخ اذن صعبة ، صعبة جدا ولكنها ليست مستحيلة . ويمكننا أن نقسم التأليف التاريخى الى ثلاثة أنواع . نوع هو أشبه بالمستندات التى يمكن أن تحدثنا عن هذا الماضى فى دقة وثقة ولكن من زاوية واحدة . هذه المذكرات — الخطابات واليوميات والتراجم الشخصية وما شابه ذلك — كلها مستندات قيمة جدا للمؤرخين ولكنها هى نفسها نوع من التاريخ نابض بالحياة لأنها تتحدث بلسان مشاهد مشارك فى الأحداث . فهذه مذكرات « عبد من منتسللو » بقلم اسحق ، وهو عبد من عبيد چفرسن العظيم ؛ وقد أملاها العبد على مراسل منذ مائة عام تقريبا فاذا هى أقوال ، نكاد نسمع فيها صوت قائلها ، من رجل عرف چفرسن بالفعل وعاشره عن قرب . وهذا كتاب آخر من نفس النوع ينبض بالحياة عنوانه « خطابات الملازم هويلر » وهى خطابات كان يكتبها هذا الملازم فى جيش ولنجتن لأهله من الميدان يصف لهم فيها مغامراته يوما بيوم . فاذا هى

وثيقة قيمة حية بقلم جندى خاض غمار موقعة « وترلو » بالفعل وكتب وصفها من الميدان بنفسه . وأما النوع الثانى من الكتابة التاريخية فهو النوع المعروف بالبناء الجديد من القليل الذى لدينا . فكثيرا ما تكون مادة المؤرخ نذرة يسيرة فيضطر الى القراءة حول مادته ويضطر الى أن يملأ الفجوات ليوجد الكل المتماسك عن عصر أو شخصية أو موقعة . ولكن هذا الكل يظل مظللا غير واضح الى حد بعيد ولكنه يكسب من هذا الظل جماله . بل ان من المؤرخين من نجحوا فى كتاباتهم لمجرد أنهم تركوا هذه الظلال على ما يؤرخون ، ولم يحاولوا أن ينيروا هذا المظلل بنور صناعى وهاج يسلبه كل جماله . هذه مثلا شخصية الملك آرثر ، كم قد حيك حولها من قصص وكم قد أثير حولها من خيال . فماذا عندنا من مستندات التاريخ عنها . لقد روى بعض الذين عاشوا بعد موته ببضعة أجيال أنه حارب الكفار من غزاة بريطانيا المسيحية الرومانية وكان يلقب لقبا عجيبا هو « قائد الحروب » . لقد حارب فى شتى أنحاء بريطانيا ، وكان معه جنود مسلحون ، وأخيرا قتله رجل من رجاله . هذا هو كل ما وصلنا عن هذه الشخصية التى ملأ صيتها الآفاق . بضعة أسماء وبضع شخصيات ولا شىء بعد ذلك . ولكن من هذا القليل كتب المؤرخ كولنجوود تاريخ آرثر فى

موسوعة تاريخ انجلترا التى أخرجتها جامعة أكسفورد . فخرج من ذلك بأن آرثر لابد كان يحارب من أجل زعماء المسيحية وأنهم كانوا يشجعونه على ذلك ويمدونه بالمال فلم يكن يدافع فى الواقع عن منطقة وانما كان يدافع عن الدين فى كل بريطانيا . ومن هذه النتف أيضا استنتج ان القائد كان يستعمل الفرق المتحركة فى جيشه التى أخذها عنه الرومان فيما بعد . وأن جيشه كان مسلحا وأن خيله أيضا كانت عليها الدروع . لقد كان رمزا لآخر خيط من خيوط أمل البقاء بالنسبة للسلتيين سكان أوروبا الغربية . لذلك ظلت أسطورته عالقة بالأذهان وبعد نحو من خمسمائة عام ظل هؤلاء القوم يرفضون قبول فكرة أنه مات . لقد ظلوا ينتظرونه هذه الأعوام الطويلة ليأتى من جديد ليدافع عنهم وعن قضية بقائهم . لقد كان يستمد قوته من شجاعته ومن شجاعة أتباعه ولكنه كان يستمدها من الخرافات الوثنية أيضا التى كانت شائعة فى هذه المنطقة والتى ظلت تعيش فى قلوب الناس وعقولهم بالرغم من حماستهم للمسيحية . انها هى هذه الخرافات وذاك الاعتقاد فى السحر ، وقد ظلت عالقة بمهد الشعر فى هذه البقاع ، التى أمدته بقوة خارقة .

أما النوع الأخير فهو مزيج من الاختيار والاختصار .

وذلك عنـدما تتوافر لدى المؤرخ ، كما تتوافر له عادة فى التاريخ الحديث ، المواد الكثيرة المنوعة فاذا هو مكلف بأن ينتخب ويختصر ويخرج آخر الأمر شيئا واضحا ويجعل القصة ، قصة هذا التاريخ الذى يؤرخه واضحة مفهومة . انه خليط من العلم الدقيق والتصور الواسع للحياة هو الذى يملى عليه ما يدع وما يأخذ فاذا نجح فى هذا أخرج لنـا صورة من التأليف التاريخى يعدها العلماء المؤرخون الصورة المثلى لعلم التاريخ أو فنه . ان الحياة مشوقة نبيلة جميلة ، والتاريخ الحق هو ما يصورها كذلك . بل ان الحياة أحيانا مضحكة والمؤرخ الحق لا يعدم الوسيلة فى أن ينقل الينـا مفارقات الحياة المضحكة الممتعة فيما يكتب . انه أسلوبه الأدبى المشوق هو الذى يحيل هذه المعلومات الجافة العلمية الى حياة نابضة بالحيوية والقوة .

ان التاريخ لا يثير فينا هـذا الشوق الى معرفة الماضى فحسب ولكنه بعبره يحفز ويشجع . هذه مجموعة المؤرخ آرثر براينت عن « عصر نابليـون » من ثلاثة كتب ؛ وقد راجت فى انجلترا أيام حربهـا مع هتلر فكانت من أسباب شيوع التفاؤل والأمل فى نفوس الشعب . ان نابليون الذى فتح كل أوروبا هزمته انجلترا ، فلماذا لا تهزم انجلترا هتلر ،

وقد هزمت نابليون من قبل . وعندنا فى العربية كتاب مترجم عن نابليون ألفه هربرت فيشر وترجمه مصطفى زيادة ومحمد نوفل .

ان التاريخ أعظم من الحروب . وان تكن الحروب صعبة الوصف بل ان من المؤرخين من يذهب الى أنها مستحيلة الوصف فلا الجند تدرى ماذا يدور فى الحرب فعلا لأنها وسط الغابة لاترى الا الأشجار، ولا القواد أنفسهم يعرفون. ومع ذلك فلقد كتب القواد والجنود عن الحروب كثيرا . وكانت الحروب، لأنها مثيرة مغيرة لمجرى التاريخ ، من أكثر الموضوعات تشويقا للتأليف فيها . ولكن حياة المجتمع ، حياة النـــاس فى السلم وما يتدخل فيها من تيارات مؤثرة ، قد أصبحت فى هذا العصر الحديث مادة مشوقة للتاريخ ، بعد أن ثبت أن الحروب ما هى الا ظاهرة من جملة ظواهر الحياة .

ان المؤرخ الحق يستطيع بخياله وقلمه وحسن استغلاله لمواده أن يبعث لنا الماضى بكل ما فيه من حياة وقوة لنحياه مرة أخرى فنستلهمه ونتعظ بنتائجه ونتعلم منه الدرس الذى علمه لأسلافنا . وانها لمهمة خطيرة جليلة تحتاج اليها الأجيال دائما أبدا .

وتاريخنا فى الشرق طويل عريض يحتاج الى المؤلفات الكثيرة فعصوره ممتدة على رقاع واسعة من الأرض وأزمنة

طويلة من التاريخ . وقد بدأنا بتقسيم عصوره ومناطقه وكثر التأليف فى شتى مناحيه ، تأليف فى عصوره القديمة — الفراعنة وسكان الشرق الأوسط والأدنى فى العصور القديمة. ثم عصوره الوسطى ودولة الاسلام المترامية الأطراف . حتى جاء العصر الحديث عصر العثمانيين ثم الاستعمار الأوروبى والاستقلال الحديث . وليس من السهل أن ندل على كتب بعينها فى كل هذه الميادين . فاذا أضفنا اليها اهتمامنا بتاريخ أوروبا وأمريكا الحديثين على الأقل ازدادت قائمة الكتب عددا . وحسن أن نحدد الميدان الذى به تعنى أكثر من غيره ، أو أن نستشير فهرس المكاتب العامة فيما نريد . ولكن من كتب التاريخ العام — تاريخ العالم بأسره — المفيدة كتاب العالم الانجليزى المعروف ويلز . وقد أخذت صورة عربية له تخرج علينا من ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد تحت عنوان « معالم التـــاريخ الانسانية » . كما تقوم ادارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم بترجمة كتاب « تاريخ العـــالم » لهارتمان وتصدره تباعا (*).

(*) بنى هذا الفصل على مقال — جورج شوارتز G. Schwartz شيرلى بريجز (S. A. Briggs) وجليبرت هايت (G. Highet) من الفصل « نحو آفاق أوسع » .

معجم ودليل

لقد جمعت أيها القارىء كتبا أدبية شيقة وكتبا فى العلم والتاريخ والسياسة وأخرى عن بلادك وبلاد جيرانك وعن الريف وعن المدن والآن أراك أمام مكتبة صغيرة لا بأس بها ولكنها تحتاج الى كتب جوهرية أخرى لم نحدثك عنها . انها كتب لا تستطيع أن تستغنى عنها وفائدتها لذيذة سريعة لازمة. انها المعاجم ، انها الأدلة التى ترشدك الى المعلومات فى اختصار وسرعة . وهذه المعاجم كثيرة منوعة منها القليل الصفحات كدليل التليفون مثلا ومنها الموسوعة الكبيرة كدائرة المعارف. وكل هذه تدل القارىء بسرعة على ما يريد ويحسن ألا تخلو من الهامة منها مكتبة . وأهم ما يميزها من سائر الكتب فى المكتبة أنها لم تجعل لتقرأ من أولها الى آخرها وانما قصد بتأليفها أن تقرأ فقرات منها عند الطلب ووقت الحاجة .

والقراءة فى هذه المعاجم مفاتيح المعارف قد تكون لذيذة فى ذاتها فنحن أحيانا نستعمل المعجم اللغوى لا فى البحث عن معنى كلمة وانما نقرأ فيه الكلمة ومعانيها المختلفة كلها حتى ولو امتدت صفحات فى بعض المعاجم المطولة للذة من

هذا النوع من القراءة بالذات . ولكن الأكثر أننا لا نفتح هذه الأدلة ولا هذه المعاجم الا عندما نكون نريد فعلا أن نعرف فى سرعة ودقة واختصار معلومات عن شىء معين . وهذه قائمة بهذه المعاجم المختلفة لا توجد كلها مجتمعة الا فى المكتبات العامة ولكن يحسن ألا تخلو مكتبة البيت من بعضها حسب احتياج أصحاب المكتبة . وأول هذه المعاجم المعاجم اللغوية فهى ضرورية جدا . ما معنى كلمة « قددا » مثلا فى قوله عز وجل « طرائق قددا » . ما اشتقاق الكلمة وكيف تنطق وما استعمالاتها المختلفة . اننا دائما نقرأ كلمات لا نعرف معناها . ولا شىء يكسب أسلوبنا قوة مثل زيادة محصولنا اللغوى المبنى على قراءة مطولة فى المعجم . وأخصر معجم أعرفه يمكن أن يقتنيه الفرد هو معجم المنجد أو مختار الصحاح . وأما المعاجم القديمة ، كلسان العرب والقاموس المحيط ، فانها ، فوق كونها لها طريقة خاصة فى البحث ، بعيدة عن أسلوبنا العادى الى حد بعيد . والمجمع اللغوى معنى منذ بضعة أعوام باخراج معجم للغة العربية مطول وآخر مختصر . وأهل هذه اللغة الكريمة فى انتظار المعجم الذى طال عليه الأمد بفارغ الصبر . أما فى اللغة الانجليزية فان معجم وبستر من أحسنها وكذلك معجم أكسفورد .

وقد تحتاج الى معاجـم بين اللغتين تفسر الانجليزية الى العربية . وعندنا معجم « الذخيرة العلمية » وهو كبير . و « القاموس العصرى » وهو صغير ، وكلاهما يحتاج الى كبير جهد ليرتفع الى ما يجب أن يكون عليه معجم انجليزى عربى فى مصر بعد انتشار حركة الترجمة .

والكتاب الثانى من نوع مفاتيح المعارف تلك الذى تحتاج اليه المكتبة هو موسـوعة أو دائرة معارف تعرفنا فى اختصـار أى معلومة نريدها بسرعة فى شتى النواحى عن أسماء أعلام أو أمكنة أو مواد أو بلدان أو علوم . كأن نريد أن نعرف منه متى أصبحت جزيرة قبرص تابعة لبريطانيا ، أو ما هو المحصول الرئيسى لجزيرة كريت ، أو فى أى عام مات نابليون ، أو فى أى عام خرج الفرنسيون من مصر بعد حملتهم المشهورة . وهكذا من آلاف المعلومات التى نريد أن نعرفها أو تصادفنا الحاجة الى معرفتها مرات فى اليـوم . والموسوعة البريطانية مشهورة معروفة ويكاد كل بلد أن يكون لهاموسوعة خاصة كالموسوعة الأمريكية والموسوعة الفرنسية والموسوعة الايطالية . واللغة العربية مفتقرة الى مثل هذه الموسوعة ولا نعرف فيها الا دائرة معارف فريد وجدى ثم جزءا مترجما من دائرة المعارف الاسلامية وهى

موسوعة خاصة بموضوعات الاسلام والتاريخ الاسلامى والعربى الى عصور حديثة جدا بأقلام طائفة من المستشرقين ودائرة معارف البستانى .

أما الكتاب الثالث فيحسن أن يكون من هذه الأدلة التى تطبقها بعض دور النشر الكبرى كل عام للاجابة على الأسئلة السريعة باختصار كأن تريد أن تعرف مثلا ما هى الزيادة فى النقد المتداول التى حدثت فى هذا العام ، أو ما هى السرعة التى وصل اليها أسرع قطار فى العالم ، أو كم تكلفت اقامة كوبرى قصر النيل ، أو ما هى المسافة بين القاهرة والاسكندرية بالطريق الصحراوى . وآلاف الأسئلة الكثيرة الأخرى التى تصادفك فى اليوم . وماكميلان دار النشر المعروفة تصدر دليلا سنويا بهذا المعنى اسمه « من فضلك عرفنى » وكذلك تصدر النيويورك تلغراف دليلها السنوى .

والخرائط من أهم وسائل التعريف . فليكن كتاب خرائط كتابك الرابع . وهذه الكتب التى تجمع الخرائط المختلفة قد تقدمت تقدما محسوسا . ويبذل فى سبيلها ، وسبيل اخراجها ، مجهود كبير . لأنها خرائط منوعة منها ما عليها أسماء المدن ، ومنها ما عليها المحصولات ، ومنها ما تبين السكك الحديدية ، ومنها ما ترسم الجسور والمعابر من خلال الجبال وهكذا . وكل خريطة يلحق بها فهرس أبجدى

بالأسماء . وأمام كل اسم ما يدل على موضعه من الخريطة ثم ما يدل على علاقته ، أو موضعه من سائر الأسماء أيضا . ومن أشهر هذه الكتب أطلس أكسفورد الأمريكى ، وأطلس بارثولوميو فى الجغرافيا الحديثة طبعة ماك جروهل عام ١٩٥٠ .

وأما الكتاب الخامس فهو معجم بتاريخ حياة الأعلام معجم تراجم للرجال نعرف منه متى عاش فلان من الناس وبم استحق أن يكون مبرزا فى قومه ، ومتى بل وكيف قام بما قام به من جليل الأعمال . ولقد ينفع فى هذا معجم « وبستر » فى التراجم . وعندنا فى اللغة العربية معاجم كثيرة من هذا النوع منها ما اختص بطائفة كالأدباء مثل معجم الأدباء لياقوت الحموى . ومنها ما اختص بالحكام أو الملوك والأمراء أو ملوك قطر بعينه ككتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ولكن هذه الكتب قديمة .

ومما نفتقر اليه حقا ولكنه عند الغرب مألوف معجم بالتاريخ القومى . يعرفنا الأحداث القومية المعروفة متى حدثت وماذا تم فيها ويعلمنا بالهام عن حياة زعمائنا فى السياسية والفكر والاجتماع ويختصر لنا المعلومات عن معاهداتنا وحروبنا واتصالنا بجيراننا ، كل هذا مرتب ترتيبا

أبجديا بالأسماء أسماء الأماكن والأشخاص والأحداث والمعاهدات والحروب .

ولقد افتنّ الغربيون فى هذه المعاجم فاذا منها ما هو خاص بالأدب مثلا نعرف منه فى سرعة الأهم عن الحركات الأدبية المعروفة وأعلام الأدب العالمى ومذاهب الأدب وأنواع التأليف وهكذا . ولقد ألف وليم روزبينه دليلا فى هذا سماه « موسوعة القارىء عن آداب العالم وفنونه » .

كذلك يحسن أن يوجد بمكتبتنا الخاصة دليل طبى أو صحى يعرفنا أوليات علم الطب والصحة بحيث نفهم مثلا طبيبنا اذا قال لنا مصطلحا من المصطلحات ونعرف الأوليات فى الصحة والمرض التى يمكن أن تعيننا على العناية بأجسامنا وأجسام من عهد الينا بهم من أولادنا .

وتأتى بعد ذلك هوايات خاصة ، من فلك الى تنسيق حدائق ، من أدب الى صناعات منزلية . وفى كل هذه الفنون والعلوم تجد دائما أبدا معاجم صغيرة تدلك على المعلومات الدقيقة المختصرة وتوفر عليك وقت البحث ومشقة الانتقال بين جملة كتب لتصل الى ما تريد .

ولقد مرت بالثقافة الاسلامية فترة كان التأليف فيها يجنح كله الى هذا النحو من كتابة الموسوعات الطويلة فى

فنون العلم والأدب على السـواء . كتب من صنف كتاب « صـبح الأعشى » للقلقشـندى . ولكنها كلها بأقـلام متخصصين ، طولوا فيها فلم تكن فكرة الدليل هى التى قادتهم الى التأليف ، بقدر ما كانت فكرة الموسوعة أو دائرة المعارف . ولكن هذا ، ان كان يعنى أن هذه الكتب ليست فى متناول يد القارىء العادى ، فانه يعنى فى الوقت نفسه ، انها النواة الصالحة لبدء تأليف هذه الأنواع من المعاجم المختصرة التى تقرب العلم للجماهير .

وفى كل مكتبة ركن أو أركان تجتمع فيه هذه الموسوعات والمعاجم كثيرة أو قليـلة ولكنك دائما أبدا تجد أنها أكثر الكتب استعمالا وأكثرها عدد منتفعين بها . انها فى المكتبات العامة الكبيرة تكاد تحتل غرفا كاملة . انها جنود صامتة لنقل المعرفة الدقيقة السريعة فلا تنس أن تحييها كلما دخلت مكتبة من هذه المكتبات واقتن منها الأصل أو المختصرات فانك عادة تكسب أضعاف ما دفعت فيها

(*) بنى هـذ الفصل على مقال تشـالز سو (C. Shaw) من الفصل « نحو آفاق أوسع » .

كيف أختار كتابي؟

جمع الكتب واختيارها

كان اقتناء الكتب الى وقت قريب هواية أرستقراطية لا يقدر عليها الا الأغنياء لأن الكتاب كان غالى الثمن نادر الوجود . وكانت الصورة الشائعة فى أذهان الناس عن المكتبات أنها مجموعة قليلة من الكتب الضخمة المجلدة تجليدا فاخرا يزين بها الثرى قاعة الجلوس وقد يقرأ فيها أحيانا .

أما اليوم فاقتناء الكتب أصبح فى متناول الجميع وأصبحت الفرصة متاحة للجميع لشراء مجموعة ما من الكتب تختلف قيمتها وعددها ولكنها على كل حال تؤدى ما طلب اليها بالنسبة للرجل العادى ، من اتاحة متع العقل والفائدة العملية على السواء . وقد لا تكون هواية جمع الكتب مجرد هواية تمثل ما نحب أن نقرأ فى أوقات الفراغ ليس غير ، وانما يمكن أن تمثل المهنة التى نحترفها خير تمثيل . فلقد كثر التأليف فى كل فن ، بحيث أصبح كل ذى مهنة يجد بضعة

كتب على الأقل فى هذا الفرع من العمل الذى يتيح له رزقه فى هذه الحياة . بل ان الرجل العادى ليجد الآن فى ميدان الكتب كمية أكبر مما كان يجدها الرجل الأرستقراطى فى الزمان القديم ، فى الفرع الذى كان يريد أن يقرأ فيه . بل انه ليجدها كثيرة منوعة وما عليه الا أن يختار . وقد تختلف قيمة هــذه الكتب حتى فى الفرع الواحد ، حتى لو كان هذا الفرع عمليا ، اختلافا حسب شخصية الفرد . فلنفرض أننا نعمل فى الميكانيكا . فهذه كتب فى الميكانيكا قد مر عليها نصف قرن من الزمان ، فاذا هى بالنسبة للرجــل العملى لا تساوى شيئا ، لأنه يريد أحدث الكتب فى هذا الفرع ، ليمكن أن تعينه على أداء عمله اليومى على خير وجه . ولكن هذا فرد آخر يرى فى قراءة هذا الكتاب القديم لذة من نوع بعينه ، لذة المقارنة بين ما كان عليه هذا الفرع من الميكانيكا منذ نصف قرن وبين ما هو عليه الآن . ان مجرد لمح اتساع خطوة التقدم يلذه . والتأمل فيه يراه مفيدا كل الفائدة . ومن يدرى لعل هــذا التأمل يوحى اليه بعمل شىء جديد فى الميدان .

ومهما يكن هذا العمل الذى نتخصص فيه ومهما تكن الهواية التى نهواها فانه يحسن أن يكون وراء جمعنا الكتب

لمكتبتنا فكرة واضحة بحيث لا نشترى الكتب خبط عشواء لمجرد أننا نغرى بالعنوان أو نرى أنه مفيد . فأكثر الكتب مغرية العنوان وكلها مفيدة فى ناحية ما بشكل ما . وانما اذا حددنا ميلنا أو استعنا بالقراءة وارشاد المختصين على تحديد هذا الميل ، أخذنا فى القراءة حول موضوع معين ، وأخذنا فى جمع الكتب فتكسب مكتبتنا قيمة من هـذا التخصص ونكسب نحن تحديدا لهدف القراءة يثمر آخر الأمر . وليس معنى هذا أننا نقرأ فى موضوع واحد ولا شىء سواه ولكن معنى هذا أن نقرأ أكثر ما نقرأ فى موضوع بعينه وأن نقرأ لماما فى الفروع الأخرى التى لا يستغنى عنها المثقف العادى كالأدب مثلا .

ومما يعين على اختيار الكتاب الخاص بفرع بعينه أن نكثر من زيارة أقرب مكتبة عامة الى بيتنا حيث نجد الفهارس الجديدة وقد رصدت عناوين الكتب ثم قالت لنا شيئا عنها يعين على تقدير الكتاب نوعا من التقدير قبل شرائه . وكذلك يحسن أن نستعين بالكتبى الذى نعامله فنسأله عما نريد ونزور مكتبته ونقضى فيهـا بعض الوقت مقلبين الكتب محاولين الاختيار وقد نبتاع كتابا واحدا ولكننا نكون قد قررنا بالاختبار عدم شراء عشرة من نوعه .

كذلك نستطيع أن نستعين بالمجلات التى تعنى بالفرع الذى نهتم به فانها كثيرا ما تستعرض الكتب الحديثة التى

ظهرت فى هذا الفرع الذى تصدر فيه المجلة ، وبقراءة مراجعة الكتب التى تستعرضها نستطيع أن نسترشد الى حد بعيد فيما نريد شراءه من كتب . وقد يرشدنا أيضا كتاب كتبه هاو من هواة جمع الكتب يرينا كيف كان هو يسترشد فى جمع مكتبته التى شهر بها مثلا .

وليست هواية الكتب كما أسلفنا من الهـوايات التى تتطلب المال الكثير فى هذه الأيام . فالهيئات والحكومات عامة تعمل على تقريب الكتاب الى القراء . اننا بثمن علبة سجاير واحدة يمكن أن نشترى كتابا ويمكن أن نوفر من التدخين وحده ما يكفل لنا مكتبة قيمة ، وان تكن قليلة عدد الكتب ، على مَرّ الأعـوام . ان الكتب تطبع أكثرها فى طبعات رخيصة . ثم ان اقتناء الكتب المستعملة لم يعد شيئا غريبا شاذا . ان أسوارا بعينها فى بعض المدن الكبرى عرفت بأنها تستعرض مئات الكتب المستعملة بأرخص الأثمان . فهذا كورنيش نهر السين فى باريس ، وما يصفف على ســوره من الكتب ، صورة يعرفها كل من زار باريس . وقلما يمر بها فلا يقتنى منها كتبا قيمة بأرخص ثمن مستطاع . وعندنا فى القاهرة سور حديقة الأزبكية وله بضعة أعوام يحمل مئات الكتب التى تباع بلا ثمن تقريبا لرخصها لأنها مستعملة . ان الكتبى عادة فى مثل هذه التجارة المحدودة قد لا يفيدنا كثيرا فيما يمكن أن نستدل منه عليه ، ولكنه سمح ، طيب

القلب عادة ، يسمح لك بأن تتصفح ما شئت من الكتب الموجودة وقد يحاول اغراءك فى سذاجة بشراء كتاب ، لأنه فيما يزعم يفيدك فائدة محققة .

كل هذا ممكن ولكن يحسن أيضا أن تتعود على أن تبحث عن الكتاب الجيد فى فهارس الكتب ومراجعها . ولا تهولنك كلمة مراجع فتحس أنك أمام لفظ علمى خطير . فما المراجع الا قائمة بأسماء الكتب فى موضوع بعينه وقد وضعت الى جانب كل عنوان بضع كلمات مختصرة تصف محتويات الكتاب . كما تجدها فى فهارس المكتبات العامة فى صورتها المختصرة كل الاختصار .

كذلك تعود أن تبحث عن الكتاب فى كل مكان يمكن أن تجده فيه — فى المكتبات العامة وفى محال بيع الكتب وفى الشوارع على الأرصفة وفى أكشاك بيع الصحف بل مع باعة الصحف والكتب المتجولين . ستتعب قليلا أول الأمر ولكن الزمن سيحيل تعبك بعد حين الى هواية لذيذة ممتعة تبدل لك التعب فائدة وتحيل الوقت الذى أنفقته الى متع لا نهاية لها .

انه يا بن النصف الثانى من القرن العشرين ، لا عذر لك اذا فاتك ركب القارئين فتقدموا عليك فى حياتهم ونعموا بها

وظللت أنت حيث أنت متخلفا وحدك تندب الحظ . ان الكتب من حــولك فى كل مكان وجمــاعات من المعلمين والآباء والمشتغلين بالكتب يحاولون جاهدين أن يناولوك الكتاب يدا بيد ويقولوا لك هاك كرسيك استرح عليه واقرأ .

ان العاملين عــلى تقريب الكتاب اليك كثيرون . منهم الذى يحدثك عن الكتاب فى الصحف أو الاذاعة ، منهم الذى يقف فى المكتبة ليعاونك على ايجاد الكتاب ومنهم الذى يعد ميزانية المكتبات العامة أو يعمل على توفير الميزانية لها ، ومنهم الذين يتخذون تأليف الكتب عملا فى الحياة أو نشر الكتب وطبعها رسالة ومهنة . كل هؤلاء فى مصر يوجدون ولكن فى أمــريكا الى جانب هؤلاء جمعيــات ومنشآت ومؤسسات عديدة تعمل وتعمل وتجاهد وتحاول أن توحد الجهود لتقوى وأن تتصل لتفيد من الترابط والاتصال قوة وكل هذه الجماعات تعمل لتقرب اليك الكتاب فما عذرك اذا لم تقرأ ؟

هذه أخبــار الكتب تحملها اليك المجلات والصحف والكتب . فلا تكاد تجد جريدة أو مجلة يخلو فيها عدد من الكلام عن الكتب . ومنها ما خصص مكانا دوريا للكتابة عن الكتب كما تفعل جريدة الأهرام مثلا ولكن العدد الذى تخرجه المطابع من الكتب لا يمكن أن تحصيه هذه العجالات . ففى

أمريكا مثلا يصدر أحد عشر ألف كتاب جديد فى كل عام وما يصدر منها فى مصر وان لم يحص احصاءً رسميا فهو يتعدى المئات . فلا يمكن لمراجعى الكتب فى هذه المجلات أو الصحف أن يتحدثوا عن كل ما تخرج المطابع من كتب . ولكنهم ينتخبون من هذه الكتب ما يرون أنه يستحق الاشارة اليه وما يقدرون أن الجمهور يمكن أن يقبل على قراءته ودليلهم فى ذلك خبرتهم الطويلة وربما بعض الاحصاءات الرسمية التى يكلف بها الأمريكيون مثلا عن عدد القراء فى كل نوع من أنواع التأليف وعدد القراء الذين قرأوا كتابا بعينه . وانى لأذكر أن دار الكتب كانت تنشر احصاءً عن عدد القارئين لبعض كتب بعينها فى الدار للمقارنة والفائدة من مثل هذه الاحصاءات . وهى تنشر كل عام احصاءً بعدد المترددين والمستعمرين فى الخارج وقد تصنفهم حسبما يستعيرون من كتب فاذا الغالبية العظمى تختار القراءة فى موضوع القصص . وهذا ما يحدث عامة فى سائر بلدان الدنيا .

ومن الصحف الأمريكية ما تجعل مراجعة الكتب بابا واسعا فى ملاحقها الأسبوعية وقد تقبل الاشتراك من القراء فى الملحق عن الكتب وحده . وكذلك تعنى مجلات كمجلة تيم ونيوزويك ونيويوركر بأخبار الكتب ، ولكن ضيق المكان

عادة يحول دون الاحاطة فى هذا الموضوع . فان الصحف الأمريكية تتعرض الى مراجعة نحو من ألف وسبعمائة كتاب سنويا بينما المطابع تخرج كما أسلفنا أحد عشر ألفا . ومعنى هذا أن ما تقدمه الصحف والمجلات والاذاعة أيضا لا يكفى . وانما لابد من نشرات ، أو كتب خاصة ، لتعين على تتبع المطابع فى حركتها السريعة الدائمة التى لا تفتر أبدا .

وهناك مثلا مجلات خاصة بأخبار الكتب . هناك « أسبوعية الناشر » وهى لا تكتب الا عن الكتب التى صدرت فى الأسبوع مع بعض الملاحظات عليها وبعض الاشارات الى ما تعتزم دور النشر طبعه فى المستقبل القريب . وهذه « المجلة الأسبوعية » تصدر كل ثلاثة أشهر حسب فصول السنة عددا خاصا تتوسع فيه فى هذا النوع من الارشاد الى الكتب .

وفى أمريكا أيضا وجدت بعض المؤسسات الخاصة التى أخذت على عاتقها مهمة ارشاد الناس فى عالم الكتب الى ما يرغبون، مثل المؤسسة التى تديرها السيدة فرجينيا كيركس.

وكذلك تصدر دور النشر عادة سجلا كل عام بأسماء الكتب التى طبعتها وقد عنيت بعض الهيئات فى أمريكا بأخذ هذه السجلات وهى تبلغ أكثر من خمسمائة لاخراجها فى

صورة كتاب يتضمنها جميعا مفهرسة مبوبة بحيث يجد القارىء في هذا الكتاب السنوى القوائم ، التى رصدت كل ما يمكن أن يكون قد صدر فى العام من كتب فى كل فرع ، مع كلمة قصيرة عن كل كتاب تبين لنا شيئا عما فيه .

ويكفى أن يرسـل القارىء الى أية هيئة معنية بنشر القراءة أو تعميم المكتبات ليجد بغيته فى الحال من هـذه الدوريات أو النشرات التى تدله على ما يريد .

ومن هذه المجلات ما تتخصص فى الارشـاد الى كتب بعينها ، فى ميادين معينة ، مثل مجلة « الهورن » التى تصدر نصف شهرية وبها كل ما يمس التأليف فى كتب الأطفال . وكذلك تفعل بعض المجلات المتخصصة فى بعض النواحى الفنية أو العلمية الخاصة .

وأشهر كتاب يعتبر دليلا جامعا فى عالم الأدب هو كتاب بسى جراهام . وعنوانه « الدليل العام الى ما طبع من كتب الأدب قديما وحديثا » والكتاب يشبه طريقتنا القديمة العربية فى التأليف فى فهرسة الكتب . فهو يذكر اسم المؤلف تحت نوع الأدب الذى تخصص فيه ويذكر شـيئا عن المؤلف مختصرا يعرف به .

ولقد كانت لنا سنة حسنة فى هذا الموضوع . استنها منذ قرون فى تاريخ الكتاب العربى على هذا النحو بالذات ابن النديم بكتاب « الفهرست » المعروف ، الذى تجد فيه أبواب

العلم أو التأليف مرتبة . وفى كل باب مقدمة تعرفك بالباب وما يشتمل عليه . ثم يدلك فى ايجاز عن أهم المؤلفين فى هذا الباب ويعرفك بهم وبأهم ما ألفوا ويدلك على ما بقى من كتبهم وما قد ضاع . وهو حريص على أن يقول عما رأى من كتب انه رآه ، وعما سمع باسمه انه سمع عنه ، وهكذا ، فاذا هذا الكتاب مرجع من أهم مراجع التاريخ فى المكتبة العربية قد جمعت فيه أسماء الكتب القديمة والجديدة التى كانت معروفة فى العالم الاسلامى كله الى عصر ابن النديم أى الى آخر القرن الرابع الهجرى أو أوائل القرن الحادى عشر الميـــلادى .

ومثل هذا الفهرس فى المكتبة العربية نادر قليل نضطر الى أن نعبر قرونا حتى نصل الى مؤلف آخـــر مثله ، هو « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » لمؤلفه التركى حاجى خليفة وقد أصـــدره فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى . وأما فى العصر الحديث فعندنا كتاب المستشرق بروكلمان الذى مات حديثا وهو أوســـع كتاب مراجع فى المخطوطات نعرفه ، وان يكن قد مضى عليه زمن .

وفى مصر تصدر ادارة الثقافة منذ عام١٩٤٨ سجلا ثقافيا تبذل فيه جهدا ممتازا لاحصاء أنواع النشاط الثقافى فى مصر كلها ، وأهم باب فيه باب الكتب الجديدة . وكان آخر سجل نشرته منذ أشهر وفيه ثبت بأسماء الكتب التى صدرت حتى

آخر سنة ١٩٥٢ وتعريف بها فى جملة أسطر . وتقوم بعض هيئات بمراجعة الكتب مراجعة علمية فى مجلتها كما تفعل مجلة المعهد المصرى والمعهد الفرنسى ثم مجلة معهد الدراسات الشرقية التابع لدير آباء الدومينكان . وكذلك تفعل مجلة رسالة الاسلام أحيانا .

وتعنى بعض دور النشر كدار المعارف باخراج نشرة دورية أسبوعية تقريبا لتتحدث فيها الى المتعاملين معها عما تطبع من كتب فى مختلف الفنون والفروع .

ولقد اهتمت الاذاعة حديثا بتحديث الناس عن الكتب وان كان هذا الاهتمام لم يصل بعد الى أن يكوّن بها برامج خاصة لتشجيع السامعين على القراءة . ولكنا نجد فى برامجها العامة سلسلة أحاديث عن «مطالعات» وعن «أخرجت المطابع» كما يحرص كل ركن على أن يحدث مستمعيه ، ولو مرة فى الشهر حديثا عن الكتب كما يفعل ركن المرأة وركن الشباب . وقد أخبرت أن هذا الباب سيتوسع فيه فى البرنامج العام .

أما الهيئات المختصة عندنا ، هيئات المكتبات العامة ومكتبات المدارس فان نشاطها فى هذا الميدان حديث جدا كثيرا ما يتعثر ويصطدم بعقبة قلة الموارد فيتوقف . ولعل ما يجعل جهود هذه الهيئات قليلة فاترة أن الرابطة العامة

بينها لم توجد بعد وأن الاحساس بنشر الوعى القرائى على أنه عمل وطنى مجيد يستحق أن تكرس له الجهود بل الحياة لم ينتشر بعد بل لم يوجد الوجود المطلوب .

ولكننا نأمل كثيرا كلما راقبنا حركة نشر التعليم والتوسع فيها . فمن اباحته الى فرضه الى جعله بالمجان بنص الدستور، الى هذا النشاط الدائب فى بنـاء مئات المدارس كل عام فى هذا العهد الجديد الى احساس المسئولين بأن الوعى الحق والرأى العام الصحيح لا يمكن أن يتكون الا لدى أمة يقرأ أفرادها ويفهمون ما يقرأون ، الى شتى الجهود المنوعة فى نشر الثقافة والوعى القومى ، كل هذا فى نفسه يبشر فى ميداننا ميدان القراءة بالخير الكثير ان شاء الله .

خذ من الكتاب ما شئت :

أما وقد ظفرت بكتاب بعد هذه الاستعانات أو بعضها فماذا أنت فاعل به . انك تريد أن تقرأ ما يفيدك وما يفيدك بالذات وحده ولا تريد شيئا سواه . وقد تريد الكتاب لتقرأه كله بل لتدرسه بامعان ، وقد تريد أن تأخذ فكرة سريعة عنه دون أن تهتم بالتفاصيل ، وقد تريد أن تقرأ بعض فقرات هنا وهناك تتعلق بموضوع أو فكرة فيه ، وقد تريد منه فقرة بالذات أو سطرا أو ربما جملة بعينها .

ولابد لك من التجربة الكثيرة لتعرف كيف تصل من الكتاب الى ما تريد . وهذه التجربة لابد منها لأنها مفيدة للغاية فقد تعبر فوق صفحات كتاب وأنت فى الواقع محتاج الى كل التفصيلات فيه ، وقد تقرأ وتقرأ وتضيع الوقت والجهد فى قراءة ما لست بحاجة اليه . وليس هناك قانون يمكن أن يرشدك الى السر فى هذا ولكن هناك بعض الأمثلة التى قد تعين .

هذه قصة ليست بقلم كاتب ممتاز وأنت تقرؤها لمجرد قطع الوقت فأنت تقرؤها بسرعة وقد تقفز فوق بعض فقراتها، انك تقرأ لمجرد التسلية ولا تجد بعد حين أنك قد تذكرت شيئا خاصا بها فلا تتعب نفسك بالتمعن والتمهل فى قراءة التفاصيل . وهذه قصة أخرى ولكنها بقلم كاتب ممتاز . ولا يمكن لكاتب ممتاز أن يكتب أكثر مما يلزم ولا أن يضيف جملا ليست هامة سواء فى رسم الشخصية أو فى تحريك الحياة فى القصة فأنت اذن تقرأ هذه بغاية الامعان وفى منتهى الانتباه بل قد تستعيد بعض الفقرات التى يتجلى فيها جمال الأسلوب لتتذوقه مرة أخرى . وقد تغريك الحوادث المشوقة بالقفز فأنت تريد أن تعرف ماذا حدث بعد ذلك وكيف حلت العقدة ولكنك ستضطر اذا كان

الكاتب ممتازا الى أن تعود الى ما قفزت فوقه لتقرأه من جديد ، ذلك أنك ستحس بعد قليل أنك فقدت شيئا .

وهذا كتاب مثلا عن تاريخ حياة موسيقى مشهور جزء منه فى تاريخ الحياة والآخر خاص بالمؤلفات . وأنت تعنى بالرجل ولا تفقه كثيرا فى مسألة الموسيقى فاقرأ الجزء الذى يهمك واترك الآخر فقد يكون قارىء غيرك لا يهتم بحياة الرجال على ما فيها من تشويق بقدر ما يهتم بالناحية الفنية الموسيقية، فهو اذن يقرأ هذا الجزء الذى عبرت عليه عبورا أو يعبر على ما قرأت . وهكذا ترى أن اختلاف الغاية واختلاف القارىء يؤثران كثيرا فيما تقرأ وما تدع من الكتاب . ولنفرض أن هذا الكتاب بعينه عن الموسيقى المشهور وقع فى يد باحث فى تاريخ الموسيقى يهمه أن يعرف بالذات متى ألفت هذه المقطوعة التى شهر بها هذا الموسيقى لأول مرة ، فهذا القارىء يستعين بالفهرس ليقرأ سطرا أو نصف سطر من هذا الكتاب كله .

من ذلك ترى أن فهرست الكتاب هام جدا فى دنيانا الحديثة التى تمتاز بالسرعة وضيق الوقت . ولكل كتاب ، فيما عدا القصص بالطبع ، فهرست مبوب ييسر استعمال الكتاب . وقد تجد الفهرست فى أول الكتاب ولكنه عادة فى

آخره . وفن الفهرسة ليس سهلا فهو يحتاج الى مجهود ، بل ان الكتاب الواحد ليحتاج الى عدة فهارس . واليك مثلا عربيا دقيقا منها فيما طبعت دار الكتب المصرية من كتب . خذ كتاب الأغانى فستجد فيه « بشار بن برد » مثلا ، وستجد نسبه صفحة كذا ، فخره بهذا النسب صفحة كذا ، مولده صفحة كذا وهذه الطريقة أسلم وأنفع بلا شك من مجرد ذكر الاسم ثم اردافه بذكر أرقام الصفحات دون الاشارة الفرعية الى موضوع هذه الصفحات الداخلة فى العنوان العام.

واذا كان الكتاب فى عدة أجزاء فستجد الفهارس العامة فى آخره . وكتاب الأغانى بالذات له جزء كامل فى طبعة « ساسى » القديمة للفهارس . وفهارس كتاب الطبرى مثلا المطبوع فى هولانده تستغرق جزءا مطولا .

وقد تتعب فى البحث عن بعض الأعلام فاذا لم تجد الاسم فى الفهرس فلا تقفز الى النتيجة السريعة ان الكتاب لم يذكره . قلب الاسم ثم اللقب ثم الكنية وابحث عن كل منها . أو ابحث عن اسم كتاب للمؤلف أو اسم المكان الذى ولد فيه فقد تجد شيئا عنه فى هذا الموضوع وقد يدلك ما وجدت على ما لم تجد فى مكانه .

وفى أكثر الكتب تجد ثبتا مفصلا بمحتويات الكتاب وقد

تجد هذا الثبت مختصرا فى الفهرس العام أو تراه مفصلا فى أول كل فصل أو باب . كذلك مما يعين على البحث فى الكتب غير القصصية ، تلك الطريقة الجديدة من طبع اسم الموضوع فى طرف الصفحة من أعلاها ثم ذكر اسم الكتاب فى الصفحة المقابلة فى الطرف الأعلى الآخر . فتستطيع أثناء القراءة أن تعلو بعينك الى أعلى الصفحة لتعرف فى أى باب تقرأ دون أن تضطر الى الرجوع الى بدء الباب أو الى الفهرست .

كذلك ستجد بعد مرانة يسيرة فى قراءة الكتب أن قراءة المقدمة من أنفع الأشياء لمعرفة طريقة تأليف الكتاب وتحديد النقطة التى ألف عنها . ولا يغيبن عن تفكيرك أبدا أن كل الكتب تتبع نوعا من النظام ونهجا معينا فى التأليف قد تتبينه من المقدمة وقد يتأخر ذلك الى ما بعد قراءة فصل أو نحو ذلك . فاذا ما عرفت النهج الذى يسير عليه المؤلف سهل عليك الى حد ما أن تتعرف الى ما تريد معرفته من الكتاب فيما بعد دون أن تضطر الى قراءته من أوله لآخره .

وقد تقرأ فى كتاب فلا تفهم فماذا أنت صانع ؟ لا تدع الكتاب ، وانما استمر فى القراءة فاذا استمررت وظللت غير فاهم فالأرجح انك انتخبت كتابا أعلى مستوى من معارفك فابحث عن كتاب آخر فى نفس الموضوع . فسترى انك قد

فهمت شيئا . ثم عد الى الكتاب الأول فستجد أن بعض المشاكل قد حلت وأن كثيرا من الظلمة قد استنار . ان شمعتين تضيئان دائما ضوءا أقوى من شمعة واحدة . ولا تقلق اذا كان الموضوع بعد ذلك لا يبدو واضحا كل الوضوع . استمر فى قراءة كتاب ثالث ورابع فستصل يوما الى أن ترى الموضوع كله فى وضوح . ولا تنح باللائمة على نفسك اذا لم تفهم فقد لا تكون أنت المخطىء فيما قد وصلت اليه . اسأل مختصا واسترشد برأيه فلقد يكون المؤلف نفسه هو المسئول . وكم من المؤلفين لا يعرفون كيف يكتبون بوضوح . ان الوضوح ، أو ملكة الايضاح ، هبة لا يملكها كثير من الكتاب .

فاذا كنت تستعمل الكتاب للعلم فانه يحسن أن تدون بعض الملاحظات . لا على الكتاب نفسه وانما حيث يجب أن تكون مجتمعة ، فتكسب من اجتماعها الوضوح والارتباط — فى مذكرة خاصة . ولا تكتب ملاحظاتك فى اختصار وانما اكتبها كاملة واضحة فالاعتماد على الذاكرة كثيرا ما يخون فتضطر الى معاودة ما قرأت ولا وقت عندك لذلك . وأكتب دائماً اسم الكتاب ورقم الصفحة أثر كل ملاحظة تدونها لتعرف كيف تعود اليها وأين اذا ما أردت ذلك فى المستقبل .

ولا تتعب نفسك بأخذ الملاحظات الكثيرة لأنها تشغلك فى الواقع من متابعة القراءة ولكن اهتم بها كل الاهتمام اذا كنت تريد أن تبحث بحثا أو تصل الى نتائج تدعوك الى التأليف، وفى هذه الحال لا أملك أكثر من أن أوصيك فأقول رتب ملاحظاتك ، ثم رتبها بكل دقة ، لتستفيد منها دون أن تضيع الوقت هباءً .

وليس من السهل بالطبع أن تختار الكتاب الذى تريد أن تقرأه ولو عرفت الموضوع العام الذى تريد أن تقرأ فيه . لذلك يحسن أن تحدد النقط المعينة التى تعنيك من موضوع بعينه . فان هذا التحديد سيوفر عليك الوقت وسيسهل المعونة على كل من يريد معاونتك على القراءة . اذهب الى المكتبة أو الى الكتبى وفى رأسك دائما موضوع محدد نوعا ما حتى لا تضيع وقته ووقتك . ولا يمنعك هذا التحديد من أن تنفق فى كل مرة تذهب فيها الى المكتبة بعض الوقت فى تقليب الكتب الأخرى بغية استشراف آفاق جديدة للقراءة فى غير الموضوع المعين الذى يهمك فى هذا الوقت بالذات .

ولا تنس أبدا أن تحدد نوع الكتاب . أتريده علميا بحتا أم تريده عاما شاملا أم متخصصا مدققا . ثم لا تنس أيضا — فهذا فى الكتب العلمية هام جدا — أن تنظر فى الصفحة

الأولى ، الصفحة التى عليها عنوان الكتاب ، الى تاريخ الطبع وتاريخ التأليف . فان اختلاف سنة واحدة فى هذا التاريخ قد تترتب عليها نتائج هامة .

ولا تختر الكتب المفصلة اذا ما كنت تريد مجرد فكرة عامة عن موضوع بعينه والكتب المطولة عادة تهم المتخصصين أو الهاوين لهذا الفرع بالذات من فروع المعرفة أما القارىء العادى فتكفيه النظرة العامة . وخير لنا أن نقرأ مائة صفحة فى يسر ولذة من أن نقرأ أضعافها ارغاما ونحن متأففون.ومن يدرى لعل هذه المائة الصفحة اللطيفة اليسيرة هى التى تغرينا بالمزيد . ان الحياة قصيرة ، وخير لنا أن نعرف عن كل فرع من فروع المعرفة شيئا عاما من أن نعرف عن فرع واحد كل شىء ولا نعرف شيئا عما سواه . فالحياة كل وليست أجزاء والعالم المتخصص الذى لا يعرف الا فرع تخصصه منحرف الوجود فى الحياة لا يمكن أن يحياها كاملة .

وطبع الكتاب هام جدا فى تسهيل قراءته ولقد أصبحت طباعة الكتب بفضل التقدم الآلى والفنى فنا عظيما تتنافس فيه المطابع . وقد يكلفها أكثر مما يجب لتوازن أرباحها بأى تجارة أخرى ولكن أصحاب المطبعة والعاملين فيها كثيرا

ما يرون الفخر بما أخرجوا جزءا من الربح ، الربح المعنوى ولكنه ربح على كل حال .

فاذا كان الطابع ينظر الى اخراج الكتاب كفن يفخر بكماله فلا تأت أنت أيها القارىء لتهون من شأن هذا الأثر الفنى فتعلم الصفحات بما يشوهها أو تثنى أطرافها ، بدل أن تستعمل ورقة أو علامة خاصة من الورق للدلالة على الصفحة التى وقفت عندها . ولا تهن الكتاب بأن تستعمله لغير القراءة كأن تسند به شيئا أو تضع عليه كوبة ماء أو عصير أو كأن تقلبه على صفحاته المكتوبة وتضعه مقلوبا على النضد أو المكتب فتتسخ حروفه وطباعته . واذا كان الكتاب جديدا وتريد أن تفتح صفحاته فلا تفعل ذلك كيفما اتفق وانما افتحها بآلة خاصة أو سكين حتى تظل الصفحات مصانة غير ممزقة الأطراف . واعمل العملية كلها مرّة واحدة بحيث لا تتضايق أثناء القراءة فتضطر الى التوقف لاكمال المهمة .

ان احترام الكتاب أدب عرفناه فى الشرق منذ قديم . فلا تخالف سنة الآباء فى تبجيل الكتاب واحترامه وانما عامله على أنه عصارة الفكر الانسانى ومجهود الفرد العظيم وهو بعد تراث الجيل الى الأجيال القادمة .

قدم الكتاب الى غيرك :

وقد يعجبك الكتاب الى حد أنك تريد أن تشرك الناس معك فى متعه . ومن الناس من يتخذون تقديم الكتب الى الناس والتعريف بها عملا من أعمالهم الأدبية أو الصحفية . فاذا كنت تريد ذلك فهاك بعض النصائح التى تسهل عليك مهمة مراجعة كتاب للناس أو تقديمه اليهم .

وأهم هذه النصائح هو أن تشعر الشعور الحق الذى يجب أن يتوافر لدى من يقدم الكتاب وهو التحمس الى التعبير عن ذات نفسك بعد أن قرأت ما قرأت . ثم الاحساس بأنك تساعد غيرك وتدله على ما فى هذا الكتاب من حسنات أو عيوب — شعورك بأنك الدليل الذى يعتمد عليه القارىء فى مشكلة هامة هى مواجهة الفيض من التأليف والرغبة فى قراءته ثم ضيق الوقت واستحالة قراءة كل شىء . والى جانب ذلك يريد القارىء منك أن يسترشد اذا ما قرأ هو الكتاب الى أشياء تغيب عنه .

وهذه نصيحة تبدو لك لأول وهلة أنها سخيفة ولكنها فى الواقع فى محلها وهى : اقرأ الكتاب بالفعل . فكثير ممن يكتبون عن الكتب لا يقرأونها وليس من العسير على القارىء الذكى أن يستشف ذلك مما يكتبون . ان الكتابة حول

الكتاب شيء والكتابة عنه وعما فيه شيء آخر . فلا تحاول أن تخدع قارئك بأنك قرأت الكتاب . انه سيعرف وستدل كتابتك دون شك على حقيقة الحال .

ويجدر بك أيضا أن تقرأ ما قد كتب عن الكتاب قبل أن تكتب أنت ، فآراء غيرك وملاحظاتهم تنير لك كثيرا من الموضوعات وتوجد لك أبوابا للنقاش اللذيذ اذا ما كنت ترى غير ما يرون فى بعض التفصيلات . ولا تقرأ الكتاب كله ثم تعتمد على الذاكرة فيما تريد أن تتحدث عنه وانما اكتب ملاحظاتك أولا فأولا وأنت تقرأ بغاية الدقة واستعمل هذه الملاحظات واستغلها كل الاستغلال فى كتابة التقرير أو التقديم .

ويجدر بك أيضا أن تراجع كل ما يقوله المؤلف بدقة وأن تتحقق من صحته . فاذا ذكر حادثا أو تاريخا أو احصاء فتحقق أنت من أن المؤلف لم يغلط فيما أورد من بيانات . فاذا كان الكتاب مثلا عن الحروب الصليبية فانه يحسن أن تعود الى دائرة معارف عامة لتقرأ مادة الحروب الصليبية قبل أن تحكم على الكتاب . أما اذا كان الكتاب قصة فعندك مجالات أخرى غير التحقيق تجعل تقديمك للكتاب يدل على اطلاع وخبرة . قارن القصة مثلا بما سبق للمؤلف أن ألف من قصص وبيّن مدى التقدم فى فنه ، أو قارنها بما هو مثلها من تأليف

في نفس العصر أو تأليف في نفس الموضوع أو تمثيل لنفس النزعة القصصية وهكذا . ضع الكتاب في مكانه حسب اطلاعك من سائر كتب المؤلف وعصره وموضوعه .

ثم ارسم للتقديم هيكلا عاما ؛ ارسم له الخطة ورتب النقط التي ستتعرض للكلام عنها ترتيبا منهجيا سليما لا يتقيد بالمنطق وحده وانما يتقيد أيضا بالذوق في التفكير . وألق بالك للمقدمة والنهاية بنوع خاص . ان المقدمة هي التي ستشوق القارىء الى أن يستمر في قراءة ما كتبت والنهاية هي التي ستظل في ذاكرته أكثر مما سواها . ان المقدمة الجيدة تسحر قارئك والنهاية الجميلة ستتركه بفكرة يتأملها أو ابتسامة ينعم بها ويذكر ما كتبت من أجلها .

وموضوع الكتاب هام جدا فلا تغفل في تقديمك للكتاب أن توضحه كل الوضوح . وحذار أن يقودك ذلك الى تلخيص الكتاب فصلا فصلا وانما يكفي في الرواية مثلا أن تحدد عصرها ومكانها وأهم شخصياتها والحادث الأساسي الذي تدور حوله الرواية .

وأما أحكامك على الكتاب فتحتاج الى كثير جدا من الاحتياط والعدل . ان هذه الأحكام هي التي سيسترشد بها القارىء فلا تخدعه وقد ائتمنك . وكثيرا ما تتخبط أحكامك

بسبب أنك لم تعرف الغرض الذى من أجله ألف المؤلف كتابه فاذا بك تحاسبه على ما كان يجب أن يريد من غرض وليس هذا من شأنك فى الواقع . لقد حدد المؤلف غرضه وما عليك أنت الا أن تحكم بعد ما تحدد هذا الغرض واضحا هل حقق المؤلف ما أراد أم لم يحققه . ان حقك فى الحكم على الغرض نفسه أهو جليل أم تافه أمر لا ينكر ولكن محاسبة المؤلف على عدم تحقيق ما لم يرد هو نفسه أن يحقق خطأ شائع يجب ألا تتورط فيه .

ولا تزحم مراجعتك للكتاب باعتراضات تافهة يكفى اعتراض واحد من نوع بعينه تتجلى فيه مقدرتك على الاختيار لتدل به على سائر النوع من الاعتراضات . وتجنب بكل ما وسعت ، هذه الجمل العامة الأثرية المرددة . « الكتاب جيد الأسلوب . يؤدى خدمة جليلة ، دليل على فن وبراعة » . وما شابه ذلك من « الكليشيهات » المعروفة . اكتب مجددا فى أسلوبك ، جاعلا كل كلمة تنبع منك أنت ، ومن وحى ظرفك الخاص . انك أنت أنت ولست أحدا سواك . والكتاب هو هو ، وليس أى كتاب آخر . فكيف تتشابه الجمل فى وصف جميع الكتب .

ولا تنس أبدا أن قارئك يريد أن يسترشد بك يريد أن يعرف هل الكتاب يستحق القراءة أو لا يستحق فلا يفوتنك أن تقول له هذا على نحو ما ، بشكل ما (*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقال چون ونترتش J. T. Winterich ومقالى آن ريشتر (A. J. Richter) ومقال ماك كولفن (L. McColvin) ومقال ريموند والترز (R. Walters) وكلها فى الفصل عن « اختيار الكتب واستعمالها » .

الكتاب بين الناشر والمؤلف

التأليف الأدبى :

اننا نمسك بالكتاب ولكننا لا تتصور مبلغ ما قد بذل فيه من الجهد والوقت حتى وصل الى هـذا الشكل الذى بين أيدينا . ان الكتاب يجتاز مراحل عديدة حتى يصل الينا . وأولى هذه المراحل ولعلها أمتعها فى التأمل مرحلة التأليف . ذلك أنه ان يكن ممتعا أن أقرأ الكتاب نفسه فانه لمن الممتع حقا أن أقرأ كيف ألف الكتاب .

ترى كيف تصور أبو العلاء مثلا « رسالة الغفران » . ماذا قرأ قبل أن يؤلفها وكيف كان يؤلفها . وما الذى أتى شكسبير بفكرة « حلم ليلة صيف » . ولماذا كتب تولستوى كتابه المعروف « الحرب والسلم » سبع مرات ، وكانت زوجه تبيض له المسودات فى كل مرة ؟ ترى أكان يزيد أم كان يحذف أم كان يؤلف من جديد فى كل مرة . كل هذه أسئلة مثيرة ، لذيذ أن نتتبعها ونعرف فيها بعض الحقائق ان لم يكن كلهـا .

كيف صنع هذا الشىء ؟ سؤال لا يلقى فى الأدب وحده فتتيح لنا الاجابة عنه تقديرا جديدا لهذا الشىء ؛ ولكنه حتى

فى الماديات يتيح لنا هذا التقدير الجديد . هذا مثلا جسر « كوبرى » قصر النيل أو تلك هى القناطر الخيرية ، كيف بنيت ومن بناها وهل بُنيت لأول مرة هكذا ، أم أن الفكرة أول أمرها كانت شيئا آخر ؟ كل هذه معلومات لو عرفناها وعدنا ننظر الى الشىء لوجدنا فيه معانى جديدة ، ولأثّر فى نفوسنا تأثيرا أعمق . بل ان تقديرنا للشىء نفسه يزداد .

كذلك الأمر بل هو أشد وأكثر فى المؤلفات الأدبية . ان القصيدة ليست مجرد زفرة زفرها الشاعر . وانما هى فكرة ربما مرّت بمئات العقول ، ثم انتقلت من رأس عبقرى الى رأس عبقرى آخر حتى وجدت الشاعر الذى عبر عنها التعبير الأسمى فخلدها على هذا الشكل بعينه .

وهذا كتاب مشوق فى هذا الموضوع . هو مذكرات هنرى جيمس الروائى الأمريكى المعروف . وهو كتاب كبير نشرته مطبعة أكسفورد يحوى كل المذكرات والملاحظات التى كان يكتبها الروائى العظيم لنفسه لا بقصد النشر ، وقد جمعت من تسع مفكرات خاصة مملوءة بأسماء أو ملاحظات أو فكرة أو حادث وقع له فأثر فيه فدونه بقصد استغلاله فيما بعد فيما سيؤلف . ومن هذا الكتاب يتضح لنا أن الروائى لم يكن يهتم بالحياة الفكرية أو الدينية أو الفنية

وانما كل اهتمامه كان بالحياة الاجتماعية فهى المنبع الذى كان يلهمه دائما أبدا بالموضوعات الروائية . هـذه قصة سمعها على مائدة العشاء من سيدة أعجبته فكرتها فهو يدونها وتظهر فيما بعد له رواية عقدتها هى نفس عقدة هذه القصة . وتلك قصة أخرى قصها عليه أسقف كنتربرى عن امرأة مجهولة فاذا هى تفجر بعد أعوام أشهر رواياته .

وقد يدور الموضوع نفسه بين عدة مؤلفين ونرى كلا منهم بعد أن قرأ الموضوع عند غيره يحرفه ويدوره . هـذا جى دوموبسان ، أو القصة القصيرة فى الأدب العالمى كما يعرف ، له قصة معروفة اسمها « العقد » . بل له فيما وجدتُ قصتان حول عقد من اللؤلؤ المزيف . الأولى تروى كيف حرمت سيدة نفسها طوال الحياة من كل شىء لتسد ثمن عقـد لصديقة استعارته منها وفقدته ، ظنا منها أنه لؤلؤ حر ، وبعد جهاد أعوام وحرمان سنين تعرف من الصديقة أن العقد كان زائفا . والثانية يعرف فيها الزوج ، بعد وفاة زوجه ، أن عقدها وحليها التى كانت تزعم له أنها زائفة ، كلها حرة حقيقية فينوء تحت ألم سؤاله نفسه من أين لها هذا ؟ ونشر هنرى جيمز نفس هذا الموضوع عام ١٨٩٩ تحت عنوان « لآلىء من الشمع » .

وجاء « سومرست موم » واستغل الموضـوع مرتين حسبما أعرف فى قصصه القصيرة فى قصة « سيّد العارفين » وقصة « عقد من الخرز » .

وهذا كتاب آخر فى الموضوع قيم جدا اسمه « قصائد فى دور التكوين » ، القصد فيه الابانة عن الكيفية التى يكتب بها الشعراء قصائدهم بالتفصيل . ومؤلفتـه فيليس بارلت قد حاولت أن تدرس فيه أحوال الوحى وطرق التأليف عند شعراء اللغة الانجليزية — الانجليز والأمريكيين — فاذا هى تعرض علينا صورا طريفة وأسئلة أطرف . أيؤلف الشعراء وفق نظام معلوم . هذا هو الشاعر ويتمان مثلا كان يكتب قصاصات عجيبة ويضعها فى ظروف ويربطها بالخيط . ولما كان يشعر بأنه يريد أن يكتب كان يضع اللوح على ركبتيه ويداعب قطته ثم فجأة ينزل عليه الوحى واذا افتتاحية عظيمة يتدفق بعدها شعر كثير : أما الشاعر براوننج فلقد كان يكتب نثرا ما يريد نظمه على لوح ثم يحوله كلمة كلمة أو جملة جملة أحيانا الى شعر . ودراسة الابداع الفنى وأطواره وألوانه باب جديد من أبواب النقد الأدبى قد فتح الكلام فيه بعض النقاد عندنا ، ثم أتى كتـاب الدكتور مصطفى سويف فى « علم النفس والابداع الفنى » فأرانا ، لأول مرة ، صورة ما

من هذا التأليف عن كيف يؤلف المؤلفون : أما الكتب فى هذا الموضوع فى اللغات الأخرى فأكثر من أن تحصى .

ولكن هذا نوع جديد من التأليف فى هذا الميدان ؛ تأليف حول منابع أثر فنى معين وبالذات : هذا كتاب ليفنجستن لويس ، وعنوانه « الطريق الى كزانادو » : وموضوع الكتاب فى اختصار هو الكتب التى قرأها الشاعر الانجليزى الأشهر كولردج التى تدخلت فى تأليفه قصيدتى « الملاح العتيد » و « قوبلاخان » . وقصيدة « قوبلاخان » كما هو معروف ، ألفها الشاعر أثناء نومه فى نحو من مائتين وخمسين بيتا فى ثلاث ساعات . ثم أفاق وجلس يكتبها . فاذا رجل يدخل عليه فى البيت الرابع والخمسين ، ليحدثه فى أمور مصلحية فيتوقف ولا يعود بعدها أبدا الى اكمال قصيدة ألفها فى نومه . لقد نسيها . فكيف ألف هذه القصيدة ؟ هذا كتاب مثلا عنوانه « حج برنشاس » ، كان يقرؤه كولردج عندما نام والكتاب مفتوح على صفحة فيها هذا السطر « وبنى قوبلاى خان لنفسه فى كسانادو قصرا منيفا » وقصيدة كولردج كما نعرف تبدأ بمثل هذا البيت « وفى كسانادو أمر قوبلان ببنـــاء قبة منيفة » . وبعد أن تتبع المؤلف لويس ، بقلمه الساحر ، أبيات القصيدة ، اذا بنا نرى نحوا من سبعة أو ثمانية عناصر —

كتب وأشعار وأساطير — تتداخل كلها ، لأن الشاعر قرأها كلها ، فى تأليف تلك القصيدة الواحدة .

ويشير لويس فى كتابه هذا الى نفس الفكرة فى التأليف العلمى ، فى كتاب پوانكريه عن « العلم والمنهج » . حيث يصف العالم أطوار الفكرة العلمية حتى تظهر على الكتاب من حال البحث المستمر الى حال الوحى أو لمح صلات جديدة بين ما يظن أن ليس بينه صلات ، ثم اعمال العقل فى تبيان حقيقة هذه الصلات وأسبابها . ان النظريات العلمية لا تأتى نتيجة العمل الدائم المستمر . انها ومضة من الوحى ومضة من كشف صلة معينة بين المرئى وسببه ثم بحث وتدقيق فى التفسير . ان نيوتن لم يصل الى نظرية الجاذبية لأنه بحث طويلا وانما منظر التفاحة المتساقطة أوحى اليه أن هناك صلة بين الأرض والتفاحة تجعلها حتما اذا انفصلت عن فرعها فى الشجرة تسقط عليها ، ما السر ؟ ثم عمل متواصل حتى يكتشف وهكذا . ان نظرية التطور لاحت لداروين أيضا لا نتيجة درس وانما فى ومضة وحى خاطف أو رؤيا حالمة . ان الكشف عن هذه العملية عملية التوليد والتفريخ فى المخ للفكرة أو لومضة الوحى ، موضوع مشوق فى التأليف . ذلك انه يرينا أن الحياة كلها عبارة عن حركة وتغير مستمرين ،

وان هذه المؤلفات — مؤلفات الأدباء والعلماء — ليست الا كائنات حية خصبت ونمت فى أطوار ولأسباب ولكنها كالروح كانت أول أمرها لمحة أو نطفة أرادها الله أن تحيا .

التأليف العلمى :

وكما أن التأليف حول الانتـاج الأدبى ممتع فكذلك التأليف حول العلم . ان القراء فى حاجة تتزايد كل يوم الى التأليف العلمى . انهم يسمعون كثيرا عن الذرة ويريدون أن يعرفوا ما هى وماذا يمكن أن يكون شأنها فى المستقبل . وهم فى أعمالهم يحتاجون الى الكثير من القراءة العلمية ولكنهم يحتاجون اليهـا مبسطة مفهومة واضحة . ولابد للتأليف العلمى من شروط أساسية حتى يؤدى غرضه لدى القراء . لابد من أن تكون المعلومات دقيقة وفى الوقت نفسه يجب ألا تكسبها الدقة جفافا ينفّر منها . وهنا تتجلى مقدرة المؤلف فى العلوم . ولابد له أيضا من أن يكون واضحا كل الوضوح فلا يستعمل كلمات غير محدودة . ان صنعة الشعر والأدب تكسب كثيرا من الجمال من غموض التعبير أو من عـدم تحديد معنى الكلمات بشكل واضح ولكن الغموض يقتل التأليف العلمى وعدم تحديد الكلمة واختيارها بدقة لتدل بالضبط على ما يراد منها يفسد الغرض ويضيع الفائدة منه .

ومن أسباب الغموض أحيانا استعمال كلمات ومصطلحات لا يعرفهـا القارىء غير المتخصص فاذا الكتابة بمثل هـذه المصطلحات تصبح فى الواقع ألغـازا غير مفهومة . وأكثر ما يساعد المؤلفين فى هـذه الصعوبة هو أن يراعوا الذين يؤلفون لهم ويستعملوا بقدر الامكان معلوماتهم هم أساسا للزيادة ومادة يبنون عليها الجديد . ولقـد قيل ان خير من يؤلف فى العلوم للجمهور هم الكتاب غير العلماء أو غير المتخصصين ، ولكن هؤلاء تصدمهم آخر الأمر عقبة أشد هى جهلهم ببعض التفاصيل الهامة فيما يؤلفون عنه . ان التخصص لا يفسد التأليف اذا كان المتخصص متخصصا حقا . فليس التخصص ضيق أفق أو معرفة الشىء الوحيـد وحده وانما التخصص الحقيقى هو معرفة الشىء معرفة جيدة زائد وضعه فى مكانه اللائق من الحياة . لذلك تجد العلماء الحقيقين بهذا الاسم من أوسع الناس أفقا وأكثرهم دراية بالحياة كلها لا بما تخصصوا فيه فحسب . ولذلك تجد العالم أو المتخصص الحق يؤلف للناس دون كبير عناء لأنه يعرف مادته ويعرف الى جانب ذلك علاقاتها بغيرها من مواد المعرفة وموضوعات الحياة . ولذلك تراه يعرف كل شىء عن مادته ولكنه لا يخاطبك من على منبر عال أو يشعرك

بجهلك وهو يكتب لك . ولابد له من درجة من درجات التحمس لموضوعه . ولكن التحمس الزائد عن الحاجة يفسد الكتابة العلمية كما يفسدها البرود التام أيضا . وقد يلجأ عالم الى معلومات مثيرة وقد يحرف بعض الحقائق فى سبيل هذه الاثارة ، ولكن أمره سرعان ما ينكشف ما دامت الحرية مكفولة فى الرد عليه من سائر العلماء .

كذلك تختلف الكتابة العلمية بالنسبة الى القراء الذين يراد لهم قراءة الكتاب هل هم طلبة علم ، هل هم هواة ، هل هم مجرد طالبى معرفة ، هل هم علماء متخصصون ، وهكذا . ولكن الكتاب العلمى الذى يحدث فى الجمهور عامة رجة لما يحمل من فكرة علمية ثائرة على القديم يجب أن يتلقى من الجميع على السواء بمنتهى الحذر لأن أكثر النظريات الثائرة حقا على القديم التى تقلب وجهة النظر فعلا وتحدث آثارها الخالدة لا يمكن أن يؤلف فيها الا للخاصة من العلماء لأنها لا تظهر الا فى هذا الجو وهى تمر بالمناقشات العلمية الهادئة قبل أن تبرز للجمهور لتبهره أو تقلب أفكاره قلبا عنيفا . لذلك لابد لنا من أن نسأل أنفسنا هل مؤلف الكتاب العلمى عالم حقا معترف بعلمه من زملائه العلماء مشهود له بحرية الرأى واتساع الأفق. ثم نتمعن قليلا ما كتب ، أيتبع الأسلوب العلمى الحر فعلا فلا يقفز الى النتائج ولا يمر عليها مرّ الكرام

وانما يعطيها حقها ولا يتزيد فيها . اذا كان كذلك فى كتاب قرأته له فاقرأ له بعد ذلك كل ما يؤلفه فالخلق العلمى لا يتغير .

التأليف المدرسى :

أما الكتب الدراسية فهذه لها قصة أخرى . فان الكتاب المدرسى لمجرد أنه كتاب ألف للدرس يحمل شيئا فى معناه ينفّر من قراءته . لأن معنى من معانى الارغام يدور حوله . لذلك أخذت أمريكا تتنبه الى هذا العيب فى الكتب المدرسية فوصلت فى ذلك الى نتائج ياليتنا نطبق بعضها .

وأول هذه الحقائق التى اكتشفتها فى مجال هذا التأليف أن المعلم المختص قلما يكون صالحا لتأليف الكتاب المدرسى وخاصة فى المرحلة الأولى من التعليم . ان أحسن المعلمين للأطفال ليس هو الذى يستطيع أن يؤلف لهم أحسن الكتب . لذلك عهدت المدارس فى أمريكا فى تأليف الكتب المدرسية الى كل من يريد ثم تختار المدرسة أنسب هذه الكتب وبذلك أنشأت نوعا من المنافسة المشروعة فى مثل هذا التأليف وتنوعت الكتب المستعملة فى المدارس تنوعا محمودا وعمم منها ما يستحق أن يعمم ومات منها ما يستحق أن يموت ، بناءً على الخبرة والتجارب لا بناءً على الغرض أو التكليف أو الاحتكار . ولذلك وجد التعاون بين المعلم والمؤلف أحيانا.

فالمؤلف يبسط المادة والمعلم يعاون المؤلف بخبرته فى التدريس وحاجات التلاميذ حسبما تبينها والغاية دائما أبدا هى التعليم فى جو يملؤه الحب للكتاب والاقبال عليه . فالعالم يتصور الطالب والمعلم يرســم له ما يعرف الطالب ليبنى عليه فاذا الكتاب لا ينزل أكثر مما يجب ولا يرتفع بحيث يحلق فى السماء ويترك الطالب المسكين على الأرض .

وتعاونت الطباعة أيضا على تجميل هذه الكتب المدرسية وتقريبها الى قلوب التلاميذ . فاذا كتب الجغرافيا مثلا ترسم البلاد بكل ألوانها الزاهية فى حين أنها كانت فى الكتب القديمة ترسم بالأسود والأبيض وحدهما . ولكننا اليوم نستطيع أن نرى مناظر من المدن بألوانها الحقيقية والشخصيات التاريخية بملابسها الجميلة وبكل ألوانها الزاهية فاذا هذه الرســوم والصور تقرب الكتاب الينا . وأما التبويب والتقسيم فقد أخذت الطباعة الحديثة فى التفنن فيه بحيث أصـــبح فعلا يستغل كل امكانياته .

وهناك طريقة عمت مدارس أوروبا أيضا لا أمريكا وحدها وهى تأليف الكتاب المدرسى للتلاميذ ثم تأليف كتاب آخر تابع له للمدرس يعرفه كيف يستعمل الكتاب المعين فى درسه حتى لا تفوته ، فتفوت تلاميذه ، مزايا الكتاب والجمال

أو الدقة فى طريقته . فكتاب المعلم هذا يعاون أيضا على أن يجد التلميذ عند معلمه كل ما يجب أن يجد عنده من معونة وارشـــاد .

وفى الحلقات التى يعقدها المعلم مع تلاميذه فى الدرس وخارج الدرس حول موضوع الكتاب تتبين له مزايا التأليف أو عيوبه ، مزايا الطبع أو عيوبه ، فيكتب للمسئولين عن التأليف أو التعليم فى مدرسته بهذا . وتجد الكتب الأفضل دائما طريقها على ضوء التجارب . واذا المؤلفون يتنافسون والمطابع تتنافس والكل يتنافس أيضا حتى فى ميدان انزال أسعار الكتب الى الحد الأدنى الى التكاليف أحيـــانا . والمستفيد من كل هذه المنافسات الحامية هو التعليم ، هو الصبى التلميذ والمعلم على السواء .

أليست هذه طريقة يمكن أن نوصى بها ؟

كتب للجميع :

وخارج أسوار المدارس مدرسة واســعة هى مدرسة الحياة ، فيها ملايين الراغبين فى العلم والتسلية على السواء ولكن فيها من لا يجدون من ميزانيتهم المرهقة الثمن الكافى لشراء كتاب . فكان لابد من استجابة صرخة الجمهور فى هذا بأن تطبع الكتب طبعات رخيصة تكون فى متناول ميزانية الملايين . ان القارئين قد يكونون طلاب معـــرفة أو طلاب

تسلية أو قوما عاديين يرهقهم الفراغ ويتعب أعصابهم ألا يجدوا تسلية الا رؤية الناس الذين يرونهم هم هم كل يوم . واذا هذه الكتب الرخيصة متع كأرخص ما يمكن أن تكون ، وهى فى الوقت نفسه كأرقى بل كأخصب ما يمكن أن تكون أيضا .

وهكذا تمت هذه المعجزة معجزة اقراء الملايين كتبا فاذا لواء المعرفة والتسلية الحقة المفيدة ينشر على أكبر عدد ممكن، واذا قراء الكتاب بعد أن كانوا يعدون بالمئات فاذا ذاع صيت المؤلف ودوّى فى الآفاق فقد يعدهم بالآلاف اذا هم اليوم يحصون بالملايين أحيانا .

وأول هذه الكتب الرخيصة كانت طبعة « توخنيز » التى عرفها بعض القراء فى مصر أول ظهورها عام ١٨٣٧ ثم جاءت طبعة « ألبتروس » الانجليزية التى أخذت تنشر فى طبعاتها الرخيصة كتبا ذاعت فى القارة الأوروبية كلها ولكن الكتاب ذا الغلاف من الورق ، الكتاب الرخيص حقا الذى غزا ملايين الجيوب كان الكتاب الأمريكى بعد عام ١٩٣٩ . فاذا كتب الجيب تصدر لأول مرة بثمن زهيد لم يكن يتصور أنه يبتاع كتابا واذا الكتاب يوزع مع الجرائد والمجلات فى الأكشاك التى تبيعها . لقد عرفت أمريكا الطبعات الرخيصة قبل هذا التاريخ ولكن بعد سنة ١٩٣٩ وليس قبلها عرضت هذه الكتب

لأول مرة خارج المكتبات أو محال بيع الكتب . عرضته فى الشارع كل بضعة أمتار مع الجرائد والمجلات والسجاير .
فاذا كان فى أمريكا أكثر من ألف وخمسمائة دكان لبيع الكتب خاصة ونحوا من ألف أخرى تبيع الكتاب مع سائر ما تبيع من بضاعة فان الكتاب الرخيص اليوم كتاب الملايين يعرض فى أكثر من مائة ألف دكان للبيع . يعرض فى أكشاك الجرائد وفى محطات السيارات والقطارات وموانىء المراكب والطائرات وفى كل مكان تقريبا .

ولقد بدأت هذه الطبعات الرخيصة بطبع القصص الخفيف الذى تقبل عليه الجماهير عادة ولكنها أخذت تطبع موضوعات أخرى وقليلا قليلا أصبحت تطبع فى كل أنواع المعرفة وأبوابها التى تطبع فيها الكتب الثمينة . بل أخذت تطبع الكتب التى لم تعرف بعد ، كتب الكتاب الرائدين أو الناشئين لأول مرة . بل لقد أثبتت التجارب أن الجمهور لا يقبل على القراءة التافهة اقباله على القراءة الجدية المثمرة . وأصبح الكاتب اليوم يعتمد فعلا على رأى الجمهور لا على رأى طائفة منه وحده . وكثيرا ما كانت هذه الطبعات الرخيصة سببا فى انقاذ كتاب حد من الفشل . فهذا كتاب فاريل الروائى المعروف عن

« لونجان » صدرت طبعته الأولى فلم تبع منها فى العام الأول الا ستمائة نسخة . فلما صدرت طبعته الرخيصة ذات الغلاف من الورق العادى بيع منها أكثر من مليون وأنقذت القصة الخالدة من الفشل وأنقذ المؤلف من الشعور المرير بأنه قد خاب .

ومثل هذه الكتب عادة لا يمكن أن يعتمد فيها على البائع ليدل الشارى على شىء فيها لأن البائع فى الواقع لا يبيعها هى وحدها وهو بحكم صناعته ليس أهلا لأن يدل ويرشد . لذلك تجد عادة المعلومات اللازمة على الغلاف ليعرفك الكتاب نفسه بنفسه . أما كيف يمكن للطابع أو النـاشر أن يبيع هذه الكتب بثمن يبدو فى الواقع أنه لا يمكن أن يربح شيئا فان الرد على ذلك هو فكرة الربح الأقل فى العدد الكبير تعوض الربح الكثير على عدد قليل ، فكرة الانتاج بالجملة فى عالم الصناعات . بل ان هذه الكتب هى التى توازن الميزان التجارى أحيانا فى بعض المطابع الكبرى ، فتحل لها بعض المشاكل الاقتصادية . فهناك كتب لازمة للمعرفة لو بيعت بتكاليفها ما أمكن أن يباع منها العدد الكافى الذى لا تصيب فيه التاجر خسارة . واذن لابد من بيعها بالخسارة وبالتضحية لأنها لازمة للمعرفة . فما الذى يعوض الخسارة فى مثل هذا الكتاب الغالى الذى اضطر الناشر الى بيعه بأقل من التكاليف

لأنه ناشر حريص على أن يكون مساهما فى نشر المعرفة ، لا مجرد تاجر ، ليكسب مطبعته فخرا أو ليجعل لها فى السوق نوعا من المنزلة . انها الطبعات الرخيصة لكتاب يروج تعوضه أحيانا كثيرة هذه الخسارة ، فيرفع منزلته فى عالم الطباعة والمعرفة بالكتاب الجميل الغالى التكاليف يباع رخيصا ، ويرفع منزلته أيضا بالاسهام فى نشر القراءة بين الملايين . وهو آخر الأمر لا يخسر وقد يكسب كثيرا .

ولقد أدت هذه الطبعات خدمات فى عالم نشر القراءة بين الناس . فهذا مثلا مشروع طبق فى بعض مكتبات أمريكا العامة ، وهو حجز رف لهذه الكتب يأتى بها من قرأها ليضعها على الرف فيجد هناك من شاكلتها غيرها فيأخذ بدل ما أودع كتابا آخر وهكذا يستبدل كتابه فيقرأ كتابين بثمن كتاب وقد يقرأ ثلاثة والمكتبة لا تأسى على الكتاب اذا تمزق لأن ثمنه رخيص ويمكن شراء غيره دون ارهاق للميزانية ولكنها تكسب بذلك أنها توقظ الشوق فى القارىء الى المزيد فاذا به يقرأ بعد ذلك وقد يدفع بعد ذلك ثمنا غاليا فى كتاب من نفس النوع الذى أعجبه فى الطبعة الرخيصة .

ومن مظاهر تقدم القراءة عندنا فى الشرق ظهور هذه الطبعات الرخيصة فى عالم الكتب عندنا فى مصر . ولقد ظهرت طبعات رخيصة كثيرة من الروايات الشعبية قبل أن تصدر سلسلة « اقرأ » عن دار المعارف فكانت أول سلسلة

أخذت فكرة الكتاب للملايين أو للآلاف فى الواقع فى الشرق بقصد ثقافى واسع . فنوعت الموضوعات وحرصت على أقلام المتخصصين فى كل فرع وطبعت كتبا مؤلفة لها فى أكثر الأحيان أو معادا طبعها من الطبعات العادية . وما كادت سلسلة « اقرأ » تلقى الرواج الذى لاقته حتى تتابعت السلاسل . فأعادت سلسلة روايات الهلال الكرة للظهور مرة أخرى وخرج كتاب الهلال الشهرى وسلسلة كتب للجميع وكتاب اليوم والكتاب الذهبى وكتابى وأخيرا صدرت سلسلة اخترنا لك وهى آخر هذه السلاسل فى الظهور وأصغرها عمرا ولكن هدفها القومى وتخصصها فى ناحية هامة فى تاريخنا الحاضر كفلا لها الرواج .

وأخيرا ان المدنية التى تتيح للآلاف من أهلها القراءة بثمن زهيد قد لا يزيد على ثمن بضع سجاير لمدنية حقيقة بأن تحيا لأنها ستجد الملايين يحمونها يوم الخطر . وانها لتبشر أيام الأمن بآفاق فى المستقبل كلها نور وتقدم ورقى(*)

(*) بنى هذا الفصل على مقال جلبرت هايت (G. Highet) ومقال تشارلر كيلوج (C. Kellogg) ومقال والترميسون (W. Mason) ومقال رتشارد كروهن (R. Crohn)
وكلها فى الفصل « الكتاب والناشرون » .

شكل الكتاب وأجزاؤه

اذا ما نظرنا فى الكتاب اليوم فانه قلما يخطر على بالنا أن الكتب لم تكن كذلك الا حديثا جدا . لقد عاشت الانسانية عشرات القرون على كتب من نوع آخر ، كتب مخطوطة على ورق تختلف مادته ويختلف شكله عما بين أيدينا . وكان الكتاب عادة أضخم وأندر بل كان غير مباح الا لقلة قليلة من الناس .

حتى هذه الحروف نظن أنها خلقت مع الكلام ، والواقع أن الانسانية مرت بقرون كانت تكتب أو ترمز الى ما تريد فى الواقع بغير الحروف ، كانت ترمز بصورة الى المعنى أو الكلمة كما كان يفعل قدماء المصريين . وقبل التقويم المسيحى ببضعة آلاف من السنين اخترع الفينيقيون لأول مرة الحروف أى الخطوط التى ترمز الى الصوت لا الى المعنى وأخذت هذه الحروف تتطور وتتطور فى كل مدنية وفى كل لغة حتى تعددت وتنوعت بتنوع اللغات .

أما الخط العربى فان أصله مختلف فيه وتدور حول

هذا الأصل آراء علمية كثيرة . وهو بعد قد أخذ أشكالا مختلفة فى العواصم الاسلامية الكبرى بعد الاسلام . فعرف الخط الكوفى والحجازى الخ .. وكانت الكتابة أيام نزول القرآن قليلة غير منتشرة حتى ليقال انه لم يكن فى الحجاز الا عشرة يعرفون كيف يكتبون. فاستخدم النبى (ص) بعضهم كتابا للوحى الكريم . ولما انتشرت الحاجة الى الكتابة وجدت على نطاق أوسع . ونجد تاريخا مختصرا لقصة الكتابة العربية بقلم ابراهيم جمعة فى عدد « اقرأ » الثالث والخمسين .

ولكن نسخ الكتب أصبح فى العالم الاسلامى مهنة محترمة بسرعة شديدة نظرا لانتشار العلم . وكان الوراق يستخدم النساخ . ولكنه كان فى أكثر الأحيان عالما ، فياقوت الحموى كان وراقا وابن النديم أيضا . وكان الوراق العالم هو الذى يصحح النسخ وهو الذى يشرف على تجليدها وبيعها . وانتشرت دكاكين الوراقين فى كل مكان وأصبحت أشبه بالمكتبات العامة يلتقى فيها صفوة العلماء ليتحدثوا فى شئون الكتب . حكوا عن المتنبى مثلا أنه نظر فى كتاب من كتب الوراقين وقلبه طويلا ثم رده لأنه لم يكن يملك ثمنه فلما نهره الوراق لأنه أضاع عليه فرص بيعه لطول ما نظر اليه قال له : « هل أسمعك ما فى الكتاب عن ظهر قلب » وكان

الكتاب ثلاثين ورقة . قال له ان فعلت أعطيتك اياه بلا مقابل ففعل . والقصة ان دلت على قوة ذاكرة المتنبى فهى تدل أيضا على سعة علم الوراقين وتقديرهم للنبوغ والذكاء .

وانتشرت مهنة النسخ وتزاحم عليها الناس فجود الخط وجود وامتدت المدنية فاذا الخط العربى يستعمل فى كثير من الزخرفة فى بناء المساجد أو صنع بعض الأوانى والأدوات . وبلغ التفنن فى الزخرفة بالكتابة فى بعض العصور أوجه ، وكان الترك العثمانيون من أكثر الناس تشجيعا على رقى الخط والتفنن فى الزخرفة فيه .

ولكن عملية نسخ الكتاب كانت بطيئة ، لذلك كان الكتاب الواحد يستغرق وقتا كثيرا وكان بعض الوراقين يلجأ الى الاملاء على جملة نساخ ليخرج بأكثر من صورة للكتاب فى نفس الوقت الكافى لكتاب واحد .

وأكثر الكتب التى تفننوا فى نسخها كان القرآن الكريم بطبيعة الحال، كما كان الانجيل كذلك فى العصور الوسطى فى أوروبا . وفى مكتبة الكونجرس بأمريكا أول انجيل مطبوع . ولكن عندنا فى دار الكتب مجموعة طيبة من المصاحف المنسوخة بأجمل الخطوط وقد تفننوا فى تزيينها بماء الذهب والزخارف الخطية والرسوم الهندسية المختلفة . وكانت صناعة التجليد

والتذهيب من الصناعات القديمة المشهورة . يذكر ابن النديم في مقدمة كتابه الفهرست من عرفوا فيها وشهروا فى عصره أى فى القرن العاشر الميلادى .

وأخيرا فى منتصف القرن الخامس عشر اخترع « يوهان جوتنبرج » المطبعة . فاذا تاريخ العالم يقلب ظهرا على عقب . لقد أحدث هـذا الاختراع ما أحدثته الآلة فى التـاريخ الاقتصادى من ثورة قلبت كل الأوضاع . وأخذت المطبعة تسير وئيدة أول الأمر حتى وصلت الى ما وصلت اليه فى عصورنا الحديثة ملايين الكتب لملايين القراء . ونشأت الطباعة بسيطة أول الأمر ثم تدخلت فيها عوامل وعوامل واذا هى من أعقد الأعمال وأكثرها تشعبا . لم يعد الخطاط أو الناسخ والوراق ثم المصحح وحدهم وانما هناك الملايين فى صناعة الورق وحدها ، ورق من مختلف الموازين والأثقال ودرجات البياض والسمك ورق للطبعات الرخيصة وآخـر لأنفس الطبعات .

ثم تأتى صناعة الحروف، مسابكها وصفافوها ومصمموها والحبر وألوانه وأشـكاله وأصـنافه . والى جانب هؤلاء مصممون للرسوم المختلفة وللعنـاوين وخطاطون وفنيون فى مختلف الفروع .

ومن هذه الصناعات ما هو حديث ومنها ما هو قديم

يتحسن ويصقل على مدى الزمن . فالورق مثلا كان مستعملا من أقدم العصور . وعندنا أوراق البردى المصرية منذ العصور القديمة فى تاريخ قدماء المصريين ولكنه اليوم شىء يختلف كل الاختلاف . كان أول ما عرف فى آسيا فيما يقال ولكنه اليوم معروف فى كل مكان تقريبا . أما الحبر فلقد وجدت منه صور قديمة وحديثة ، وأما الحروف الحديدية المسبوكة فحديثة ، وأما الآلات فهى أحدث وأحدث وهكذا . ولعل السرعة فى الطباعة هى التى كانت تدفع بالاختراع فى آلاتها الى الأمام فلقد كانت الآلة تطبع صفحتين صفحتين أول أمرها ثم أصبحت تطبع أكثر فأكثر واذا بها تطبع اليوم مائة وثمانيا وعشرين صفحة فى الدقيقة الواحدة .

فاذا أضفنا الى كل هذا صناعة التجليد وعملية التوزيع رأينا الى أى حد أصبحت صناعة الكتب معقدة منوعة متشابكة .

والكتاب عادة ينقسم الى جملة أقسام والتنسيق بين أجزائه والتفنن فى ابرازها وتصفيفها كما يجب أن تكون أمر يبدو أنه سهل ولكنه فى الواقع صعب يحتاج الى جانب الذوق الفطرى السليم الى صنعة متقنة تعرف بالتعليم والمرانة .

فهناك صفحة الغلاف أو الغلاف نفسه وهو يحتاج الى أن

تكون فيه الى جانب اسـم الكتاب والمؤلف أشـياء كاسم المطبعة وعام الطبع وعدد النسخ المطبوعة فهل توضـع كلها على الغلاف أم فى الصفحة الداخلية التى تحمل اسم الكتاب كالغلاف أم فى الصفحة الأخيرة من الداخل أو من الخارج ؟ كل هذه أمور على تفاهتها لها أثر فى شكل الكتاب فالغلاف كالزى الذى نلبسه يدل كثيرا على ذوقنا وقد يدل أيضا على خلقنـا .

وكانت صفحات الكتاب قديما تحلى هوامشها بالرسوم أو يوضع الكلام فى شبه اطار وما زال هذا الشكل مستعملا فى طبع بعض دواوين الشعر كديوان رشيد أيوب «هى الدنيا» الذى حلى له اطار صفحاته بالرسومات الفنية الشاعر جبران خليل جبران . وكان غلاف الكتاب لهذا يحتاج الى زخرفة تدل على هذه الزخرفة الداخلية وتتمشى معها . والغلاف أحيانا من الجلد وأحيانا من الورق السميك وهو فى كل هذا محلى حلية ما . حتى الغلاف الورق فى الطبعات الرخيصة يلتفت كثيرا الى أن يكون جذابا كالطعام ؛ فالهام فى الطعام طبعا النوع وطريقة الصنع ولكن الزخرفة فيه تفتح الشهية وهذا الى حد ما ينطبق على الكتاب وان تكن الشهية ، شهية القراءة ، تحتاج الى أشياء أخرى كثيرة لفتحها .

ومن أجزاء الكتاب التابعة للغلاف الورقة الداخلية التى تشبهه ثم الورقة الأخيرة التى يجب أن تكون من نوعه . وتأتى بعد ذلك أجزاء خارجة عن الكتاب ولكنها منه ، كالاهــداء وشكر الذين عاونوا على اخراجه والمقــدمة والفهرست والتمهيد والصور التى تشرح أو تزين . وكل هذه أجزاء من الكتاب تكمله وقد اصطلح الناس على أمكنة بعضها وترك البعض الآخر الى ذوق المخرج . فالفهرست قد يكون فى أول الكتاب أو فى آخره ولكن الاهداء والمقدمة والتمهيد وربما الشكر أيضا كل هذا اصطلح على أن يكون فى أول الكتاب لا فى آخره .

ثم تأتى فصول الكتاب وأبوابه وما يدخــل تحتها من موضوعات قد يرمز الى بدايتها بأرقام أو بعناوين . والفصول اصطلح على أنها تبدأ صفحة جديدة ولكن أى الصفحات ؟ التى عن يسار أم التى عن يمين ؟ والأبواب التى تندرج تحتها أتبدأ هى أيضا صفحة جديدة أم أن هذا ليس بضرورى؟

وأخيرا تأتى فى آخر الكتاب أنواع من الفهارس والأدلة والملاحظات والأجزاء من المراجع التى أشير اليها فى النص الأصــلى ولم يشأ المؤلف لطولها أن يكتبها فى الهامش . وهكذا .

أما الكتب العلمية وهوامشها فهذه أيضا صناعة وفن لهما أصول وكل هذا ان دلّ على شيء فانما يدل على أن عملية اخراج الكتاب ليكون سهل القراءة من حيث الدلالة على أجزائه وتقسيماته ليس أمرا سهلا هينا . ويكفى أن تفتح كتابا لتقرأ فى أول صفحة مثلا ثبتا بالخطأ والصواب أو استدراكات فتصدم نفسيا فلا تقبل على متابعة القراءة الا بمشقة لتعرف قيمة التنسيق الفنى فى الاخراج (*)

(*) بنى هذا الفصل على مقال جوزيف بلومنثال (J. Blumenthal) ومقال فرانك مورتيمر (F. Mortimer) من الفصل « اختيار الكتب واستعمالها » .

الناشر وحرية النشر

ان مهمة الناشر الأولى هي اختيار الكتاب الصالح للنشر. ويدخل فى حسابه دائما عامل تقدير الربح المادى الذى يمكن أن يربحه من كتاب بعينه اذا ما نشر ولكن هذا العامل ليس وحده هو الذى يتحكم فى الاختيار . ذلك أن أكثر الناشرين يحسون أن واجبهم نحو المجتمع ليس مجرد البيع والشراء وانما هم جنــود فى هذه الوحدة التى تعمل لرفع مستوى الشعب ثقافيا وتقديم ما يجب أن يقدم له فى هذا الميدان . لذلك قد يقدم الناشر على نشر كتاب يؤمن بفائدته الثقافية وهو متيقن انه خاسر فيه ماديا . وقد يعمل على تعويض هذه الخسارة من بند آخــر ، من كتاب آخر ، أو من تشجيع مؤسسة أو حكومة أو هيئة تعمل فى نفس هــذه الوحــدة الهائلة ، وحدة الثقافة ، لنشرها على الملايين ولتجويدها عند الخاصــة .

ونشر الكتاب أى اذاعته على الناس تتضمن ثلاث عمليات جوهرية . فهناك الاختيار وهو كما أسلفنا من صميم عمل الناشر ثم الاخراج أى الطباعة وأخيرا التوزيع . وقد تجمع

بين هذه العمليات الثلاث وقد تنفرد ببعضها دون البعض الآخـــر .

ومن الظواهر فى عالم النشر أنك كثيرا ما تجد أن دور النشر تتجمع عادة فى ناحية معينة من نواحى الدولة فهى طبعا تعيش فى المدن وفى المدن الكبرى لأسباب لا تخفى ولكننا — فى أمريكا مثلا — نرى أن أوسع دور النشر وأكبرها كلها فى الشرق فى نيويورك وبوستن وفلادلفيا . وتهتم هذه الدور جميعا بنشر التراث المكتوب القديم والجديد منه على السواء . ففى عام ١٩٥٠ نشرت دور النشر فى أمريكا حوالى أحد عشر ألف عنوان كان الجديد منها ثمانية آلاف ونصف والباقى عناوين قديمة سبق لها أن نشرت . ولدور النشر فى أمريكا نشرات دورية تبين فيها ما نشرت وتملؤها باحصاءات مختلفة تعين الناشرين كثـيرا عـلى مهمتهم وتنفع المعلمين والمؤلفين فى تبين الحال الثقافية فى البلد . فهذه النشرات تدل على عدد الكتب القصصية وغير القصصية وتدل على مدى انتشار بعض الفروع من المعرفة بين القراء ومدى اقبالهم عليها . وتدل على مدى انتشار كتب الشباب وكتب الأطفال ونسبة ذلك كله الى سائر ما ينشر من مؤلفات فى عالم النشر . كذلك تبين مدى تقدم ألوان من النشر وطرق منها . فالطبعات

الرخيصة — أو الكتب ذات الغلاف من الورق كما تسمى — بدأت تذيع ذيوعا قويا عام ١٩٤٧ ولكنها فى عام ١٩٥١ وصلت فى الذيوع الى ضعف العدد الذى بهر الناشرين أربعة أعوام قبلها فلقد بيع منها وحدها ما يزيد على مائتين وثلاثين مليونا . كذلك يحرص الذين يعدون هذه النشرات على مقارنة مدى انتشار الكتب بمدى انتشار المجلات مثلا ومحاولة الوصول الى هذه الأرقام الخيالية التى تصل اليها المجلات فى الانتشار ؛ فلقد وصل رقم توزيع المجلات فى نفس هذا العام الى ثلاثة بلايين ونصف وما ذاك الا لأن هذه المجلات لها ميزة لا تستطيع أن تجاريها فيها الكتب وهى أنها تباع بأقل من نصف تكاليفها ؛ لأنها تستطيع أن تعوض بل أن تكسب من الاعلانات .

ومما يدرس أيضا فى عالم النشر طرق التوزيع وكيف يمكن أن توسع ليزداد التوزيع عددا . والطريقة المعروفة هى توزيع الكتب عن طريق محال البيع ثم أضيف الى ذلك أكشاك الجرائد والمجلات واتخذ التوزيع بالبريد فى العصر الحديث مقامه فيسرت مصالح البريد للكتب طريقها الى القراءة ، بأن خفضت الرسوم . ثم هناك توزيع المدارس والمكتبات وكل هذه بدورها تعاون على توزيع الكتاب

فأكثرها يتلقى طلب الكتاب اذا ما أراد قارىء اقتناء نسخة لنفسه وتتولى هى احضارها اليه فى المكتبة أو فى المدرسة .

ان تجارة النشر تجارة شخصية خاصة فى البلدان جميعا . ولكنها فى الواقع تعنى الناس كلهم مسئولين وغير مسئولين على السواء . لأنها أداة من أدوات الثقافة فعالة وهى عامل من عوامل التعليم خارج أسوار المدرسة وما أكثر الطلاب فى مدرسة الحياة . لقد أصبح من الضرورى لكل فرد فى أية أمة راقية أن يتابع تعليمه بعد المدرسة مهما تكن الدرجة العلمية التى استطاع أن يصل اليها . بل ان حاجته لتزداد كلما علت هذه الدرجة وارتقت .

وليست الكتب وحدها هى أداة الثقافة خارج المدرسة وليست هى وحدها الوسيلة التى بها نتابع تقدم العلوم ونحسن قضاء أوقات الفراغ ونهذب النفس ونرقى الروح فهناك الى جانب الكتب الجرائد والمجلات والاذاعة والتلفزيون فى بعض البلاد كل هذه وسائل اتصال بين الذين عندهم ما يقولون وبين الذين يقال لهم هذا الذى يستحق أن يقال .

قال الشاعر ملتن فى منتصف القرن السابع عشر فى كتابه « أريوباجيتيكا » : « اذا كان الحق والباطل يطلق سراحهما ليتغالبا على هذه الأرض فاننا نخطىء اذا ما حددنا من الباطل

أو منعناه بالقوة . لأن ذلك معناه الشك فى قدرة الحق . فلندع الحق والباطل يصطرعا فمنـذا الذى لا يعرف أن الحق يصرع الباطل مهما طالت المعركة ؟ » .

وكانت هـذه من أولى الصيحات التى عملت عملها فى تثبيت حرية النشر فى بريطانيا العظمى بعد جهاد طويل ولكن النشر لم يصل لأن يكون حرا كل الحرية فى يوم من الأيام فى أى بلد من البلدان فهناك قوانين التشـهير مثلا تحد للصالح العام وباسم الأخلاق العامة من الانطلاق فى الباطل .

ولقد تطورت النظرة الى مسئولية الناشرين فى العصور الحديثة وقدرت ضخامة هذه المسئولية فى أكثر البلدان . وفكر الكثيرون فى تأمين هذه الحرية بشتى الطرق بحيث يترك الناشر لشرفه المهنى يحاسـبه على ما ينشر . وذكروا مثلا قانون مهنة الطب ومهن كثيرة أخرى حـرة التى تلزم الطبيب الزاما بحلف اليمين المهنى قبل أن يباشر عمله فاذا هو يجد نفسه فعلا بعد حلف اليمين قد ألزم نفسه بشرف المهنة . ولكن الحال مـع الناشرين تختلف . فعمل النشر لا يحتاج الى شهادات معينة تحد من الداخلين فى ميدانه وكل ما فى الأمر أن الزمن أثبت ضخامة المسئولية وهو فى الوقت نفسه قد أشعر فئة العاملين فى النشر بشرف المهنة ومهابتها .

وتكونت بعض التقاليد وسارت عليها بعض أدوات النشر كالصحافة كأن يكون الاعتذار عن التورط فى باطل أو خطأ فى مكان بارز وبمنتهى الوضوح . أو كأن يتحفظ فى التعليق على الأخبار ولا يترك هذا فى الواقع الا لمدير التحرير المسئول يعلق فى افتتاحيته بما يرى ولكن بما يحس أنه مسئول عنه . حتى كتابة « المنشتات » أو العناوين الضخمة التى يلفت بها نظر القارىء الى الصحيفة لها آدابها وتقاليدها .

ولكن الكتب لا تتعامل بمثل هذه المواد الحية المثيرة المتجددة كالأخبار ولا هى تستطيع الاعلانات الضخمة الصاخبة عن نفسها ولكنها مع ذلك قد أوجدت لنفسها تقاليد .

والكاتب أو الناشر على السواء حتى فى أشد البلاد حرية فى النشر يعرف أمرين جوهريين أما الأول فهو أن هيئة معينة يعترف هو لها بالسلطان تحد من حريته نوعا ما وهى هيئة النقاد الأحرار الذين سيحكمون على الكتاب بنزاهة وعدل وصرامة . فلذلك يحسب الناشر والمؤلف حساب هذه الهيئة ويؤلف كل منهم أو ينشر فى نطاق ما يمكن أن تحاسبه عليه حسابا يرضاه . وأما الأمر الجوهرى الثانى فهو شعور بالقومية أو الانسانية . أخذ وعيه ينتشر ويقوى

عند كل مسئول . والناشر والمؤلف كلاهما من أكثر المسئولين مسئولية . لذلك هما يتصرفان فى حريتهما فى حدود الأمانى القومية والأمانى الانسانية . واذا أعباء جديدة تلقى على عاتق الناشرين والمؤلفين ، أعباء تعريف أنفسهم للعالم وتعريف العالم لقومهم الذين لهم يقرأون ، كما هو حاصل فى أمريكا ، أو أعباء النهوض بمستوى الوعى القومى والقدرة الثقافية وتعريف العالم كله بأوطانهم كما هو حادث فى بلادنا الشرقية .

ان الناشر والمؤلف هما اللذان ينفذان برامج نشر الثقافة ونشر الأفكار السليمة الحقة وليس عمل الناشر أو المؤلف أن ينتقد الخطأ فحسب ولكن من صميم عمله أن يدل على الطريق الايجابى لتقدم الخير ونصرته .

ان المؤلفين والناشرين على السواء معلمون خارج أسوار المدارس انهم يستطيعون كثيرا وأوطانهم بل الانسانية كلها تنتظر منهم لا هذا الكثير فحسب ، بل الأكثر ، بل المعجزات أيضـــا (*)

(*) بنى هذا الفصل على مقال جون أوكونور (G. Oconnor) ومقال ليستر هل (L. Hill) من الفصل « كتاب وناشرون » .

الكتاب يأتي إليك ...

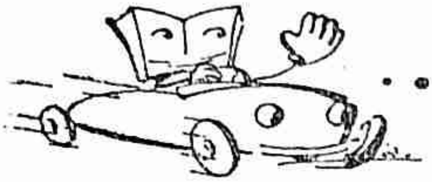

جهود فى سبيل نشر القراءة :

ان الكتاب صديق ولكنه صديق خجول ينتظر منك أن تسعى اليه أو أن يقدمه أحد اليك . ولكنك أنت فى حاجة أبدا اليه . لذلك أخذت الأمم التى تعرف للكتاب دوره فى مدنيتنا الحديثة فى تنظيم الجهود ومضاعفتها فى سبيل تقريب الكتاب الى قارئه . ذلك أن رغبة اقتناء الكتب أو شرائها بل رغبة الاقبال على قراءتها دون اقتناء أو شراء ما زالت بالرغم من تقدم التعليم وانتشاره وارتفاع نسبة القارئين وازدياد عددهم دون ما تؤمل الأمم الكبيرة التى تريد أن تصل بأبنائها جميعا الى أسمى درجات الرقى .

وهـذه صورة من بعض الجهـود التى تبذلها أمريكا لتشجيع الأمريكيين على القراءة نعرضها على قرّاء العربية لعلهم يجدون فيها أفرادا وهيئات بعض ما يحفـزهم على القيـام بمثلها فنحن كغيرنا ، بل لعلنا أكثر من غيرنا ، فى حاجة الى مضاعفة عدد القارئين أضعافا عديدة .

مؤسسة أمهات الكتب العالمية :

هذه مثلا جمعية اسمها « مؤسسة أمهات الكتب وحلقات مناقشتها » . وهى تقوم على فكرتين أساسيتين : الأولى أن أمهات الكتب فى كل عصر ومكان تعين الانسان على صعوبات زمانه وتحل له مشاكله لأنها عصارة عقول فذة وذوب قلوب ممتازة مما جعلها تخلد على الزمن . والفكرة الثانية هى أن اجتماع جماعة من الرجال أو الشباب يتناقشون فى كتاب من تلك الكتب العالمية المعروفة يفتح الأذهان ويجلى الأفكار ويجعل الاستفادة من الكتاب أوسع وأبين لما يتفتق عنه الذهن أثناء المناقشة من أفكار قد لا تظهر للقارىء وهو وحده . ومن طبيعة الأفكار أنها اذا ما احتك بعضها ببعضها أنارت وأضاءت ، وهذه هى حكمة الحوار عند فلاسفة الأثينيين القدماء . هذا وقد تنتشر العدوى من هذه الجماعة الصغيرة الملتفة حول كتاب تتناقش فى أفكاره ، الى غيرها من الجماعات والأفراد فيحيا الكتاب الخالد بعد مرور الأعوام بل القرون مرة أخرى ليؤدى رسالته من جديد .

ولهذه الجماعة خمسة فروع رئيسية فى الولايات المتحدة وأخرى فرعية . وهى فيما بينها تتبادل النشرات والتقريرات وتتراسل فيما يعن لها من مشاكل واذا هى تضع لنفسها

بعض القوانين التى جاءت ثمرة لتجارب الجماعة فى مختلف الفروع . ومن أهم هذه القوانين أن رئيس الجماعة مكلف بأن يمنع نفسه أو أى أحد من الأفراد من أن يحاضر فى الموضوع أو أن يستأثر وحده بأكثر من الوقت الذى يكون من نصيبه كواحد فى الجماعة . ذلك أن الفكرة الأساسية هى أن يفكر كل فرد لنفسه ولا يفكر واحد للجميع أو نيابة عنهم . فهدف هذه الاجتماعات هو تنمية الوعى القرائى وتغذية ملكة التفكير الحر بكل العناصر التى تكفل لها النماء الصحيح والسلامة القوية . ان عالما يعتمد على الشعوب فى سياسته لابد أن يعمل على ايقاظ الوعى فى أفراده وانماء الذكاء والتفكير بشتى الوسائل لديهم .

مكتبات الايمان :

وانشاء المكتبات العامة لتستفيد منها الجماعات من ضمن الجهود التى يبذلها الأمريكيون لتعميم القراءة . وهذه المكتبات ما كانت أبدا من صنع الحكومات وان كانت الحكومات أو مجالس البلديات أو مجالس الولايات تأتى اليها آخر الأمر بعد أن تكون قد أنشئت لتمدها بالمساعدة المالية لتثمر . ولكن أكثر هذه المكتبات كسائر مرافق الحياة عندهم كثيرا ما تنمو أو تخلق بفضل الجماعة نفسها . ومكتبات

الايمان كما سموها التى تنتشر فى الجماعات الريفية لها قصة عجيبة تدل على أن الايمان وقليل جدا من المال يكفيان لتحقيق فكرة كبيرة . فلقد روى « ويل بافنجتن » صاحب الفكرة قصته الطريفة التى تبدأ بأنه أحس حاجة الجماعة فى قريته النائية الى القراءة . ولم يكن معه الا بضعة قروش ثم ايمان قوى بأن مكتبة فى القرية الصغيرة حلم يجب أن يتحقق . فأرسل ببضعة القروش تلك خمسة خطابات فلم تكن تكفى لأكثر من طوابع البريد لهذه الخطابات الخمسة . وكانت الخطابات الى بعض المتبرعين الذين أخذ أسماءهم عن مجلة دينية . وجاءه الرد ألف كتاب . ووصلت الكتب وليس فى القرية الصغيرة ولا فى مدرستها البائسة مكان لكل هذا العدد من الكتب . ومن صناديق الخشب ومن فروع الشجر أخذ أهل القرية نساءً وأطفالا وتلاميذ المدرسة الصغيرة يبنون الرفوف الحقيرة الثابتة لتحتمل ثقل الكتب . وتدفق القراء وتبرع بعضهم ودفع الآخرون مجرد الرسم لأنهم لم يملكوا غيره وأرسلت الخطابات تلو الخطابات وجاءهم التشجيع واذا المكتبة تكبر ثم تكبر ولكنها ظلت محافظة على طابعها ، محافظة على اسمها . انها مكتبة أنشأها الايمان وبضعة قروش لا تكفى لأكثر من طوابع بريد لخمسة

خطابات . واذا الفكرة تقلد ، واذا المكتبات تنتشر . انها مكتبات الايمان وقد كونت لنفسها جمعية وأخذت تتراسل وتقوى وتجمع المال حتى أصبحت تعان آخر الأمر معونة منتظمة ثابتة من الضرائب أى من خزانة البلدية أو الولاية .

وهذه المكتبات الصغيرة تجد دائما أبدا عونا من الهيئات ومن الأفراد ولا تكاد تعتمد الا فى الأقل وفيما بعد على الاعانة الحكومية الرسمية . ولكن الثابت أن المكتبات العامة لا يمكن أن تستمر فى أداء رسالتها الا اذا اعتمدت على الضرائب ، ضرائب البلدية أو الولاية أو الحكومة لأنها معين ثابت يسد النقص الذى لا يمكن أن توفيه الاشتراكات أو التبرعات الموقوتة على كل حال .

كذلك مما يروج فكرة قراءة الكتب وتقريبها الى الناس اقامة حفلات أو أسواق للترويج للكتاب . كأن يكون الموسم موسم هدايا مثلا فيقام حفل لعرض الكتب وتحبيذ فكرة التهادى بها . أو كأن يظهر كتاب ناجح جديد فيقام مهرجان للكتب المؤلفة فى موضوعه فتعرض هذه الكتب عرضا فنيا مشوقا فى المدارس والمكتبات العامة ومحال بيع الكتب .

تاجر الكتب صديق :

وتاجر الكتب فى الواقع شخصية هامة جـدا فى عالم الكتاب . ان تجارته لا تغرى الكثيرين لأن الأرباح فيها ليست مفتوحة على مصراعى الخيال . ذلك أن الكتب محددة الأسعار . وتجارتها بعد ما زالت فى أرقى الأمم لا تدخل فى نطاق الضروريات التى لا غنى عنها . ففى الولايات المتحدة مثلا نجد أن الاحصاءات تقرر أن خمس السكان ليس غير يشترون كتابا أو أكثر فى العام بينما أربعة أخماسهم لا يشترون وان قرأوا . ومع ذلك فتجارة الكتب تغرى بعض النـاس لما فيها من مزايا على سائر التجارات . فهى تكسب صاحبها نوعا من السمو يأتيه من نوع البضاعة نفسها وما تضفى على شخصية المتعامل فيها من وقار واحترام . وهى بعد التجارة الوحيدة التى تتيح الاتصال بخيرة الرجال فى المجتمع لأنها تتيح الاتصال بالمؤلفين . والمؤلفون عـادة ليسوا شبه آلهة ولا هم ممن قد أفسدتهم الشهرة وأطاح برأسهم المجد بل على العكس من ذلك نجـد أكثرهم عاديين مثلنا متواضـعين . أكثرهم يصعد الدرج واثقا من نفسه ولكنه شاك فى القدر . وقد يكون بائسا يحارب هذا القدر وفى عينيه بريق الاعتداد بقوته فى أنه سيظفر آخر الأمر بما يريد . وهؤلاء المؤلفون

الناشــئون من أمتع الشخصيات وأحبها الى النفوس . فى تطلعهم حياة وفى أملهم حرارة معدية . انهم يدخلون هذا المحل الصغير يسألون عن كتابهم وأخباره ، أو يسألون عن كتب لأنهم دائما يريدون أن يقرأوا . وصديقهم الأول تاجر الكتب يدلهم ويحدثهم . وقد يكون شار آخر حاضرا هذا الحديث فيشارك فيه .

كان جو محال الكتب قديما جوا خافت النور لا صوت فيه ولا حركة . وكان التاجر فى الزمن القديم يعتقد أن هذا هو أنسب جو للكتاب والقراء والشارين . أما اليوم فلقد دخل النور والبشر والحياة فملأت أرجاء المحل بالأصدقاء والمتحدثين والمتناقشين وأصــبح محل الكتب مكانا مختارا يلتقى فيه شباب قارىء ومؤلف ناشىء حول تاجر الكتب الصديق .

وتجارة الكتب تحتاج الى ذوق ومرانة وتعتمد كثيرا على الاحصاءات والبيانات . ذلك أن التاجر لا يستطيع أن يعرض كل ما تخرجه المطابع من كتب وانما هو مضطر الى الاختيار وقد لا يتسع محله الا لأكثر من عشر ما تخرج المطابع . فهو محتاج اذن الى الاختيــار الدقيق . اختيــار لا يعتمد على مجرد رواج الكتاب أو عدم رواجه لأن هذا

الرواج نفسه يأتى بعد أن يقرر هو ما صادفه من تجارب فى بيعه . لذلك كثيرا ما يعتمد اختياره على حاجة المنطقة التى فيها محله الى نوع بعينه من الكتب . وعلى حاجة روّاد المكتبة من الشارين بنوع خاص . ولابد من خبرة ودراية يستطيع بهما أن يقرر هل الكتاب مفيد ، فاذا كان كذلك فانه سيروج ولو بعد حين .

ان تاجر الكتب يتعامل مع الكتاب والناس وكلاهما عالم ضخم عجيب مملوء بألوان من الاختلاف والتوافق والتناقض والتشابه مما يجعل التعامل معه صعبا شاقا . ولكنه مشوق لذيذ رغم صعابه ومشاقه . ان تاجر الكتب صديق مشترك بينك وبين الكتاب يريد أن يعرف كلا منكما بصاحبه لأنه صديق الطرفين فعلى مدى ما يوفق فى هذا التعريف يكون اقبال الناس عليه وعلى بضاعته . ولكنك سواء اشتريت الكتاب أم عرفت عنه وفكرت فى شرائه ثم أجلت ذلك أو حتى صرفت النظر عن شرائه أصلا فانك ستخرج أبدا من المكتبة بحب هذا الصديق المشترك واحترامه .

تسهيلات البريد :

وقد يكون مسكنك بعيدا عن محال بيع الكتب لذلك تضافرت هيئات مختلفة على ارسال الكتاب اليك متى طلبت

ذلك . وهى فى سبيل ذلك تعرض عليك ما يصور لك الكتاب صورة ما حتى تعرف كيف تختـــار . أما شركة البريد فى الولايات المتحـــدة فقد خفضت الرســوم على المطبوعات أيا كانت تخفيضا يجعل سير الكتب عبر القارة الأمريكية يكاد يكون مجانا تقريبا . وأما ســـائر الذين يعملون على تقريب الكتاب فلقد بذلوا فى ذلك جهودا شتى . فالمحال العامة لبيع الحاجات تعرض أحيانا بعضها من الكتب ثم جداول بأسماء المؤلفات قديمها وحديثها وتبدى كل الاستعداد لتلقى الطلبات لترسل بها بالبريد فتأتى اليك بعد يوم أو يومين بما تريد من الكتب . كذلك المكتبات العامة جعلت كثيرة منها فرعا لها لتلقى طلبات الكتب التى يطلبها الرواد من الناشرين بالبريد وهى بدورها ترسلها الى طالبيها بالبريد فى أسرع وقت أو يأتون اليها ليتسلموا ما يريدون من كتب .

كذلك فعلت الجرائد الكبرى فأكثرها يصـــدر ملحقا أدبيا أو ملحقا خاصا بالكتب عامة وفى ادارة الجريدة قسم خاص لتلقى طلبات القرّاء من الكتب ترسل اليهم بالبريد . بل الأكثر من ذلك أن هـــذه المجـــلات تصدر فى أعدادها الأسبوعية أو الشهرية الخاصة تقريرا عن الكتب الجديدة

ومكتبها المختص مستعد لمزيد من البيانات عن أى كتاب . وأشهر هذه الملاحق ملحق « يوم السبت » المعروف بـ Saturday Review .

أما نادى الكتاب الذى يضم أكثر من ستين فرعا فى الولايات المتحدة فلقد كان فكرة نفر صغيرى العدد منذ ربع قرن تقريبا . والفكرة هى مساعدة الناس فى اختيار الكتاب وتقريبه اليهم عن طريق جمعية تضم بعض الاخصائيين الذين يقدمون كل شهر قائمة الكتب المختارة وعليها تعليقات . ثم ترسل هذه القوائم المدروسة الى المشتركين فى شتى أنحاء البلاد . فاذا المشترك يجد كل شهر قائمة بالجديد من الكتب وقد علق عليها المختص وبيّن له مزايا كل منها .

أما دور النشر فهى فى أنحاء العالم أجمع ترسل قوائم بأسماء الكتب الجديدة كل شهر أو كل أسبوع للمشتركين وعليها ما يبين ميدان الكتاب وقيمته فى هذا الميدان . وهى بدورها تسهل طلب الكتب بالبريد تسهيلات مختلفة بل ان من تلك الدور وخاصة اذا كان الكتاب المطبوع مما لا يسهل بيعه فى المحال العادية كأن يكون دائرة معارف ضخمة ، ما يرسل أحيانا مندوبا الى الناس فى بيوتهم يسألهم حاجتهم من هذا المطبوع الضخم ويسهل لهم أمر اقتنائه بأقرب فرصة

بل على أقساط فى بعض الأحيان حتى يمكن ايصال أكبر عدد من الموسوعة مثلا الى أيدى القراء .

ان قراءة هذه القوائم وان تكن ليست كالتطواف فى محال بيع الكتب وتقليبها والنظر فيها ، خير على كل حال من لا شىء . وهى تتيح نوعا من السياحة الطريفة اللذيذة فى عالم الكتب .

جماعة الآباء والمعلمين :

وهذه جمعية أنشئت آخر القرن الماضى وأصبحت تضم اليوم أكثر من سبعة ملايين من الأعضاء ولقد أخذت منذ اجتماعاتها الأولى تضع التشجيع على القراءة هدفا أساسيا من أهدافها . لقد آمنت أنه ما لم يتعلم الفرد لا يمكن للحرية أن تعيش . لذلك أخذت تعاون المكتبات على انشاء الفروع وتعميم الفائدة منها فى أوسع نطاق ممكن ثم نظمت بعض المؤتمرات الصيفية للتشجيع على القراءة وأخذ أعضاؤها ينشئون مراكز للقراءة قد تكون بيت واحد منهم حيث يلتقى فيها الصبية ويستعيرون الكتب للقراءة وقد يجتمعون مرة أو مرات فى الأسبوع للمناقشة حول الكتاب . ونظمت برامج للقراءة بصوت عال وللقراءة فى الموضوعات المختلفة حتى

ينعم الصبية باجازة مثمـــرة فى شتى الأماكن التى يكونون فيها أثنـــاء الصيف .

وتعمل هـــذه الجماعة على تعميم عرض الكتاب عرضا جذابا فى المحال والمدارس واذاعة البرامج الاذاعية الممتازة عن الكتب فى المحطات المحلية . بل انهم أحيـــانا ينظمون مهرجانات للدعاية الى كتاب معين ثبتت فائدته . ولا تألوا هذه الجماعة جهدا فى سبيل امداد الأعضاء بشتى أنواع المساعدة على العمل على نشر الكتب بين القارئين . ولقد أصدرت أخيرا كتابا بعنوان « دليل الآباء الى القراءة » .

القراءة للمكفوفين :

ولعل جهـــود الأمريكيين فى سبيل تقريب الكتاب الى المكفوفين ليس لها نظير فى العالم أجمع . ذلك أن جمـــاعات وهيئات والحكومة نفسها قد أخذت على عاتقها أن تمهـــد السبيل فى هذا الميدان بشتى الطرق .

ان وراء هذه الجهود جميعا جهود قرون عديدة فى سبيل التغلب على تلك العاهة التى تحرم بعض اخواننا من نور الحياة . انها قصة طريفة بدأت فى الواقع بعيدة عن المكفوفين فى جيش لويس الثامن عشر يوم احتاج ضابط أثناء العمليات

الحربية ليلا لأن يتفاهم مع اخوانه الضباط فى الظلام فكتب برموز بارزة . ثم جاء الشاب المكفوف « لويس براى » فاخترع طريقته المعروفة فى الكتابة البارزة (Braille) بالنقط وقد احتفلت حكومة فرنسا عام ١٩٥٢ بمرور مائة عام على وفاته تمجيدا لخدماته التى أداها للانسانية باختراعه .

وفى نفس القرن كان الدكتور « وليم مون » من بريتون فى انجلترا يخترع طريقة أخرى ليست بالنقط وانما هى خليط من مثلثات ومربعات ودوائر وصور حروف . فعمت طريقته وعرفت وخاصة أن الذين كف بصرهم ، بعد أن كانوا يرون ، وجدوها أيسر وأقرب فأقبلوا عليها .

ولكن طريقة براى لاختصارها وسهولة تطبيقها على سائر اللغات ولبساطة منطقها غزت الميدان وأخذت تقلل من ذيوع طريقة مون وتنتشر أكثر منها .

ولما كانت الكتب التى تطبع بأية من الطريقتين تكلف مبالغ كثيرة واجه الراغبون فى تيسير القراءة لهؤلاء المكفوفين صعوبة خطيرة . من أين لهم بالمال الذى يغطى تكاليف الكتاب بحيث يباع بثمن معقول للمكفوف . وما كادت الحرب العالمية الأولى تنتهى ويعود من عادوا منها مكفوفى البصر حتى اتخذ الموضوع صورة أعنف واذا الصليب الأحمر

يتدخل فى الأمر ويعدّ المبصرين الذين يقومون بعملية الطبع اعدادا فنيا ويحاول أن يعمم المهنة وأن يجعلها مربحة بحيث يقبل عليها الناس ويتخصصون فيها .

وجاءت مكتبة الكونجرس فأسهمت فى هذا الاعداد والتمرين وأنشأت قسما بها للمرانة على طبع هذه الكتب ما لبث أن أصبح قسما هاما من أقسامها . ثم أضافت اليه ما نسميه الكتاب الناطق وهو عبـارة عن تسجيل للكتاب بصوت قارىء على شريط اذاعى أو اسطوانة ، فيصـل الكتاب الى الأعمى عن طريق الأذن لا اللمس . وكونت الكتب الناطقة والكتب المطبوعة على طريقة براىّ ومون وما يلزمها من آلات لسماعها مثلا جزءا هاما من مكتبة الكونجرس يعتبر خير ما فى العالم وأرقاه فى هذا الميدان .

أما الكتاب الناطق فلقد تطور وانتشر وحرصت المكتبة على ايجاد مراكز فى أنحاء الولايات المتحـدة يستمع فيها المكفوفون لهذه التسجيلات . وقد مرّ الكتاب الناطق فى سبيل الاتقان فى مراحل ولم يبدأ تطوره القوى الا عام ١٩٣٣ وأسهمت بعض الهيئات فى تطور الاسطوانة التى يسجل عليها الكتاب حتى توصلوا الى تسجيل ما يسمع فى نصف ساعة على اسطوانة واحدة قطرها ثلاثون سنتيمترا تقريبا .

وبهذا أمكن تسجيل كتاب طويل على عدد ضئيل من الاسطوانات . ومن هذا أيضا نرى أن الاسطوانة البطيئة المشهورة اليوم فى عالم الموسيقى قد عرفت فى قراءة الكتب للمكفوفين قبل أن تعرف فى دنيا الموسيقى بأعوام عديدة .

ولما كانت هذه الاسطوانات بدورها غالية الثمن يتراوح فيها ثمن الكتاب بين عشرة وعشرين جنيها فلقد أسهمت هيئات وأفراد فى التبرع لمثل هذه الأقسام والمكتبات التى تعمل على تسجيلها وتعميمها بين القراء . أما الحكومة فلقد أسهمت فى مناسبات عدة وبأشكال مختلفة منها ما هو منتظم بقانون كالقانون الذى سنّ عام ألف وتسعمائة وواحد وثلاثين الذى جعل لهذا القسم من مكتبة الكونجرس اعانة سنوية أخذت تتزايد كل عام حتى جاوزت مليون دولار فى السنوات الأخيرة . ومنها تحويل بعض الأموال المرصودة لأغراض أخرى عند تبين استغناء الأغراض الأخرى عن مثل هذه المبالغ ، كالمبلغ الذى حوله روزفلت عام خمس وثلاثين عندما حول أزيد من مائتين وواحد وعشرين ألفا من الدولارات كانت مرصودة كاعانات تمليك مستعجلة الى مكتبة الكونجرس لحساب مشروع لصنع الآلات اللازمة للكتاب الناطق بوفرة .

واليوم توجد فى الولايات المتحدة مكاتب كثيرة ومراكز فرعية لتوزيع الكتاب الناطق تزيد على ثمانية وعشرين وهناك أكثر من خمس وخمسين هيئة لتوزيع الآلات الخاصة بعمل الكتاب الناطق وسماعه .

ولم تكتف الحكومة الأمريكية بهذا وانما جعلت تبادل هذه الآلات والكتب والاسطوانات فى طول البلاد وعرضها مجانا فلا تدفع رسوم بريد على أى طرد منها فى حدود الاثنى عشر رطلا . ولا يدفع المستعير ما دام مقيما فى الولايات المتحدة أى رسم نظير استعارته لهذه الكتب .

ولقد استطاع القسم الخاص فى مكتبة الكونجرس وحده أن يخرج فى السنوات العشر الأخيرة ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب فى موضـــوع جديد مطبوعة على طريقة « براى » وثلاثمائة وثلاثين كتابا فى موضوع جديد مطبوعة على طريقة مون ، وأكثر من ألف وتسعمائة وواحد وثمانين من الكتب الناطقة . واستطاع كذلك أن يصنع خمسة وأربعين ألف آلة من آلات الكتاب الناطق . والكتاب الناطق يطبع منه عادة مائة واثنين وثلاثين نسخة . ولا تدفع المؤسسات التى تطبعه حقوق نشر للمؤلفين وذلك باتفاق مع مجلس الناشرين الأعلى الأمريكى . ولما كانت المؤسسات التى تطبع الكتاب تشترى

موادها عادة من عملاء يبيعونها بثمن التكاليف ليس غير فانها على استعداد أبدا لأن تلبى طلبات المكفوفين فى جميع أنحاء الولايات المتحدة فى الاستعارة بغاية السرعة. وهى ترسل الى الهيئات المعنية بشئونهم عادة قائمة الكتب الجديدة وتتلقى من الهيئات طلبات طبع الكتب التى يريدها فريق من القراء لدراستها ولتكون موضع المناقشة عندما يراد طبع كتب جديدة. وكذلك يدرس ناشرو هذه الكتب الاحصاءات التى يعملها المختصون عن رواج أنواع بعينها من الكتب وعن حاجة بعض الجهات الى كتب بعينها ذلك أن فداحة الثمن بالنسبة للكتاب العادى ما زالت تتطلب كثيرا من التريث فى الانتقاء بغية تحقيق الفائدة والمتعة معا للقراء.

هـذا ويطبع قسم الكتاب الناطق بمكتبة الكونجرس مجلة « الريدرز ديجست » على طريقة « براى » ويسجلها أيضا فى هيئة مجلة ناطقة على اسطوانات. وكذلك نسخة ناطقة من بعض المجلات البوليسية. وكذلك بعض أعـداد من مجلات خاصة.

وهذه كتب تعين كثيرا من يريد المزيد من المعلومات عن القراءة لدى المكفوفين أهمها كتاب توماس كتسفورث عن

« المكفوف بين المجتمع والمدرسة » ثم كتاب اشيل روس « رحلة نحو النور » وأخيرا كتاب بول زال « اتجاهات حديثة نحو المجتمع المحجوب ». وكل هذه الكتب قد صدرت بين عام واحد وخمسين وعام خمسين بعد الألف والتسعمائة. مما يرينا مدى عناية الباحثين بهذا الموضوع الى جانب عناية الحكومات والهيئات والمكتبات بل الأفراد أيضا أمثال كارنيجى الثرى الأشهر الذى أسس مؤسسة بأكملها من ماله الخاص لرعاية شئون المكفوفين (*).

(*) بنى هذا الفصل على مقال تشارلز سترب (C. F. Strubbe) ومقال ويلى بافنجتن (W. L. Buffington) ومقال آلان ماكمهان (A. McMahan) ومقال ستانفورد كوب (S. Cobb) ومقال روث جاجليياردو (R. Gagliardo) ومقال دونالد باترسن (D. G. Patterson) وكلها فى الفصل « الكتب للجميع ».

المكتبات

كانت المكتبات قديما دورا قليلة منعزلة لا يؤمها الا نفر قليل من العلماء يجلسون فيها فى جو كله هدوء ووقار . وكان الشباب عادة يعتبر غير حقيق بدخول المكتبات لأنه لم يصل بعد الى مرتبة العلماء . أما الأطفال فلقد كان دخولهم المكتبات العامة يعد بدعا ومضيعة للوقت وذهابا بوقار العلم والعلماء .

أما اليوم وقد انتشر التعليم وكثر التأليف وتنوع تنوعا لا حصر له فلقد أصبح للشباب بل الصبية والأطفال مكانهم الممتاز فى المكتبات . وبدخولهم دخل النور وشعت الحياة فى هـذه المؤسسات الباهتة الساكنة الوقور . لقد أخذ التأليف للأطفال وللشباب يزدهر فى أيامنا هـذه ازدهارا عجيبا ، بحيث وُجدت المكتبات التى تعتمد فى قرائها على الصبية والأطفال أكثر مما تعتمد على العلماء وأشباههم . ان

الحياة فترة قصيرة أمام هذا السيل المتدفق من العلم المؤلف والقصص المثير والطرائف المختلفة التى يقدمها المؤلفون . فلابد من أن نبدأ القراءة فى سن مبكرة ما أمكن . وانتشرت مكتبات الأطفال والصبية واحتلت أحيانا أبنية خاصة أو أقساما من المكتبات الكبيرة على كل حال .

هؤلاء الصبية والأطفال هم قرّاء الغد وهم بناء مدنية نأمل أن تكون أسعد وأعلم وأفضل . لذلك أفسحت الهيئات والحكومات صدرها وأخذت ترغب هذا الفريق من القراء بشتى الوسائل . فلا يكفى أن تؤلف لهم ولا يكفى أن نعد لهم مكانا مريحا يقرأون فيه وانما لابد من أن نعاونهم على هذه القراءة .

وهذه بعض الأقسام فى المكتبات الكبيرة العامة تخصص طابقا للأطفال قد أعد لهم اعدادا تاما للترغيب فى القراءة . فمن اسطوانات الى أفلام صغيرة الى ألعاب وحفلات وبرامج كلها تدور حول ما يقرأون من كتب . وكل هذه الحيوية المتدفقة من المناقشات والاحتفالات والبرامج مقرها بناء المكتبة الوقور الذى فتح النوافذ واستقبل الحياة ودخل عاملا مؤثرا فيها متأثرا بها بعد ان كان منزويا بعيدا يرقب الحياة من فوق قمة جبل الفيلسوف أو العالم .

ان الفتيان ما بين الثالثة عشرة والعشرين جزء هام من المجتمع لذلك يجب أن يكونوا جزءا هاما من المكتبة ، وقد أصبحت مجتمعا مصغرا يكمل الكل ويكمل به . وهؤلاء لهم عالمهم فى التأليف فليتصلوا به وهم عدد ضخم جدا من القراء ولأن أكثرهم لم يشغله كسب العيش بعد فهو يجد الفراغ أكثر من غيره ليقرأ وليتكوّن وهؤلاء الفتيان اذا ما تحمسوا لفكرة كانوا أكثر حيوية وأقوى اندفاعا بها نحو التحقيق من الكبار . لذلك تراهم يهتمون كثيرا ببرامج الكتب فى المكتبات وهم يعملون احصاءاتهم بأنفسهم ويقدمون التقارير للقائمين بأمر المكتبة ليدعموا طلباتهم بالمبررات القوية ، والمكتبة تكون عادة فرحة بهم مرحبة بمشروعاتهم مبتهجة بهذا النور القوى ينبعث فيهم ليضىء فى المستقبل .

ان مكتبات المدارس عنصر هام فى تثقيف هؤلاء الصبية والشباب ولكنها وحدها لا تستطيع أن تقوم بكل شىء . انها فى المدن الصغيرة والمراكز النائية تستطيع أن تؤدى ما تؤديه المكتبة العامة بحكم الحاجة ، ولكن فى المدن الكبيرة حيث تتنوع الحياة وتكثر المدارس ويحس هؤلاء الصبية من مدارس مختلفة أنهم يحبون أن يلتقوا حول الكتب لا يمكن الا أن نوجد لهم مكانهم فى المكتبة العامة .

ونحن فى الشرق ما زلنا فى هذا متأخرين متخلفين لا تكاد مكتبة عامة واحدة تعنى بالأطفال أو الصبية أو تخصص لهم مكانا فيها يجدون فيه ما يلزمهم من كتب ومعدات ليحيوا مع ما يقرأون ساعات من نهار . ولكن مكتبات المدارس الخاصة قد أخذت تنشأ وهى فى سبيل الاستكمال والتطور ويوم تبلغ مكانتها التى تؤهلها لخدمة الطلاب حقا ستحس المكتبات العامة بهذا النوع من العملاء الجدد يطرقون أبوابها وستجد أن لابد من استقبالهم . ان نشر القراءة بين طلاب المدارس الثانوية بالذات هدف يستحق كل جهد وكل مال وكذلك تشجيع التأليف لهذا الفريق من القراء يجب أن يتطور ويزخر اذا كنا فعلا نريد فى المستقبل أن يكون أبناء الوطن الجديد حقيقين بالحياة بين أبناء أوطان كلها تعمل جاهدة نحو هذه الغاية ، غاية ايجاد الانسان المثقف ثقافة ممتازة منوعة .

وكتاب « مكتبة شباب فى كل مجتمع » الذى نشرته دار ستورجيس للنشر فى ميتشيجان وكتاب « مكتبات المدارس اليوم وغدا » الذى أعدته جمعية مكتبات المدارس الأمريكية برياسة مارى بيكوك دوجلاس من المصادر التى يمكن أن تعين المفكرين فى انشاء مكتبات المدارس أو تطويرها وانشاء أقسام أو مكتبات عامة للشباب خارج المدرسة .

ولا تقوم هذه المكتبات عامة ببنائها ولا بما تحويه من كتب مهما يكن عددها ومهما تختلف موضوعاتها وانما هى تقوم أكثر ما تقوم على الموظفين فى المكتبة . ان اعداد المكتبات لاستعمال القراء قد أصبح فنا يدرس فى المدارس ومنها أكثر من ثلاثين مدرسة فى الولايات المتحدة . وهو فن ليس باليسير لأن الطالب يقضى فى دراسته نحوا من خمس سنوات بعد دراسته الثانوية . ولقد أصبحت مهنة الاشراف على المكتبات وتسيير دفتها بعد هذا الانتشار الواسع ، الذى ينتظر له التوسع الأرحب والأشمل على مدى الزمن ، مهنة عالية هامة يربح منها المختصون أجرا يفوق أجر الأساتذة فى الجامعات أحيانا ويربحون أكثر من الأجر لذة فى العمل واحساسا بأنهم يؤدون الى وطنهم والى اخوانهم خدمة جليلة عظيمة .

ولا يكفى أن تحب الكتب أو أن تقبل على قراءتها لتستنتج انك مهيأ لهذه المهنة الجليلة . انك لا تعمل فى المكتبة لتقرأ أنت وانما أنت تعمل بها لتقرب سبل القراءة للرواد الذين يأتونك طالبين العون والمشورة . فاذا ظننت أن أهم مميزات العمل فى المكتبة أنك تجد أمامك طائفة كبيرة من الكتب وأنت تحب القراءة فانك واهم خاطىء تتصور

مهنة الاشراف على المكتبات تصورا قديما قد مضى عهده وانتهى . انك اذا امتهنت هذه المهنة وجب عليك أن تقرأ لنفسك خارج المكتبة وأما فى المكتبة فوقتك كله فى خدمة الرواد .

وليس فن المكتبات فنا يسيرا ولكنه فن يحتاج الى كثير جدا من المواهب الطبيعية كما يحتاج الى درس ومرانة كثيرين؛ يحتاج الى أن تعرف كيف تحكم على الكتاب وتقدره فهناك كتب هامة أساسية تعتبر معالم فى الميدان الذى ألفت فيه . وهناك كتب هى مجرد جمع ذكى أو غبى لما سبق أن كتب فى الموضوع . وهناك كتب تلائم النشء وأخرى تلائم المتخصصين وهناك كتب تلائم العمليين وأخرى تناسب الخياليين فى نفس الفن وفى نفس الموضوع . ومهمتك هى أن تعطى الكتاب الملائم فى الوقت المناسب للقارىء الذى يلوذ بك .

ومن وراء غرفة القراء ورفوفها الجذابة وكراسيها المريحة أطنان من الكتب والعمل الشاق المضنى . يبدأ العمل بأهم مشاكل المكتبات عـادة وهى محاولة الدوران فى ميزانية محدودة . فكل ميزانيات المكتبات مهمـا تضخمت محدود بالنسبة الى الفيض من النشر والتأليف . فدراسة الميزانية ودراسة الكتب الجديدة وتتبع حاجات القراء والمنطقة من حيث الفائدة واللذة كل هذا يحتاج الى طول مرانة ودرس وعمل احصاءات حتى لا يشترى فعلا الا الكتاب الذى

سيفيد والذى سيقبل عليه القراء . فلا يتبعثر مال المكتبة هنا وهناك دون هدف . وتأتى بعد ذلك عملية وضع الكتاب فى مكانه من المكتبة . ولا يكفى فى هذا أن ترتب المكتبة حسب الفنون والعلوم فكثير منها متداخل متشابك والمعارف كل متماسك يتلاقى كثيرا فى نقط متعددة . فكيف اذن ترتب أرفف المكتبات وماذا يوضع عليها ؟ اشكال يحتاج الى جهود لحله ولا شك . وهذا كتاب مفيد ولكن القراء لا يقبلون عليه . فما السبب وهل يمكن معالجته وهل يساعد عرض الكتاب على اجتذاب الأنظار اليه وهل عمل برنامج خاص بموضوعه يدفعه الى أيدى القراء فيفيدون منه . ان رسالة المكتبات لا تقل عن رسالة المدارس والجامعات . انها رسالة الثقافة الحرة العامة الشاملة .

والمكتبات أنواع : مكتبات مدارس ، ومكتبات هيئات معينة تجمع كتبا فى باب بعينه كمكتبات مؤسسات العمال ، أو مكتبات الوزارات المختصة بفرع بعينه من العمل كوزارة التجارة أو الزراعة . هناك مكتبات البلديات ومكتبات الدولة ومكتبات للأطفال ومكتبات فى بيئات تختلف عددا وطبيعة ومطالب ومكتبات تسير على عجلات لتصل الى الأماكن النائية وتبلغ أهلها رسالة الكتاب ، وهكذا . وكل هذه المكتبات

تختلف نظاما وغاية وبالتالى تختلف فنـا فى تسـيير دفة العمل فيها .

ووسائل عرض الكتاب أيضا فن ووسائل الترغيب فى القراءة فن . والتعامل مع الناشرين فن له أصوله وأحواله وطرقه والتعامل مع رواد المكتبات على اختلافهم فن أيضا . وكل هذا يحتاج الى وقت طويل ومرانة شاقة وهبة أساسية هى حب الكتب والطرب لرؤية الناس ينتفعون بها واللذة لسماعهم يتناقشون حولها . فاذا آنست فى نفسك كل هذه الصفات فأقبل على دراسة فن المكتبات فهو فن له مستقبل زاهر فى كل البيئات وقد يعينك على تبين نفسك فى هـذا المضمار أن تقرأ كتبا فى هذا الفن . وهذا كتاب عن العمل فى المكتبة لمؤلفته روث سافورد اذا كتبت الى جمعية المكتبات الخاصة رقم ٣١ شرق الشارع العاشر من مدينة نيويورك (الحىّ الثانى) بالولايات المتحدة تصلك نسخة مجانية أو أرسل الى جمعية المكتبات الأمريكية ترسل لك ما يعينك فى هذا المضمار . ومن الكتب القيمة كتاب « المكتبات العامة فى حياة الأمم » لبياتريس سوير روسل .

هذا وقد أنشىء فى كلية الآداب جامعة القاهرة منذ بضعة أعوام قسم خاص بفن المكتبات فقد يفيدك أن تتصل به .

اتحاد المكتبات العامة الأمريكية :

هو اتحاد أمريكي يضم العاملين فى مختلف المكتبات وعمره أكثر من خمس وسبعين عاما يعمل بشتى الطرق على رفع مستوى المكتبات والسير برسالتها نحو الكمال بشتى الطرق .

لقد بدأ عام ١٨٧٦ بنحو مائة من العاملين فى المكتبات اجتمعوا فى هيئة مؤتمر عام بمدينة فيلادلفيا وهو اليوم يضم أكثر من عشرين ألف عضو من الأمريكيين ومن نحو خمسين جنسية أخرى خارج الولايات المتحدة . وموارد الاتحاد على ضخامتها دون الهدف العظيم الذى ينشده . فموارده محدودة باشتراكات الأعضاء والهبات وبعض المبالغ التى ترسل اليه وقد رصدها المتبرعون بها أو جامعوها لانجاز غرض بعينه من ضمن أغراض الاتحاد .

وهدف الاتحاد هو تحسين أحوال المكتبات والعاملين فيها بكل الوسائل حتى تؤدى المكتبات رسالتها فى التثقيف والمتعة أحسن أداء . وأهم ما يحقق هذه الأهداف الدراسات الواسعة والاحصاءات العديدة التى تقوم بها فروع الاتحاد لتبيان الأحوال المحيطة بالمكتبات فى شتى أنحاء الأرض . حتى يعرف النقص فيبحث فى كيفية تلافيه . وهذا الاتحاد

قوة فى الواقع ضخمة لأنه يستطيع أن ينظر الى كل المشاكل والصعاب من عل على ضوء ما يرد له من معلومات شاملة من الأعضاء فيكون العمل على تلافى الصعاب عملا ايجابيا فتأتى ثماره بسرعة . وهو قوة من حيث انه قد أخذ على عاتقه أن يعمم خدمة المكتبة فى أمريكا بحيث يكون لكل فرد فى الولايات المتحدة الحق فى أن يتردد على مكتبة قريبة من مسكنه . ولقد وصل فى هذا الى أن ثلاثين مليونا فقط من المائة والستين تقريبا ليس فى متناولهم التردد على مكتبة عامة . وأكثر هؤلاء من الريفيين حتى انهم ليبلغون تسعين فى المائة من هؤلاء الملايين الثلاثين . ولكن الجهود متواصلة لايجاد مكتبات فى هذه الأحياء النائية وكل شىء ينذر بأنها ستتوج بالنجاح . ومن هدف الاتحاد أيضا أن تكون خدمات المكتبات مجانية لكل الأمريكيين . ولقد توصلت ثلاث ولايات من الولايات المتحدة الى جعل خدمة المكتبات مجانا لكل أفرادها فلا يدفع رائد المكتبة فى هذه الولايات الثلاث أى رسوم نظير استعارة الكتب أو استعمالها أو الاستفادة من المكتبة بأى نوع من أنواع الاستفادة . والاتحاد دائب على جعل هذه الخدمة مجانية فى الولايات جميعا .

كذلك من أهداف الاتحـــاد حماية حرية الثقافة بحيث

لا تنفى كتب بعينها لسبب أو لآخر من المكتبات ، ولا يحظر تداولها عن طريق المكتبات لأى سبب كان . لأن حرية العلم تقتضى أن تكون المعلومات حرة غير متحكم فيها الا لصالح العلم والعلم وحده . والاتحاد دائب على تحقيق هذا الهدف الخطير فى الولايات المتحدة بل فى فروعه أيضا فى القارة الأوروبية وفى غيرها من القارات التى له فيها فروع .

كذلك يتبنى الاتحاد كثيرا جدا من البرامج ليجعلها أكثر شمولا وأعم فائدة ، كما تبنى مثلا مشروع تثقيف الشباب التى تبرعت بتكاليفه مؤسسة فورد ، وهو يقضى بأن تنظم برامج للشباب لمناقشة مشاكل العصر الذى يعيشون فيه ومحاولة ايجاد الحلول لها فى ضوء ما ورثت الثقافة الأمريكية من تراث أدبى وعلمى ممثل فى الكتب . فكانت المكتبات العامة هى مكان هذه المناقشات وكانت كتبها هى وثائق المناقشات وتحت سقف هذه المدارس الحرة فى الواقع بذلت أقوى محاولة عرفتها أمريكا فى العصر الحديث لتجديد حياة تراثها الثقافى القديم تجديدا قويا مفيدا للشباب ولقوميتهم الوطنية .

ويتلقى الاتحاد كذلك تبرعات شتى لأغراض مختلفة كتبرعات بجوائز قيمة لأحسن كتاب يؤلف كل عام للأطفال .

ثم جائزة أخرى لأحسن كتاب مصور للأطفال . وكذلك جوائز عديدة لموظفى المكتبات على أحسن ما أدوا فى سبيل الارتفاع بمستوى الخدمة العامة فى المكتبات سواء بتأليف الكتب أو رسم المشروعات الناجحة أو تحقيق الأفكار المفيدة التى تعين على انتشار رسالة المكتبات وتعميم فوائدها .

ويتعاون هذا الاتحاد فى المجال الدولى مع هيئة الأمم (اليونسكو) ومع الحكومة أيضا على نشر الثقافة وتعميم المكتبات فى البلاد الأخرى . كأن يؤسس مدرسة فى اليابان لتعليم فن المكتبات . أو أن ينشىء مكتبة للشباب عالمية فى ميونخ فى ألمانيا . أو ينشىء مكتبات ملحقة بالسفارات الأمريكية فى شتى أنحاء الأرض . وكذلك ينظم الاتحاد مباريات مختلفة منها العالمى ومنها المحلى ويرصد الجوائز لمن يجمع أفيد الاحصاءات مثلا فى عالم الزراعة أو العلوم الطبيعية . وعلى ضوء هذه الاحصاءات تكيف بعض المرافق الحكومية سياستها فى الميادين المختلفة . وهكذا تعمل هذه الهيئات الحكومية مع اتحاد المكتبات على أن يصل العلماء والفنيون إلى أوثق المعلومات بأسرع الطرق وأدقها .

والاتحاد يرحب بكل اتصال به من الأمريكيين وغير الأمريكيين فى كل ما يتصل بالكتب وشئونها وفى كل ما يتصل

بالمكتبات وكيفية اقامتها على أحدث الطرق والسير بها لتؤدى أكبر الفوائد بأقل جهد وأقل نفقات بل فى كل ما يتصل بالمهن المتعلقة بالكتاب والانتفاع منه .

ولا يعتبر الاتحاد أضخم اتحاد للمشتغلين بشئون الكتب فى الولايات المتحدة فحسب ، لأنه يضم أعضاء من كل مكتبة بها مهما صغرت ، ولكنه يعد أضخم اتحاد عالمى أيضا لأنه ينشر أجنحته ما أمكن على المكتبات خارج الحدود . ذلك أن الكتاب لا وطن له . فالكتاب العربى أو الفرنسى كالكتاب الانجليزى اذا ترجم أفاد منه غير أهله ما أفاده منه أهله سواء بسواء . وقد يلاقى كتاب خارج وطنه ما يجب له من تقدير لم يلقه عند قومه فيعود اليهم مرة أخرى ليفيدوا منه بعد أن يكون الذى قد نبه الى فضله قارىء الترجمة لا قارىء الأصل .

وبرنامج تقارب الشعوب عن طريق التلاقى الثقافى الذى تحتضنه هيئة الأمم ممثلا فى فرع اليونسكو منها ، برنامج ضخم يعاونه هذا الاتحاد بشتى الوسائل والسبل وقد آمن الاتحاد نفسه بهذا المبدأ العظيم الذى آمنت به هيئة الأمم(*)

(*) بنى هذا الفصل على مقال مرجرت سكوجن (M. C. Scoogin) ومقال نانسى داى (N. S. Day) ومقال لندنبرج (H. M. Lindenberg) ومقال هيلين جير (H. T. Geer) وكلها فى الفصل « المكتبات لك » .

أشهر المكتبات الأمريكية

يرجع تاريخ المكتبات فى أمريكا عامة الى آخر القرن السابع عشر عندما أخذ القس توماس براى فى اعداد ثلاثين مكتبة تابعة لثلاثين كنيسة فى جنوب الولايات المتحدة . وكانت هذه المكتبات خاصة بالقسس أول الأمر ولكنها ما لبثت أن فتحت أبوابها للجمهور . وفى منتصف القرن الثامن عشر أسس بنجامين فرانكلين شركة مكتبات على أساس الاشتراك الفردى فيها حتى جاء القرن التاسع عشر فبدأت المكتبات التى تعتمد على الضرائب الحكومية فى ميزانيتها . وكان حق الانتفاع بالمكتبة دائما على أساس رسوم يدفعها المنتفع ولكن هذه الرسوم كانت دائما ضئيلة وكانت تقبل من كل دافع لها دون أى اعتبار اجتماعى أو ثقافى يحدد عدد دافعيها . وكانت تجبى فى العادة رسوم اضافية ضئيلة على كل كتاب يستعار فى الخارج بل كانت العادة اذا تنافس أكثر من واحد على استعارة كتاب فى الخارج أن يطرح الأمر فى شكل مزاد ليفوز باستعارة الكتاب من يدفع أكثر . إن

هذا وغيره لم يكن الا وسائل فى سبيل مقابلة المشكلة الكبرى التى ما زالت تواجهها المكتبات جميعا وهى ضيق الميزانية وقلة المال .

وفى عام ١٨٠٣ أسست أول مكتبة فى المدن الريفية ثم أخذت مكتبات المدارس (وهى نواة صالحة للتطور بحيث تصبح مكتبة عامة فى بعض المجتمعات الصغيرة) فى التكاثر والنماء . ومنذ منتصف القرن الماضى أخذت مكتبات البلديات فى الظهور ثم النماء والانتشار . وفى أمريكا الآن أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة مكتبة تمولها البلديات تمويلا كاملا جزئيا .

وأخذت حركة الازدياد والانتعاش فى انشاء المكتبات تقوى وتشتد منذ أنشئت جمعية المكتبات الأمريكية . فتضافرت الجهود وأخذت المشروعات تتداخل ويفضل الأهم على الهام بحيث تسير مصالح الأمريكيين جميعا يدا واحدة فى موضوع الانتفاع بالمكتبات العامة . وأصدرت الجمعية مجلة المكتبة وأخذت تعقد مؤتمرا كل عام فى مكان تعينه لدرس المشاكل وتقوية الدوافع التى تقود الى تعميم خدمة المكتبات للجميع وبلا ثمن اذا أمكن . ومنذ فجر هذا القرن أخذت مكتبات الأطفال ، بفضل السيدة املى هانوى ناظرة

مدرسة فى نيويورك ، تزدهر وتنتشر حتى أصبح اليوم ثلث ما ينفق فى كل الدولة فى سبيل الكتب والمكتبات يصب فى باب مكتبات الأطفال وكتبهم .

وتبرع الأثرياء أمثال أندرو كارنيجى لمشروعات المكتبات . ثم أخذت كل ولاية أيضا فى تقوية مكتبتها أو انشائها ان لم تكن موجودة . وبمعاونة المكتبات الكبيرة للمكتبات الناشئة بشتى الوسائل كما تفعل مكتبة الكونجرس مثلا وبفضل ما تسهله جمعية المكتبات من وسائل التضامن والتعاون نمت حركة المكتبات نماءً قويا وأخذ عددها يزداد زيادة تبعث على الرضا .

مكتبة الكونجرس :

وأشهر المكتبات الأمريكية بلا منازع هى مكتبة الكونجرس (البرلمان) . ولقد نشأت أول أمرها كسائر المكتبات البلدية والكنسية لغرض معين هو خدمة فريق بعينهم فى ناحية تخصصهم . وكان هذا الفريق هم أعضاء البرلمان وكان هذا التخصص هو القانون وما يتفرع عنه من مشاكل عمرانية واقتصادية .

أسست أول الأمر عام ١٨٠٠ لجمع المواد اللازمة لأعضاء البرلمان فى عملهم من أطراف الأرض جميعا . ذلك أن العلم

لا يعرف حدودا . ولكنها منذ أول أمرها فتحت أبوابها للموظفين والصحفيين ثم للجمهور على أن يكون حق الاستعارة الخارجية مقصورا على موظفى الحكومة . ولذلك كان الجمهور من غير الموظفين يستعير عن طريقهم أو بوساطتهم .

وتعد مكتبة البرلمان أو الكونجرس أكبر مكتبات العالم اليوم ولكنها بدأت فى غاية التواضع . فلقد كانت تحوى ثلاثة آلاف كتاب فى مبنى متواضع حتى جاء عام ١٨١٢ فأحرق البناء والكتب فى حرب بريطانيا وحرقها للعاصمة الأمريكية كما هو معروف فى التاريخ . وفى عام١٨١٥ اشترت مكتبة الكونجرس مجموعة توماس جفرسن التى كانت عبارة عن ستة آلاف وخمسمائة كتاب وبالرغم من حريق آخر عام ١٨٥١ فان المكتبة واصلت نماءها حتى جاء عام ١٨٩٧ فبنى لها بناء مستقل عن مبنى البرلمان على الطراز الايطالى أيام النهضة كما يراه الزائر اليوم فوق الربوة . وما جاء عام ١٩٢٠ حتى ضاق البناء الفخم بما فيه من كتب فبنى الملحق الجديد على طراز حديث وافتتح عام ١٩٣٩ . وعلى هذه الرقعة التى يبلغ مسطح أبنيتها أكثر من ستة وثلاثين فدانا توجد ملايين الكتب التى تبلغ حسب احصاء عام ١٩٥٢ وإحدا وثلاثين مليونا من الموضوعات (لا النسخ أو المجلدات) .

ولكن المساحات وعدد الكتب ليست هى المكتبة وانما المكتبات بقيمة ما فيها من كتب . ومكتبة الكونجرس تحتوى كتبا بأكثر من مائة لغة ولهجة منها المطبوع بطرق مختلفة فى الطباعة منذ اختراع المطبعة حتى تطورها الى ما تطورت اليه فى عصرنا ومنها المخطوط بمختلف الخطوط على مرّ الزمان . وبها من الخرائط أكثر من مليونين ومن الأشرطة السينمائية والألواح أكثر من مليونين أيضا ومن الاسطوانات ملايين ومن الأشرطة الاذاعية مئات الألوف ومن الألواح المصورة ومجلدات المجلات والصحف والميكروفلم مئات الآلاف .

والى جانب هذه الأعداد الضخمة من المواد تمتاز مكتبة الكونجرس ببعض المجموعات النادرة كمجموعتها السلافية ومجموعاتها عن الشرق الأسيوى الأقصى . ولما تطورت حاجات البرلمان الى أن يعرف أحوال الشعوب وحقائق العلوم عن كل صقع فوق الأرض اتسعت دائرة اختصاص المكتبة حتى شملت العالم كله . وهى تعتبر نفسها مسئولة عن اشعاع العلم الذى بها لا لأعضاء البرلمان الأمريكى أو الموظفين وانما لكل مواطن على هذه الكرة الأرضية أيا كان عمله وأينما كان مسكنه . لذلك فلقد جعلت فهارسها مباحة لكل المكتبات بل للأفراد الذين يريدون نسخا منها . وكثير جدا

من مكتبات أمريكا تشترى من مكتبة الكونجرس بطاقاتها الخاصة بالكتب بمبلغ زهيد جدا لتوفر بعض أعمال المكتبة. هذه البطاقات المفهرسة التى تصف الكتاب وتعين مكانه من المكتبة فى موضوعه. وبالرغم من رخص هذه البطاقات فان شدة الاقبال عليها تتيح للمكتبة جزءا من الربح يصب فى ميزانيتها الضخمة.

وبالمكتبة قسم للتصوير يصور للأفراد والهيئات ما تريد من كتب بغاية الرخص والاتقان والسرعة ما لم تكن هنـاك حقوق ناشرين قد نصت على عدم استغلال الكتاب بهـذه الطريقة. وبها قسم للكتاب البارز الطبع والناطق للمكفوفين كما أسلفنا الذكر.

وأهم قسم بها هو القسم القانونى الذى تزيد كتبه على المليون وملحق بهذا القسم هيئة مهمتها الرد على أسـئلة الناس فى هذا الباب بالذات لتمدهم بالمعلومات المطلوبة. وأكثر عمل هذا القسم يصب فى البرلمان ولقد أفتى هـذا القسم وأمدّ الأعضاء بالمعلومات الفنية فى أكثر من خمسين ألف مسألة فى عام ١٩٥٢ وحده.

والمكتبة ليست أهلية أو قومية بالمعنى الصحيح ولكنها فى الواقع تقوم بدور هذه المكتبات فى البلدان الأخرى. وهى

تعتبر فى الوقت نفسه الأم الكبرى للمكتبات الأمريكية تلجأ اليها من أقصى الولايات المتحدة لتمـدها بالمعونة فى كل ما يتعلق بالكتب .

والمكتبة بعد تحتوى على نسخ نادرة هامة فى تاريخ أمريكا القومى . فخطاب ابراهام لنكولن المشهور بخطاب جيتسبرج وفيه مثل الأمريكيين الأول الأعلى كما آمنوا به اذ ذاك ببساطته وقوته ، مكتوب فى مخطوط فريد بخط لنكولن نفسه . وهو أقدم وثيقة فى تاريخ أمريكا الحديثة . كذلك توجد بها مجموعات خطية ثمينة بخطوط رؤسائها كالرئيس وشنجطن وجفرسون ولنكولن وولسن بل بخطوط عظمائها فى شتى الميادين السياسية أو الأدبية أو العلمية .

والى جانب هذه المخطوطات مخطوطات العظماء توجد مجموعة تمثل الشعب الأمريكى أيضا خير تمثيل مجموعات من القصص الشعبى مكتوبة أو مسجلة ومجمـوعات من الأغانى الشعبية فى الشمال والجنوب على السواء مسجلة أيضا ومجمـوعات من الأشرطة السينمائية والصـور عن الرقصات الشعبية والاحتفالات البدائية الدينية وغير الدينية التى تصور الشعب الأمريكى القديم كما لا يزال يعيش فى بعض المناطق .

وكذلك المجموعات القديمة الطبع كمجموعة من خمسة آلاف وثلاثمائة كتاب كلها طبع أول القرن السادس عشر . وبها أيضا انجيل نادر هو الانجيل الأول الذى طبع كاملا على مطبعة جوتنبرج . وكانت نسخه أربعا لم تبق منها الا هذه . ولقد دفع فيها الدكتور فليهر ربع مليون دولار ولكن الزمان سار والأحوال تغيرت وأصبحت هذه النسخة لا يمكن أن تقدر بثمن . وهذه النسخة معروضة للزائرين . كما تعرض الى جانبها نسخ قديمة من الانجيل تمتاز بالزخرفة الخطية الكثيرة . وأهم هذه الانجيل الذى أهداه لسنج روزنوالد المعروف بانجيل « مانز » . والى جانب الأناجيل تعرض وثائق التاريخ القومى . أول وثيقة تضمن الحريات — حرية العقيدة والكلام والنشر ووثائق لقوانين معـروفة فى تاريخ أمريكا بأثرها القوى فى ماجريات الأحداث كلها بخطوط أصحابها وكما قدمت لأول مـرة لأعضـاء الكونجرس موقعا عليها بامضاءات الأعضاء .

وهكذا يرى الأمريكى الزائر لهذه المكتبة صـفحة من التاريخ القومى معروضة تمثلها المخطـوطات والمطبـوعات بل تمثلها الصور الجميلة والتماثيل الرائعة فى الفناء الرئيسى والى جانب ذلك عظمة حديثة تتجلى فى استخدام الآلة أقوى

استخدام وأعمه لراحة القــراء واستخدام الفنيين أقــوى استخدام وأدقه لمعاونة القراء فى كل ما يطلبون من معــرفة أو ارشـــاد .

مكتبة وزارة الزراعة :

والى جانب مكتبة الكونجرس تأتى فى قائمة المكتبات الأمريكية من حيث الأهمية مكتبة وزارة الزراعة . وهــذه بدورها قد قامت على نفس الفكرة أى خدمة فئة معينة فى غرض معين . خدمة الزراع فى أمور زراعتهم ولكنها كسائر المرافق الأمريكية تبدأ متواضعة ثم تتسع وتقوى حتى تشمل آفاقها أوسع مما قدر لها منشئوها أول الأمر .

وبعد أن كانت هذه المكتبة مقصورة على امداد موظفى وزارة الزراعة بالمعلومات التى تعاونهم فى عملهم أصبحت تمد الزراع فى أنحاء أمريكا كلها بل الزراع فى العالم كله بكل ما قد يحتاجون اليه من معلومات فنية وعلمية فى ميدان عملهم . وبعد أن كانت المكتبة قاصرة على الكتب وما يشابهها الخاصة بالزراعة الأمريكية أصبحت تشمل كل ما يؤلف عن الزراعة فى شتى أنحاء الأرض . وبعد أن كانت تعنى بجمع المعلومات والاحصاءات الحية عن حال الزراعة وما يتصل بها من علوم فى الولايات المتحدة أصبحت مهتمة بجمع المعلومات

الدقيقة والاحصاءات المنوعة الوفيرة عن أحوال الزراعة وكل ما يتصل بها من علوم فى أنحاء الدنيا ، وبعد أن كانت مهمتها لاتتعدى الحاضر والفائدة السريعة المرجوة الآن تعدت مهمتها الى الماضى والمستقبل واهتمت بتاريخ الزراعة ومستقبلها .

ولكنها ظلت كسائر المكتبات الأمريكية كالمكتبة الطبية الملحقة بالجيش مثلا تعمل أكثر عملها فى النطاق الذى أنشئت من أجله وللغاية الأولى التى استهدفتها وهى تحسين الانتاج الزراعى والحيوانى فى الولايات المتحدة .

وهى فى سبيل ذلك تصدر مجلة ونشرات وقوائم كتب وبحوثا خاصة فى مناسبات خاصة كبحوثها عن آفة معينة أو نوع جديد من الزرع وتوزع أكثر هذه المطبوعات مجانا أو كالمجان على كل من يريد أن ينتفع منها (*) .

(*) بنى هذا الفصل على مقـــال مارجى مالمبرج (M. S. Malemberg) ومقال لويز بركاو (L. O. Bercaw) ومقال اليزابيث هامر (E. E. Hamer) من الفصل « المكتبات لك » .

أشهر المكتبات المصرية

عرفت مصر المكتبات منذ أقدم عصورها اذا عرفنا المكتبة على أنها مجموعة من كتب تحفظ فى مكان للرجوع اليها واذا عرفنا الكتاب بكل ما هو مكتوب بقصد المحافظة عليه ليطلع عليه طالب المعرفة . فلقد عرفت المعابد الفرعونية القديمة أوراقا من البردى حفظت فيها حكمة الكهان . ثم كانت مكتبة الاسكندرية المعروفة فى العصر الرومانى التى نسبت الى عمرو بن العاص ظلما جريمة حرقها .

وعلى مرّ العصر الوسيط نجد المكتبات فى العالم الاسلامى فى كل عاصمة أو مدينة كبيرة . مكتبات فى المساجد التى كانت تعقد فيها حلقات التدريس وحلقات المناقشات العلمية . ومكتبات خاصة لدى العلماء المعروفين لم يكونوا يضنون بها على تلاميذهم وأصدقائهم . ومكتبات عامة كان بعض الخلفاء أو الحكام يحرصون على اقامتها وفتح أبوابها للدارسين . وشهر من هذه المكتبات عدد كبير . وكانت مكتبات مصر والأندلس والشام والعراق تتنافس على جمع الكتب وكان الخلفاء ينفقون الأموال الطائلة على تشجيع التأليف .

وعرفت مصر منذ ألف عـام وأكثر قليلا جامعة الأزهر الشريف وفى هذه الجامعة العريقة كانت مكتبة تصغر وتكبر باختـلاف الزمان عليها والأحوال السياسية الدينية خاصة ولكنها منذ فجر العصر الحديث قد ثبتت أقدامها وأخـذت فى الكمال والزيادة .

ومكتبة الأزهر الشريف لها نواة منذ نشأته فى العصر الفاطمى يتكون أغلبها من آثار الفقه الشيعى ثم تنوعت محتوياتها حتى غدت فى القرن السادس عشر من أعظم المكتبات الاسلامية . ولكنها فى العصر التركى تضاءلت أهميتها وبدد الكثير من محتوياتها النفيسة ولم يبق منها الا ما كان ملحقا بالأروقة المختلفة . وفى أواخر القرن الماضى قام الشـيخ محمد عبده وجماعة معه بمجهود لجمع أشتات هذه المكتبة من جديد . فجمعت الكتب من الأروقة ومن بعض المساجد فبلغ عدد ما جمع أكثر من اثنين وعشرين ألفا من المجلدات . ثم أخذت هذه النواة تنمو وتزداد بالهبات والشراء حتى جاوز عدد كتبها واحدا وستين ألفا منها مخطوطات نفيسة نادرة . وقد أهديت الى مكتبة الأزهر مكتبات أفراد عديدين أمثال الشيخ عبد الرحمن قطب والشيخ حسونة النواوى والشيخ محمد بخيت وسليمان أباظة وغيرهم .

وتشغل المكتبة ثلاثة أماكن اثنان داخل الأزهر والثالث في بناء مجاور ولكن الأماكن الثلاثة ضاقت بما فيها من كتب فأنشىء بناء خاص على أحدث طراز بالمدينة الأزهرية .

ويتفرع من مكتبة الأزهر العامة مكتبات خاصة بكليات الأزهر فهناك مكتبة كلية الشريعة وبها أكثر من أربعة آلاف كتاب ومكتبة كلية اللغة العربية وبها أكثر من تسعة آلاف .

أما مكتبة جامعة القاهرة فان تكن أحدث عهدا فهي أكثر كتبا وأوسع دائرة ، متنوعة الموضوعات بتنوع الدراسة فيها . ولقد تألفت هذه المكتبة من نواة قديمة هي مجموعة الجامعة الأهلية التي افتتحت عام ١٩٠٨ وكان أكثرها كتبا مهداة من الدول والهيئات ثم أضيفت اليها مجموعات كبيرة عام ١٩٢٥ لما أصبحت الجامعة مؤسسة حكومية .

واستطاعت المكتبة أن تحصل على مجموعة ثمينة جدا من الكتب الخاصة بالدراسات الشرقية كان يمتلكها الأستاذ زيبولد وعلى مجموعة الأستاذ يونكر في الآثار ومجموعة المستشرق ماكس مايرهوف .

والمكتبة تدار على أحدث الطرق ومن شبانها من ذهب وتخصص في فن المكتبات في أمريكا ويبلغ رصيدها من

الكتب أكثر من مائة وسبعة وخمسين ألفا فى أكثر من مائتى ألف مجلد منها خمسة آلاف وسبعة وأربعون مخطوطا نفيسا، ومنها كتب بالفارسية والتركية والأوردية عدا ما فيها من كتب باللغات القديمة واللغات الأفرنجية الحديثة .

والمكتبة مشتركة فى مجلات انجليزية وأمريكية تربو على الستمائة ومجلات بلغات أوروبية أخرى تزيد على المائة وأكثرها فى مجلدات فى قسم خاص يعرف بقسم الدوريات .

ولقد أهديت الى المكتبة مجموعة نفيسة من الكتب على مر السنين أهمها مكتبة الأميرين ابراهيم حلمى وكمال الدين حسين والمكتبتان تحتويان على أكثر من عشرين ألف مجلد .

وبالمكتبة قاعة خاصة لمراجع الدراسات الاسلامية بحيث يستفيد القارىء منها دون طلب الكتاب باستعارة داخلية وانما الكتب على الطريقة الأمريكية على الرفوف يقرأ فيها من أراد . وبها أيضا قاعة تذكارية للملك فؤاد تضم الوثائق الخاصة بانشـــاء الجامعة وبها أيضا غرفة للنقود الرومانية واليونانية القديمة وعدد من أوراق البردى وزجاج الفانوس السحرى وبعض الأنواط والأحجار الأثرية القديمة .

وهى مفتوحة لطلبة الجامعة والأساتذة ولا يدخلها غيرهم

الا باذن خاص . وبها نظام الاستعارة الداخلية والخارجية على السواء .

وفى كليات الجامعة مكتبة فرعية لكل منها تعتبر فرعا لهذه المكتبة العامة تستمد منها الكتب والموظفين وتعمل معها يدا واحدة فى تقديم العلم والمعلومات للجامعيين طلبة وأساتذة . ولما تعددت الجامعات تعددت المكتبات بتعددها وتعدد كلياتها ولكنها كلها حديثة عهد محدودة النطاق .

أما المكتبات التى لا تتبع الجامعات فهى منوعة كثيرة فى مصر . منها مكتبات البلديات وأوسعها وأنفسها مكتبة بلدية الاسكندرية التى يتجاوز عدد الكتب فيها سبعة وسبعين ألفا بينما مكتبات البلديات الأخرى لا تكاد الا قليلا تجاوز عشرين ألفا وذلك لما تمتاز به بلدية الأسكندرية من ثراء بالنسبة لسائر البلديات للأسباب التاريخية والاجتماعية المعروفة . كذلك هناك مكتبات تتبع الوزارات المختلفة كل منها فى اختصاصها ومكتبات تتبع المحاكم أشهرها مكتبة محكمة الاستئناف ثم مكتبة مجلس الدولة . وأكثر هذه المكتبات حديث لذلك لم يتح لها من التطور ما يجعلها تجاوز اختصاصها الضيق الذى أنشئت المكتبة من أجله كما حدث مثلا فى مكتبة البرلمان الأمريكى (الكونجرس) . وحتى

مكتبة البرلمان عندنا ما زالت هي الأخرى ضيقة الدائرة على كثرة ما كان يحتاج اليه المجلس من معلومات وبيانات واحصاءات كانت الوزارات عادة تمده بها وكانت جهود الفنيين تضيع عادة فى جمع المعلومات من مظانها .

أما المكتبة التى تفخر بها مصر حقا وتعتبر أوسع مكتباتها شهرة وقيمة فهى دار الكتب المصرية التى أنشئت عام ١٨٧٠ . وكانت نواة هذه الدار التى تقع اليوم فى ميدان باب الخلق وكانت قبلا فى قصر مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز ، هى الكتب التى جمعها على مبارك باشا مدير المعارف اذ ذاك من المساجد والأضرحة ودور العلم وبعد ستة أعوام من انشائها أضيفت اليها مكتبة مصطفى فاضل باشا نفسه وكانت مجموعة من نوادر المخطوطات تبلغ نحوا من ثلاثة آلاف وخمسمائة مجلد . ثم ضمت اليها فيما بعد الخزانة الزكية ومكتبة طلعت باشا ومكتبة تيمور وجلال الحسينى وحجاج .

وأما نواة الكتب الأفرنجية بالدار فقد تكونت من كتب الجمعية المصرية التى ألفها بعض الأجانب المشتغلين بالعلم فى مصر . وكانت ثروة الدار آخر عام ١٩٥٣ تزيد على نصف مليون مجلد باللغات العربية والشرقية والأوروبية .

وبالدار أقسام كثيرة أهمها القسم الأدبى الذى يعمل على

احياء التراث العربى بنشر أمهات الكتب والموسوعات بعد تحقيقها تحقيقا علميا كأحدث ما عرف فى نظم النشر العلمى ثم التعليق عليها . وترجع أهمية هذا القسم الى انه فريد بين مكتبات العالم فى العبء الملقى عليه لأن التراث العربى قديم أقدم من أى تراث فى اللغات الأخرى وهو عديد عددا لا يكاد يحصر لاتساع رقعة الدولة العربية وامتداد زمانها قرونا عديدة مما أتاح فى التأليف عددا من الرجال لا يمكن حصره .

وفى الدار أيضا قسم فريد للبرديات يضم مجموعة نادرة أقلها مدروس والباقى فى انتظار المختصين لدراسته ليكشف لنا عن صفحة أخرى ممعنة فى القدم من تاريخنا المصرى القديم . وبالمكتبة أقسام أخرى عديدة كقسم التعاون الثقافى بين مصر والدول العربية الشرقية والافرنجية أيضا ثم قسم خاص بالتصوير مزود بأحدث الآلات لا يصور الا لحساب الدار . ثم قسم النور وهو مجموعة من كتب المكفوفين مطبوعة بطريقة برايّ .

وللدار تسعة فروع فى أنحاء القاهرة وهى تشرف عليها وتعاونها بل تقدم كل ما يمكن أن تقدمه فى سبيل معاونة مكتبات الأقاليم غير التابعة لها على القيام بمهمتها .

كذلك بالمكتبة مجموعة نادرة من المصاحف المخطوطة يرجع تاريخها الى أقدم العصور وأكثرها نفيس لخطه وزخرفته الممتازة وكثيرا ما تعرض بعض هذه المصاحف فى أماكن مخصصة ليراها الجمهور .

ومن المكتبات النادرة فى مصر التى تمتد قيمتها لقدم المجموعات التى بها مكتبة دير سانت كترين فى طورسينا التى يرجع تاريخها الى القرون الأولى لظهور المسيحية عندما لجأ بعض الرهبان الى هذا الدير البعيد فارين من العذاب والاضطهاد . وفى المكتبة أكثر من خمسة آلاف مخطوط من أقدم المخطوطات المعروفة فى العالم وبها مجموعات من المخطوطات عربية وسريانية ويونانية وأرمنية وجورجانية وسلاقونية . ولعل أقدم هذه المجموعات وأنفسها المجموعة اليونانية . ومكتبة الدير خاصة بالرهبان ولا يمكن للجمهور الافادة منها لبعدها فى الصحراء .

ومن أحدث المكتبات المصرية مكتبة التحرير بمصر الجديدة التى تمتاز بأنها قد خصصت قسما للأطفال وبأنها قد أخذت تفتح أبوابها لرواد الثقافة فتحا واسعا فهى تعرض أشرطة سينمائية وتنظم برامج للأطفال وللشباب لتحبب

القراءة اليهم وتقرب المكتبة بشتى أنواع نشاطها من حياتهم اليوميـــة .

هذه لمحة سريعة عن أشهر مكتباتنا وكلها تنبىء بأن هذه المكتبات رغم قلتها وحداثة عهد أكثرها قد أخذت تتزايد تزايدا قويا سريعا . وكلنا أمل فى أن الطليعة من المتخصصين من شبابنا فى فن المكتبات سيدخلون النور والحياة فى هذه المكتبات العتيقة بحيث تنهض برسالتها نهوضا حديثا قويا .

مكتبات على عجلات

وآخر ما حققت جهود المعنيين بشئون القراءة والمكتبات في سبيل تقريب الكتاب من القارىء فكرة المكتبات على عجلات وهذه فكرة بسيطة تراءت لآنسة متواضعة المركز كانت تعمل موظفة فى المكتبة المجانية فى « هاجرزتاون » فى وشنجطن . وقد استقبلت فى المنطقة أول ما عينت بكثير من التحامل عليها لأنها أتت من « نيوانجلند » فكانت فى نظر أهل المنطقة غريبة عنهم . ولكن سرعان ما برهنت الآنسة تتكومب بعملها على أنها جديرة بكل حب . لقد كانت مؤمنة بأن الكتاب يجب أن يصل الى أكبر عدد من القراء وان الجهود التى تبذل فى تقريب الكتاب من القارىء يجب ألا تقف عند حد أبدا . ومن تجاربها العديدة وعقلها الممتاز خرجت فكرة عربات الكتب التى تحمل طائفة كبيرة من الكتب الى المراكز النائية التى لا توجد فيها مكتبات لسبب أو لآخر . وشاعت فكرتها بعد تجربتها وعمت حتى ان قرى أمريكا اليوم النائية تنعم بأكثر من خمسمائة عربة من عربات الكتب المتنقلة التى تزور مراكز عديدة فى اليوم ولا تعود لنفس المركز لتغيير الكتب التى استعيرت بغيرها الا بعد أسبوعين وأحيانا بعد ثلاثة .

بل ان الفكرة قد خرجت من الحدود الأمريكية الى أوروبا فعرفت النرويج مثلا المراكب النهرية التى تحمل الكتب من مكان الى مكان الى القرّاء الشغوفين بالقراءة .

وطبقت انجلترا النظام بنجاح وقلدت أمريكا فى ذلك دول كثيرة .

وكانت فكرة المكتبات على العجلات لطرافتها وقوة ما ترمز اليه من ايمان برسالة الكتاب واستحسان المنتفعين منها لما أدت اليهم من خدمات تبدو أول الأمر وكأنها الحل لمشاكل عديدة كانت تواجه الذين يعملون فى المكتبات . ولكن الواقع أثبت أن الفكرة ناجحة فى نواح كثيرة ولكنها لا يمكن أن تغنى عن المكتبة الدائمة بحال . لذلك قصر استعمالها على المناطق النائية قليلة السكان التى لا يبرر عدد السكان فيها الانفاق على فرع دائم لمكتبة أو مكتبة دائمة . وهى فى سبيل امداد المكتبات الكبيرة بالمعلومات فى صدد فتح الفروع أو انشاء المكتبات الجديدة وسيلة لا تضارعها وسيلة أخرى . فعربة الكتب تلك تستطيع بعد زيارات متعددة لمكان يراد ارتياد الأحوال فيه ، أن تقدم الاحصاءات الدقيقة اللازمة التى يعرف منها من يعنيهم الأمر نوع الجماعة التى يراد انشاء المكتبة أو الفرع لهم ومدى اقبالهم على القراءة ونوع القراءة التى يقرأون والموضوعات

التى تلذهم والتى يحتاجون اليها ثم مدى افادتهم أو احتمال افادتهم مما يقرأون . فهل الأنسب مثلا انشاء فرع للأطفال أم للشباب أم للجميع . وعلى أى نطاق ، وهكذا يعرف الذين يعنيهم أمر نشر المكتبات أين وكيف يصبون الأموال والجهود فى سبيل نشر الوعى القرائى .

وعربة المكتبة هذه تتصل بالقراء مباشرة فى بعض المناطق حيث هم وكما هم . وأحيانا تتصل بهيئة أو مؤسسة لتوفر الوقت وتدع للهيئة أو المؤسسة مهمة افادة السكان من كتبها. كأن تمر على مدرسة مثلا وتترك لها ما يلزم المنطقة من كتب حسبما عملت من تقارير وتدع الأهالى يعاملون مكتبة المدرسة المحدودة الدخل والتى تمدها العربة بما تفتقر اليه من كتب . ولكن أكثرها يعامل الناس أطفالا وشبابا ونساء ورجالا مباشرة . وبالعربة عادة سائق وموظف وفى بعض المناطق يقوم السائق بمهمة الموظف ، يرشد الناس ، الأطفال والنشء والشبان والشيوخ ، الى كيفية ملء الاستمارات ويتبين منهم حاجاتهم وقد يقف ليحدثهم فيما قد قرأوا . وكثيرا ما يكون الموظف سيدة مختصة تحدث الجماعة عما قرأوا وفيما يريدون أن يقرأوا . والعربة دائما تستقبل بعاصفة من البهجة والاكرام ؛ ذلك أنها مظهر من مظاهر الحياة والنشاط عادة فى هذه البيئات الساكنة الراكدة .

ولعربة الكتب فوائد أخرى بالنسبة للكتب ذاتها . ففى بعض المكتبات تظل بعض الكتب راكدة لا يقرؤها أحد لأنها لا تلائم البيئة مثلا أو لأن الذين يهمهم أمرها قد قرأوها وانتهى الأمر بالنسبة اليها فاذا هذه العربات تنقلها من مكان الى مكان فتكسب بهذه النقلة حياة جديدة واذا قراء آخرون يتلقفونها بفرح ويقرأون فيها بعد أن كانت قد هجرت . وهناك كتب لا تحتاج اليها الا قلة فى كل منطقة . فهذه الكتب يحسن أن تنتقل الى هذه القلة فى أمكنة عديدة بدل أن تظل حيث هى وتحرم منها القلة فى مناطق كثيرة لأن ميزانية المكتبات الصغيرة خاصة لا تحتمل شراء كتب لقلة من القراء . وهكذا يجد الكتاب كثرة من القراء اذا جمعنا له هذه القلة هنا وهناك لتقرأه بوساطة العربات المتنقلة بالكتاب.

وكثيرا ما ينتقل السكان من مكان الى مكان فاذا المكتبات الكبيرة تجد طائفة من الكتب كان هؤلاء السكان الذين نزحوا يقرأون فيها فأصبحت اليوم ولا يقرؤها أحد . فعربة الكتب تتيح لهؤلاء النازحين لسبب أو لآخر أن يلاقوا كتبهم الحبيبة مرة أخرى لأنها أخذت تسعى اليهم حيثما نزحوا . وهكذا تحل عربة الكتب مشكلات وتساعد المكتبات العامة الكبيرة على عملها .

وعربة الكتب تلك يتراوح ثمنها بين ستة آلاف وعشرة آلاف دولار وهى تتطلب مثل هذا المبلغ فى العام كنفقات لسيرها وأجور لموظفيها . ولكنها تستحق فى الواقع أكثر من هذا لأنها تؤدى الى عشرات الآلاف المتناثرين على رقاع واسعة من الأرض خدمات ما كانت لتصل اليهم لولا فكرتها ، فكرة تلك السيدة المتواضعة التى قوبلت بعاصفة من السخط لأنها غريبة عن هاجرزتاون فى وشنجطن الآنسة تتكومب .

أما الأطفال والنساء فانهم أكثر المرحبين بتلك العربة ساعة تصل قريتهم وهى تحمل اليهم كتبا فى المغامرات والشعر والتطريز والطهى وفى كل فن حسبما يريدون . وكثيرات من موظفات المكتبات يعجبهن العمل فى هذه العربات لحرارة الاستقبال الذى يقابلن به من سكان هـذه القرى النائية ولايمانهن أنهن فعلا يؤدين نوعا ممتـازا من العمل ليس سـهلا يحتاج اليه المجتمع أيما احتياج . وكثيرات منهن يسعدن بهذا الجمهـور الساذج الطيب القلب وهو يأتيه فى ايمان به وفرح لمقدمه يستشير ويسأل ويعلق على ما قرأ بأعجب بل بأطرف التعليقـات التى لا يمكن أن تسمع فى المدن . ومنهن من تدوّن كل هذا فى تقريرها ومنهن من تعمل أكثر من مجرد كتابة التقارير لانجاح هـذه الفكرة العظيمة .

ان فائدة المكتبات على عجلات لا يمكن أن تقاس بالأرقام والاحصاء ، بما ينفق عليها وبما يؤديه المنتفعون من رسوم وما تضطر المكتبات الى تحمله من باقى المصروفات . بل لا يمكن أن تقاس بعدد الذين يفيدون بالفعل . ان فائدتها كفائدة الاختراع الجديد أو الرجل العبقرى العظيم لا يقاس بوزنه ولا يقاس بما أنفق فى سبيله وانما يقاس بنوع الخير ومداه فى نفوس الأفراد الذين ينتفعون به .

وأخيرا أيمكن أن نقتبس نظام المكتبات على عجلات هنا فى مصر وأكثر قرانا بل أكثر مدننا فيما عدا عواصم المديريات ليس فيها مكتبات عامة من أى نوع ؟

انها فكرة ، مجرد فكرة ، ومن يدرى ماذا سيكون من أثرها لو قد طبقت بشرط أن نغض النظر عن التكاليف ومدى ما يصيب الفرد الواحد أو ما شابه ذلك من تقارير تفسد الأفكار الجميلة التى لا يقاس نجاحها بما قدمت من ربح أو وفّرت من مال وانما تقاس بأثرها العام فى مجموع الشعب ، أثرها المعنوى الذى قد يظهر بعد أعوام طويلة (*)

(*) بنى هذا الفصل على مقال ملدردساندو (M. W. Sandoe) ومقال جلاديس سكلى (G. Skelle) من الفصل « المكتبات لك » .

هذا الكتاب

هل تقرأ ؟! ستقول نعم ولو اقتصرت قراءتك على تصفح الجريدة الصباحية .. وليست هذه هى القراءة المقصودة . بل قراءة الكتب ... الكتب تلك الأرواح العظيمة المحنطة بين غلافين ... تستحضرها وتصحبها محلقا معها فى آفاق المعرفة والحكمة والجمال .

ماذا تقرأ ؟ ولماذا تقرأ ؟ وكيف تقرأ ؟ وكيف تختار كتبك بحيث تأخذ منها أكثر مما تدفع فيها ؟ ان القراءة تعليم وتثقيف ولكنها أيضا متعة وبهجة ... وهى الى ذلك فائدة مادية واستثمار ناجح لمواهبك وتسخير لامكانياتك وتعبئة لقواتك وملكاتك الظاهرة والخفية ... بشرط أن تحسن اختيار ما تقرأ وأن تعرف كيف تقرأ وتهضم ما تقرأ . فلا تقرأ ارتجالا بل تدرس فنون القراءة وأصولها .

وهذا ما يحاول أن يرشدك اليه هذا الكتاب فيقدم لك دراسة قام بها لفيف من العلماء الأمريكيين من الاساتذة والناشرين والمربين . وقد تناولت هذه الدراسة بالاقتباس بالتعريب والتهذيب أستاذة ممتازة ومفكرة لماحة ومحاضرة ساحرة هى الدكتورة سهير القلماوى . فكانت النتيجة دراسة غربية عربية هى خلاصة الحكمة والجمال .

(كتاب لا بد أن يقرأ)

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية